obeikandl.com

بدوي في أوروبا

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

٨١٢,٩

جمع جمعة حماد

بدوي في اوروبا/ جمعة حماد. - ط٢. - عمان: دار البشير، ١٩٩٤

(٢٢٥)ص

ر. أ(٥٩/ ١/ ١٩٩٤)

١ - القصة العربية القصيرة أ - العنوان

(تمت الفهرسة من قبل المكتبة الوطنية)

Dar Al-bashir

For Publishing & Distribution

Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

دار البشير

ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

obeikandl.com

بدوي في أوروبا

جمعة حماد

دار البشير
للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

عندما رأيته لأول مرة بعد عودته من أوروبا، كان يبدو كواحد من الحكماء الأقدمين الذين خاضوا غمار تجارب عملية وفكرية وفلسفية شاملة. وكان واضحاً أنّ أشياء غاية في الخطورة قد أثرت في مجرى حياته، وحركت فكره ليظل قلقا لا يطمئن على حال.

كان يتربع في بيت من الشعر قريباً من «خربة قمران» بجوار البحر الميت، وأمامه مجموعة من بكارج القهوة، وإبريق الشاي، وحوله إخوانه وأقاربه، وهو يتطلع إلى مجموعة من السيارات ملأى بالسائحين والسائحات يدلفون إلى الكهوف المجاورة، ويتابع تحركاتهم بنظرات فيها لون من الاستخفاف واللامبالاة. وقد كان إلى وقت قريب لا تمر سيارة من هذه السيارات أو مجموعة من هؤلاء الغرباء، إلا ويقفز إليهم، ويلتهمهم بنظراته التهاماً كما يلتهمونه بنظراتهم.

وكان سويلم يحمل فلسفة معينة بالنسبة لهؤلاء الأجانب، والإناث منهم على وجه الخصوص وكان هذا العربي الذي يصمد لسهام النظر الجارح من عيون قومه، يخضعه هو إلى تفسيرات خاصة به، يرد معظمها إلى التقاليد، وإلى عدم اكتراث تلك النسوة برجولة البدو، وإن الواحدة منهن تنظر إليه وإلى أمثاله كما تنظر إلى (القرد)، أو إلى مخلوقات من فئات

الحلقة المفقودة التي لم يهتد إليها داروين في سلسلة تحقيقاته عن أصل ابن آدم، وكان قومه يرون أن هؤلاء الأجانب يأتون عبر البحار السبعة من قبيلة واحدة تحكم نساؤها رجالها، وهم لذلك يحاولون أن يجدوا تفسيرات لهذه النظرية، حكم النساء للرجال، حين تتقدم المرأة أمام الرجل، فيقول جماعة سويلم لبعضهم: (أرأيت كيف تقوده)، وكما يفرق هؤلاء القوم بين زي المرأة من «قبيلة الترابين»، أو «الحويطات»، وبين زيها عند «بني صخر»، «والتياها»، «والعزازمة»، كانوا يضمون إلى هذه القبيلة كل النساء الكاسيات في المدن المجاورة التي يقدر لهم زيارتها، وهم يعجبون أشد العجب من هذه القبيلة (السائحة) التي تملأ نساؤها شوارع مدنهم.. ويتفرسون في تلك النسوة، (وقلة حيائهن)، ويقولون بإشفاق: (الله يساعد رجالهن)!.

ولكن سويلم كان أقل تطرفاً من قومه هؤلاء، وأكثر تساهلاً ـ كما قلنا ـ في موضوع كشف العورات، ولكنه يضطر أن يردد مع قومه على أى حال: (ليس بعد الكفر ذنب).!

لقد أحب سويلم هذه الخرائب التي يسمونها الآثار القديمة حياته، منذ أن كان دليلاً صغيراً يحمل أفراد بعثات التنقيب عن الآثار على جمله، وبين خرائب بلاده في قضاء «بئر السبع»، إلى أن اضطر أن يمارس هذه المهنة عند «البتراء»، وأخيراً عند «خربة قمران»، كان يدخل الكهوف والمغاور في خشوع، وكان يقلب الحجارة الأثرية كما يتصفح كتاباً مقدساً، وكان كلما أمعن النظر في صنع الإنسان الأول تتسرب الرهبة والخوف إلى نفسه، ويتمتم بإيمان: (كل من عليها فان)! لقد رأى أصنافاً عديدة من الناس، وتقلبت عليه وجوه لا يستطيع أن يحصيها، وأصحابها

يجمعون حجراً إلى حجر، وأثراً إلى أثر، ليخرجوه حقيقة من وقائع تاريخ الأولين. ربما كان جهدهم لتقديم العبرة، وربما كان لحب الاستطلاع والتفتيش عن غرائب الماضي، واستطاع مع الزمن أن يتأقلم مع هذا المحيط الأثري، وأن يعرف بضع جمل (تسلك حاله) بالانجليزية، والألمانية، والفرنسية بلهجة أصحابها الأصلية، وكان سويلم يرى في هذه الجماعات التي تروح وتغدو عليه لونا آخر من هذه الآثار، ودليلاً آخر على أن (كل من عليها فان)، لقد ذهبت بعثة، وجاءت بعثات، وتعرف على أناس ونسيهم، ولكنه لم ينس مطلقاً ذلك الشاب الألماني الذي رافقه عاماً ونصف عام، ثم عاد إلى بلاده، وكتب إليه رسالة باللغة العربية قرأها أكثر من واحد، واحتفظ بها حتى بليت، وقامت الحرب الكونية الثانية، وقرأ سويلم الفاتحة عن روح صديقه الذي لا بد قد دمرته القنابل والغازات السامة، ولكنه ظل يحتفظ له بأثر محفور في قلبه، من يوم فارقه على كثرة ما لقي سويلم من وجوه، وعلى كثرة ما تعرض للمصائب التي قذفته من ديرته قريباً من (السبيطة)، (والمشرفة) (والعوجاحفير) إلى هذه المنطقة البعيدة لاجئا لا يعرف جنباً يرتاح طويلاً عليه!

ولقد كان ذلك الشاب الألماني جديراً بهذا الحب، وذلك الوفاء الذي ما زال (سويلم) يحتفظ له به على كر الشهور والأعوام كان يتكلم العربية بلهجة تقرب من لهجة سويلم، وكان نشيطاً متواضعاً، لا يتعالى على أهل تلك المنطقة، يشاركهم الطعام واحتساء القهوة، ويلف نفسه في حرامـاتهم في الليل، ثم سمى نفسه (عبدالله) تسهيلاً للنطق والتفاهم، وكان يقفز مع الفجر إلى الجمل، يسبق في كثير من الأحيان (سويلم) في ربط (الشداد) على ظهره، ثم ينطلق مع صديقه سويلم إلى

خرائب «السبيطة» «والمشرفة»، يراقبون العمال وهم يحفرون ويخططون لهم عملهم في اليوم التالي، إلى أن استقر بهم المقام فوق «تل العوجا حفير» . . . . فماذا كان بينهما . . .

(٢)

كانت الأرض قد أتت أكلها، وتزينت في ذلك الربيع من عام ١٩٣٨، وكان التل الأثري الشامخ يشرف على سهل تلتقي فيه الأودية القادمة عبر الجبال البعيدة من الجنوب والشرق.

وكان سويلم في عمر المراهقة، لا يعرف عدد سنواته بالضبط، وإن كان يعرف أنه ولد سنة (الثلجة) التي تم فيها عرس (أبو شلهوب)، وقتل في ربيعها أبو ارقيق حاكماً طاغية فرضه الإنجليز على بئر السبع اسمه (صفير). وكان سويلم في ذروة التفتح والنشاط، وقد غادر مضارب عشيرته ليحط الرحال، وينصب الخيام مع عبدالله على سفح «تل عوجا حفير».

وحين أخذ العمال يضربون بمعاولهم في ذلك التل، أحس أنهم سيكشفون عن أشياء سيفرح بها عبدالله، وربما عوضه الله بكنز من كنوز الأقدمين التي كان سويلم وقوم سويلم يظنون أن هؤلاء الغرباء يبحثون عنها، ولكن العمال لم يكشفوا هذا الكنز، ولو أنهم عثروا على قطع قليلة من الذهب كانوا أمناء في تسليمها لعبدالله، ولكنهم اكتشفوا قصوراً، وحمامات، ومقابر، وعن رخام، وملابس من حرير لم ير سويلم مثلها، ولكنها طارت هباء بمجرد ما وصل إليها النور.

وكان أغرب ما أثار انتباه سويلم ذلك الحمّام الرائع الذي كشف عنه التنقيب، لقد تتبع سويلم مسير الماء من الفرن إلى الرخام الملون الذي يغتسل فيه أولئك الجبابرة الأقدمون في عجب لا حد له، فلم يصل إلى علمه في ذلك الوقت أن الناس يهتمون بغسل أجسادهم إلى هذا الحد الذي يبدو فيه الحمام قصراً تتفجر فيه عيون الماء الدافىء، وكل ما يعرفه أنه يتناول إبريقاً من الماء، ويختفي وراء جرف، أو كثيب من رمل، ثم يلقي بذلك الإبريق على رأسه، فيخرج الماء منه في صوت كهدير الجمل، وهو يردد الشهادتين، ويستعيذ من شر الشياطين، والتفت سويلم إلى عبدالله يحدثه: يا سبحان الله! كم كان الأولون يتمتعون في حياتهم أرأيت مثل هذه الحمامات؟ قال عبدالله (الألماني): إيه يا سويلم، وأحسن منها في المدن يهتمون للحمامات، وفي بلادنا أيضا، فاتسعت حدقتا سويلم. إذن ذلك هو السبب في أن النساء عندكم بيض كالقرطاس من كثرة ما يغتسلن، كتلك المرأة التي جاءت معكم أول ما وصلتم إلى «المشرفة»! قال عبدالله: ربما، وفي بلادنا يسخن معظم هذه الحمامات بالكهرباء. وبالطبع أخذ وقتاً طويلاً يفسر لسويلم كيف تتولد الحرارة عن الكهرباء، ولكن ذلك كان فاتحة لأن يتوسع في الحديث عن ألمانيا، وعن بلاد ما وراء البحار البعيدة، وأن يتحدث عن عادات الناس هناك، وكيف يختارون أزواجهم، وكان فاتحة لأن يحدثه سويلم عن كل ما يعرف من عادات البادية، وقصص الحب العذري فيها، ثم عن مراسم الزواج حين يتم جمع الرؤوس في الحلال.

وكان حديث عبدالله يفتح أمام سويلم آفاقاً واسعة، وكان حديث سويلم يزيد في قناعة عبدالله من ذكاء البدوي، حتى لقد وعده فعلاً

بأن يصحبه معه في زيارة لألمانيا يحل ضيفاً عليه هناك، حيث يتفرج على الناس، (ويشوف الدنيا). وعلى الرغم من أن سويلم أحس في قرارة نفسه برهبة من المغامرة بالذهاب إلى بلاد غريبة، فإن ذلك الوعد كان كافياً لمضاعفة نشاطه، ومبالغته في خدمة وإكرام هذا الرجل الألماني الذي يتنقل في حمايته وحماية عشيرته، فكان يقدم له قرص (الملة) مع السمن نظيفاً لا رمل فيه، ولا غبار عليه، وكان يسير معه إلى التلال المجاورة في صمت مطبق، لكي لا يفسد عليه تأملاته، وأخيراً حاول أن يرفض الأجرة التي اتفق معه عليها في بداية صحبته له.

غير أن سويلم فوجىء بارتباك صديقه بعد رسالة تلقاها من بلاده أحضرها له جندي من نقطة بوليس مجاورة، وفوجىء باستعداده للعودة دون أن يصحبه معه، ولقد حزن سويلم على فراق هذا الرجل الغريب ليس (لتلك العزومة) فحسب، وإنما لتلك الطيبة والتواضع الذي سحره وسحر أقرباءه به، ولم يعرف سويلم سر تلك الرسالة، ولم يعرف دواعي اختفاء صاحبه فجأة قبل أن يتم عمله إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية، فتذكر حينذاك أن عبدالله قد ذكر له الإنجليز الذين يحكمون هذه البلاد بكلمات فيها كثير من الغيظ وعدم الرضا.. وكذلك فقد لمح عليهم في رسالته الوحيدة التي وصلت بعد مغادرته بأيام.

ولقد وصلت أنباء الحرب حتى إلى سويلم في عشيرته، ووصلت أحاديث الدمار والخراب عن طريق أجهزة الراديو التي يوزعها الإنجليز، والتي لا تسمع إلا محطتي القاهرة والقدس على أكثر مشايخ البدو، ولقد كان العرب لا يصدقون هذه الآلة التي تهذي ليل نهار، ولكنهم اضطروا في النهاية أن يصدقوها حين سكت صوت الحرب، ولم يتخيل سويلم أن

الكوارث التي لا بد وقد أصابت صديقه الغريب يمكن أن تصيبه هو، وأن تهدم كيانه، وتفرق جماعته، ويقتلعه من وطنه بعد سنوات أذلُّ خلق الله ليصبح لاجئاً: يمسي هنا، ويصبح هناك!

كان سويلم يسترجع تلك الكوارث التي قطعها من جنوبي «بئر السبع» إلى «وادي موسى» «والبتراء»، وفي النهاية مجاورته «لخربة قمران»، كان يسترجع تلك المصايب حين وقفت بجوار بيته على الطريق سيارة، وقفز منها مجموعة من الناس الغرباء، وقفز سويلم بدوره إليهم يقدم لهم نفسه دليلاً ماهراً يعرف «خربة قمران»، والاكتشافات الأثرية التي تمت فيها، وهو يخلط اللهجة العربية بالإنجليزية والألمانية، ورجل طويل يبحلق فيه، وينظر باهتمام في بيوت الشعر القريبة، وكأن له فيها أرباً، وله بينها ذكريات، ثم تفرس مرة أخرى في وجه سويلم، وتنبه سويلم للنظرات التي تتفحصه، وفجأة لم يتمالك نفسه من أن يقول عبدالله. . . . وإذا بالرجل يحتضنه في حنان. . سويلم!

(٣)

وتجمعت من حول سويلم والرجل الغريب شبه مظاهرة قوامها ركاب السيارة، وأقرباء سويلم، ولم يكن أقرباء سويلم هؤلاء بأقل دهشة لمنظر الأجنبي الضخم الطويل، وهو يحتضن صاحبهم، من أصحاب الرجل في السيارة لمنظر البدوي بعباءته يعانق رفيقهم على هذه الصورة المفاجئة، التي لم يسبقها تحضير ولا مقدمات.

ولقد كان عبدالله الألماني أول المتحدثين، (فرطن) لأصحابه، وقدم سويلم إليهم بما معناه أنه صديق قديم مضى على فراقه له أكثر من خمسة

عشر عاماً، ثم تابع (رطنه) بما لا يفهم، ولكنه قال في النهاية لسويلم: هؤلاء زملائي من أعضاء نادي أصدقاء الخيول العربية... وصمت سويلم يراجع نفسه الخيول العربية؟ وهل بقيت بعد خروجهم من بئر السبع خيول؟ أفاق من صمته ليلتفت إلى قومه الذين تجمعوا أكثر فأكثر، ليقول لهم هذا هو عبدالله.. وقليل منهم من يذكره، فلما رأى عدم الفهم مرتسماً على وجوههم ذكرهم «بديرة عسلوج»و «السبيطة» و«المشرفة» و«العوجا حفير»، والآثار... هذا هو صاحبكم الألماني هل نسيتموه؟.

وتجمع البدو حول الرجل يحيونه، (ويؤهلون) به، وين العوجا...؟ يا عبدالله الدنيا راحت. ياعبدالله يا(ساق الله) على أيامك، وبإشارة من سويلم هرول عدد من الرجال إلى بيوت الشعر القليلة المجاورة، وأمسك سويلم بيد صاحبه ليتفضل في بيته الصغير، ولا شك أن الالماني قد وقع في حيرة مع أصحابه، ومع سويلم، فهو يذكر عادات وتقاليد قبيلة سويلم، ويذكر ما يرهقون به أنفسهم لإكرام الضيف الغريب، فكيف بصديق قديم مثله، ولكنه يذكر إلى جانب ذلك أن هذه المنطقة ليست (ديرة) سويلم، فهو إذن لا بد أن يكون من هذه المجموعات التي هاجرت من فلسطين بعد الاحتلال اليهودي، ولا بد أن يكون تبعاً لذلك في حالة مادية سيئة، ولكن سويلم بما يذكر من ألفاظ ألمانية مهشمة أشار للمجموعة أن يتفضلوا، ولقد دهش أصحاب عبدالله من «ألمانيات» هذا البدوي، فشرعوا (يرطنون) معه طويلاً، وهو لا يستطيع أن يقول أكثر من «تفضلوا»، ويوم سعيد! وازدادت دهشتهم عندما أدركوا أن كلمة تفضلوا تعني دعوة لتناول الغداء بكامل

مراسيمها، وحق لهم أن يفاجؤوا، فكيف تكون هذه الدعوة دون موعد سابق وترتيب متقدم؟!

ولكنهم بالطبع ردوا هذا الارتجال إلى طبيعة الطعام والشرق الفوضوية، ومدى النظافة وطهارة الماء من الجراثيم، وغير هذه الشروط التي لا يمكن للإنسان المتمدن أن يتناول طعامه بدون توفرها... على أنهم في النهاية وافقوا بروح المغامرة، وحب الاستطلاع، وقد تقمصوا بنفسيات «فان كوخ» «وكولومبس»، او نفسية ذلك الذي يبحث عن خربة «قمران» اخرى.

كانت النساء البدويات يسترقن النظر من وراء الأستار في بيوت الشعر، وكان الأطفال يتحلقون في ساحة البيت الرئيسي (بيت الضيوف)، يتفرجون على هؤلاء السياح الذين تعرفوا على سويلم فجأة، وأكبرَ البدوُ تبَحّر سويلم في العلوم، وكيف أنه استطاع بدون أن يذهب إلى المدرسة (بهبة من الله) أن يعرف السبعة السن... وسويلم ما زال ممسكاً بيد صاحبه وهم في طريقهم إلى البيت، وعبدالله يروي لصحبه طرفاً من عادات البدو، ويضع في كلامه اعتذاراً ضمنياً عن حالة هؤلاء البؤساء الذين فارقوا أرضهم الخصبة في قضاء «بئر السبع»، وروى لهم طرفاً من زيارته الأولى لمنطقتهم وهو في بعثة الكشف عن الآثار في جنوب غربي النقب، ثم امتدح سويلم وقبيلته، وأشاد بذكائه الفطري، وبذكاء البدو عموماً، وحاول أن يلمح لأصحابه أن هؤلاء الناس هم من البشر كبقية خلق الله، بل إن عندهم من الفضائل، ورقة الإحساس ما يفوق كثيراً الجانب الأكبر من هذا الخلق، وإن مثل هذه الدعوة التي وجهت إليهم للغداء هي شيء طبيعي، لا تصنّع فيه، ولا غرض من ورائه، بل

إن قلب سويلم كان حَرِيّاً أن ينكسر، وأن يتأثر لو لم نستجب لهذه الدعوة التي قد تستمر أياما دون ضجر أو تأفف، وأكد لهم أن هذا كله يصنع وسيلة (للبخشيش)، ولا لزيادة أجرة الدلالة، كي يأخذوا منك باليسرى ما قدموه إليك باليمنى... هذا عهدي بهؤلاء الناس، وإنها لمناسبة لكي نواجه الحياة الفطرية الساذجة، ونلمسها بحواسنا لمساً....

وتحت رفة بيت الشعر المشرعة بدأ الضيوف الغرباء يتعلمون الجلوس المؤدب على الأرض المفروشة ببسط مغبرة، وبدأ صاحبهم عبدالله يعطيهم الدرس الأول في (ضربة الكوع) وفي احتساء القهوة، فهو لم ينس وبعد هذه المدة الطويلة أن الضيف إذا اكتفى من رشفها، فعليه أن يهز الفنجان هزاً، وعندما فعل ذلك تبادل مع سويلم النظرات، وتلفت العرب في وجوه بعضهم بعضاً وابتسموا!

ومن بعيد أقبل شخص يجر خروفاً يطلق صوتاً كأنما يودع بها القطيع، ومن الستار الذي يفصل الضيوف عن بقية البيت لمع سيف، وأهوى رجل على رقبة الخروف: بسم الله... الله أكبر.

(٤)

كان لا بد من تجديد القهوة، ومن كؤوس الشاي في انتظار تجهيز الخروف، وكان (المهباش) يدق القهوة بيد خبيرة تحركه في صوت موسيقي راقص، حتى ظن الضيوف أنها وصلة موسيقية خاصة تعزف للترحيب بهم على طريقة هؤلاء الناس البدائية، وحتى امتلأ أحدهم نشوة، وحرك وسطه تعبيراً عن سروره، وتلفت البدو في وجوه بعضهم بعضاً على هذه

الحركة التي تنافي الوقار، حتى اضطر عبدالله أن يتدخل لشرح عمل المهباش لقومه، ومكانة القهوة، ومراسيم تناولها عند البدو، وكيف يلتفون حولها يتبادلون الأحاديث، ويتناقلون الأخبار، ويفصلون في مشاكلهم، كل ذلك في البيت الذي تصنع فيه القهوة، والذي يدعى (المجمع)، أو ملتقى الضيوف.

وهذا المهباش يستخدم في كثير من الأحيان وسيلة لدعوة أولئك الذين لا يعرفون أين البيت الجامع بين العرب، وأن يتناول الضيوف قراهم.

لقد أحس زملاء عبدالله أنهم وقعوا فعلاً في أشياء تستحق الدرس والاهتمام، وأحسوا بشيء من الراحة لوجودهم بين هؤلاء الناس الذين لا ينفكون يبتسمون لهم ويحيونهم، وحمدوا لصاحبهم معرفته بسويلم التي تجددت بعد سنوات طويلة دونما مصلحة أو علاقات مادية، وكذلك فقد بدؤوا يرطنون بين بعضهم البعض، ويشترك معهم في (الرطن) عبدالله يتساءلون كيف ترك هؤلاء بلادهم في «بئر السبع»؟ فترجم عبدالله ما تحدثوا إليه للقوم، فكانت فرصة لكل الحاضرين من البدو ليشكو كل واحد منهم مصيبته، ويفض تجربته وسأل سويلم أخيراً عن جنسية الضيوف واحداً واحداً، فعرف أنهم جميعاً من الألمان، فقلب يديه حسرة على ما حل بألمانيا، وعلى (كسرتها) في الحرب، ولكن أحد الحاضرين همس بكلمة وصلت إلى اذن عبدالله، فقال للرجل: ماذا تقول؟ قال سمعت الناس في البلد يقولون: إن الألمان (بيعطوا) اليهود (دراهم) حتى يتقوّوا علينا، وهنا ترجم عبدالله الكلام للآخرين، ففتحوا عيونهم

دهشة كيف وصلت أخبار التعويضات الالمانية لليهود إلى هؤلاء الناس (الرعاة)؟ وقد عرف سويلم بفطرته، وبما يعرف من لغة سبب هذه الدهشة، فقال لعبدالله: (سلمك الله) «ما ظل على الدنيا شيء خفي»، هذا (ابناخك) يعني: ابنه وأشار إلى صبي واقف (يقرأ بالمدرسة، ويحضر لنا الجريدة معه)، وهنا تذكر سويلم أنه كان عليه أن يسأل صديقه عن أهله وأولاده، فقال له عبدالله: لم أتزوج، فقال سويلم! يعني أم العيال فقدت في الحرب؟ قال: لا، ولكني لم اتزوج البتة! وبسبب هذا ليس عندي أولاد، فمرت سحابة من الكآبة على وجه سويلم أن لا يكون صاحبه قد تزوج، وقد كان في عز الرجولة من وقت طويل، وذهب البدو في تعليل (عزوبة) ضيفهم كل مذهب، كيف يعيش بدون زوجة، وكيف سيمضي في الحياة بدون أولاد، أما سويلم فقد قدم لعبد الله خمسة من أولاده، قال عبدالله لهم: من ينجح منكم قبل الاخر سآخذه معي إلى المانيا، وأعلمه في مدارسنا الكبيرة، فتنهدت أمهم من وراء الستار، وتمتمت: (ربنا ما يسمع منك) وهي تقول في نفسها: هذا المقطوع (الذي ليس له أولاد) كيف يأخذ ولدنا معه؟.

وذهب الحديث بالحاضرين كل مذهب، وعرف سويلم أن صاحبه قد أصيب بشظية في الحرب في كتفه، وعرف عبدالله من أخبار سويلم، وأنباء هجرته ما يدمي القلب، ولكن سويلم تجلد وشرح له كيف يعيش اليوم دليلاً للآثار، وخبيراً في هذا الميدان لا يشق له غبار، (والحي رزقه حي يا عبدالله، وربك ما يقطع أحد).

ومن وراء الستار نادى رجل: (غسلوا على الضيوف) فقفز أحد

الحاضرين وبيده إبريق ماء، وطلب من عبدالله أن يمد يده، فألقى بقطرات من الماء على أصابعه، وقلده في عمله بقية أصحابه وهم يستوضحون عن هذه الحركة المفاجئة، فاضطر عبدالله مرة أخرى أن يفسر لهم أن هذا هو مقدمة الطعام، ولم يكن هذا التفسير كافياً، إذ ما علاقة هذه القطرات بالأكل؟ وهل هي الأيدي التي يستخدمونها هذه المرة ملاعق وسكاكين؟ وحين أخذ عبدالله يتوسع في الشرح إليهم، كانت صينية واسعة عليها خروف بكامله من فوق تل من الأرز قد أقبلت يحملها اثنان، من فوقها غمامة من البخار، كأنما خرجت من القدر لتوها، فتقدم عبدالله، وأخذ يكمل شرحه عملياً.. يملأ يده من الأرز، ثم يضغط عليه بأصابعه، حتى إذا تماسك ألقى به بين فكيه، فانفجر أحد زملائه ضاحكاً، وحاول أن يجرب.. ، فوجد أن الطعام لذيذ، (فرطنوا) بعض الكلمات، وتقدموا يجربون، ويتبعثر منهم من الطعام أكثر مما يبقى في أيديهم، ويصل إلى أفواههم.. وحين هوى أحد أقرباء سويلم على تلّ الطعام ليمزق أوصال الخروف للضيوف بدت علامات الاشمئزاز على وجوه أكثرهم وهم ينظرون إلى (الكلف) في أصابعه ، ولكنهم نسوا الجراثيم، وأصول النظافة امام هذا الطعام اللذيذ، وأمام هذه المغامرة الفذة، وحين أخذ سويلم يحث صديقه عبدالله على الأكل، بدأ يهازحه ويذكره بالأكلات السابقات بقرب «العوجا حفير» وقرص الملة... ويقول له لولا هذه المصائب التي حدثت علينا وعليكم، لوجدتني قد لبيت دعوتك القديمة، وزرتك في «ألمانيا»! وهنا تذكر عبدالله تلك العزومة، فرفع يده عن الأكل، وقال: إنني بخير، وأنا أدعوك، فإذا لم تستجب لدعوتي، فلن آكل طعامك، فضحك سويلم، وقال له: تغدّ بسيطة....!

(٥)

وامتلأ الضيوف من ذلك الطعام اللذيذ الذي لم يجربوه من قبل عدا عبدالله، وأطالوا الجلوس بجانب تلك القصعة كأنهم لا يريدون فراقها، وحين نهض عبدالله (رطن) لهم بضع كلمات، قاموا كلهم بعدها إلى حيث كان ينتظرهم واحد من العرب لتنظيف أيديهم.

وحين عادوا مرة أخرى إلى الجلوس لاحتساء القهوة، كان (عبدالله) يفكر في غير تناول القهوة، كان يفكر في التخفيف عن صديقه ذاك البدوي بتبني ولدين من أولاده، وتعليمهم في بلاده، فكان يتحين الفرصة لكي يفض إليه هذا الموضوع في سر بينه وبينه، وسأل الضيوف عبدالله عن هذا النوع من الأكل ماذا يدعى وكيف يحضرونه، فعرفوا أنه (المنسف)، وابتسم عبدالله وهو يشرح لجماعته كيفية طبخه التي لا صعوبة فيها ولا تعقيد، ولكنه أكد أن مثل هذا الطعام لا يقدم إلا للضيوف الاعزاء.

وبعد تبادل الابتسامات جرت مراسيم الوداع بين قوم سويلم وجماعة عبدالله، ولولا اختلاف اللغة والزي لحكمت أن هؤلاء الناس أصدقاء قدماء، ومن (ديرة واحدة) قد ذهبت الكلفة بينهم... وقفز سويلم على جناح السيارة ليقود القوم إلى «خربة قمران»...، ومن وراء الغبار الذي تنفضه عجلات السيارة وقف قوم سويلم ورجالهم ونساؤهم وأطفالهم يرددون في صوت واحد: (مع السلامة... مع السلامة.) وسويلم يشير إلى السائق إلى أن وصلوا، فقاد عبدالله وأصحابه في ساحات الخربة يحدثهم عن كل ما يحيط بهذا الأثر التاريخي، ثم يحدثهم عن قوم لوط وكيف أن الله خسف الأرض بهم، فكانت البحيرة، ثم

يخلط معلوماته التاريخية المشوشة التي أخذها نتفاً من هنا وهناك من أفواه الأدلاء مع الوقائع الملموسة في حضن التلال التي توحي بالهدوء والسكينة، حتى إذا رضي هؤلاء الضيوف بما رأوا، واكتفوا بما شاهدوا عادوا إلى سياراتهم، وأخذ عبدالله بيد سويلم يحدثه بما في نفسه، ويفض إليه ما استقر عليه رأيه من أخذ ولدين من أولاده لتعليمهم مساعدة له، حيث يخرجون أطباء أو مهندسين، فتلكأ سويلم كثيراً في قبول هذا العرض، وشكر صديقه مخلصاً على هذه المساعدة، فقال عبدالله: سأترك لك تقرير هذا الأمر بعد ان تزورني في بلادي، وترى التقدم والعلم فيها، فقال سويلم: أما زلت مصراً على ذهابي إلى هناك؟ فقال عبدالله: نعم ما زلت مصراً على تنفيذ الوعد، وأخذ يهون لصديقه مشاق السفر في الطائرة، ويرغبه في رؤية أشياء ما كان يمكن أن تخطر له على بال، فقال سويلم: (يهونها الله)، ومتى تريدني أن أكون جاهزاً لمرافقتك لرؤية بلادك هذه العجيبة؟ قال عبدالله: إن لي جولة مع هؤلاء الأصدقاء في الكويت والعراق، وبعدها سأمر بك في حدود عشرة أيام تقريباً... قال سويلم: اتفقنا.

لقد وقف سويلم قبالة بيته، وترجل الجميع من السيارة يودعونه وداعاً حاراً، وقال واحد لعبدالله هل أعطيته شيئاً؟ فأسكته هذا بنظرة من عينيه، وودع سويلم قائلاً إلى اللقاء..

وحين تحركت السيارة بضعة أمتار انفجر ركابها يتحدثون عن طيبة هؤلاء الناس، ونقاء قلوبهم، وكرمهم الذي يصل إلى حد السفه، ويثنون على زميلهم أن هيأ لهم لقاءً حراً على الطبيعة مع هذا الشرق... فقال عبدالله: إنكم لا تعرفون ما أعرف من أخلاق سويلم وقومه، لقد

عشت معهم طويلاً قبيل الحرب، ولقد كنت على وشك أن أتابع حياتي معهم إلى النهاية على الرغم مما فيها من شظف العيش وقسوته إن الإنسان ليسعده أن يصادق مثل هذه القلوب النظيفة التي لا تقيم وزنا للمادة وأن يستمتع بمزايا الإخلاص الفطري الذي لا يؤسس على المصالح والمنافع المتبادلة، وفي مثل هذا الفضاء وبين مثل هؤلاء الناس أستطيع أن اتنفس نفساً عميقاً حراً، عندما أخلع عن كاهلي أعباء الحياة المتمدنة التي نعيشها في صراع أينا يسبق... إلى... لا شيء.

قال واحد منهم لقد تحول صاحبنا إلى فيلسوف شرقي.. قال عبدالله: ليتني أكون ذلك الفيلسوف. هل تذكر ملاحظتكم عن إعطاء سويلم بعض النقود لقاء ما قدم إلينا، ولقاء مهمة الدليل التي قام بها أمامنا؟... قالوا: نعم، قال: كان مثل هذا الصنيع، لو حدث من صديق مثلي سيعد إهانة لا تغتفر... قارن هذا بين ما تواجه به في المدن هنا، وما يلقاك في ألمانيا نفسها!

وذكر عبدالله ما استقر عليه رأيه من دعوة سويلم إلى ألمانيا، وتعليم أولاده إذا رضي بذلك، فاستحسن الجميع الفكرة، ومضوا يتحدثون عن أسرار الشرق، وغموضه، وعاداته، واختلاف طبائع الناس فيه.

******

كان العرب ينتظرون سويلم في لهفة، فما أن أطل حتى (أنشدوا) له جميعاً: (مثل ما ودعت تلاقي) بعضهم ساخراً، وبعضهم جاداً، وبعضهم يسترجع أيام عبدالله وصحبة سويلم له في «السبيطة»و «العوجا حفير»، ويقول: (والله هالكافر أصيل يا جماعة!).

ولم يكن سويلم يستمع كثيراً لهذر قومه وحديثهم كان شيء غير

عادي يتسرب إلى قلبه حين أخذ يراجع نفسه في الذهاب مع عبدالله وفي إرسال الأولاد ليتعلموا عنده، شيء فيه من الرهبة مثلما فيه من الطمأنينة إنه (مشوار) إلى المجهول الذي لا يعرف ما وراءه إلا الله، ثُمَّ والطائرة هل قدر لك يا سويلم أن تكون في جوف هذا الطائر في كبد السماء. . . ؟

وتنحنح الرجل، وفرك شواربه قليلاً، وأشار إلى قومه أن يهدأوا، وأخذ يعظهم، ويعلمهم أن يأخذوا من الحديث بما فيه فائدة، وأنهم لا يجب أن يسخروا من هؤلاء الأجانب، فهم على الرغم من خبالهم كما يبدو لنا، هم أعلم منا، وعلى الرغم من أن نساءهم يمشين شبه عاريات دون حياء، فإن الواحدة منهن أقوى وأفهم من أي رجل فيكم، فلا تجعلوا الناس «مسخرتكم»، وأنتم ترون، لولا هذه الكلمات التي تعلمتها منهم، لما نجحت في عملي، وما يمكن أن أضمن رزق عيالي. . . فأمن الجميع على كلامه، ولبست وجوههم ثياب الجد، وتابع سويلم كلامه قائلاً: . . . (العلم). . . العلم يا إخوان هو كل شيء في هذه الدنيا، ولقد طلب مني عبدالله اثنين من الأولاد لتعليمهم في (ألمانيا) فقبلت. . . وهنا حدثت حركة في البيت من وراء الستار وصوت: (يا قطيعتي. . .) من يا سويلم اللي تريد تبيعه من الأولاد. ؟ فابتسم سويلم على عادة أصحاب العقول الكبيرة، والقلوب الواسعة اسكتي. . . لا تخافي. ما نبيع اولادنا احنا نعلمهم، فعاد الصوت: (تعلمهم وين يا سويلم وراء البحر)، والا عند مغيب الشمس في بلاد الكفار. . . اهد بالله يارجل أولادك أمانة كيف تعطيها الكفار، وبتقول إنك مسلم موحد بالله. . . وبتصلي كمان. . ؟

فرد سويلم (لا تخافي) احنا ما نودي اولادنا غير نعرف أين يتعلمون، ونشوف بأعيننا مكان تعليمهم... لا تخافي سأذهب مع عبدالله على بلاده أرود (المطرح) بنفسي فقالت المرأة ومن وراء الستار (أنت تروح على البلاد البعيدة؟ قال نعم، وبعد عشرة ايام...)!

وهنا حدثت همهمة، وهز القوم رؤوسهم استنكاراً (على مين تخلي اولادك وعشيرتك وعملك وتروح إلى بلاد الناس.. الله يعلم ترجع أو ما ترجع! لا يا سويلم) قالها أكثر الرجال في الحلقة... ومن وراء الستار ارتفع صوت المرأة مرة أخرى (ياقطيعتي.... سويلم انجن، ياخراب ديارنا) فحامت ابتسامة على شفتي سويلم، ولكنها طارت، ليستقر مكانها صورة للجد، وأطرق ملياً كأنه وقع في أزمة مفاجئة تحتاج إلى تفكير عميق....

(٦)

وكان الأمر يستدعي التفكير العميق حقاً، ذلك لأن سويلم بدأ يحس أن في قبوله دعوة الرجل شيئاً من الارتجال والعجلة، وفرق كبير ما بين الدعوة القديمة، والدعوة الجديدة، فقد كان سويلم في الأولى شاباً في مقتبل العمر لا يحمل هموم العائلة، ولا مسؤوليات الأولاد والعشيرة، وهو اليوم رجل بدأ الشيب يزحف إلى لحيته، وحوله طابور من الأولاد، وأثقال من الهموم والمسؤوليات، فكيف ينفلت منها، وكيف يتهرب من مسؤولياته ولو لأيام؟ ولكن الوفاء بالوعد دين، ولكن الله موجود سواء أذهب سويلم أم بقي، وسواء مات أم ظل على قيد الحياة، والله وحده المتصرف والمدبر، ولن يغني تصريف الناس وتدبيرهم عنهم من أمرهم شيئاً، فالواجب إذن أن يسلم أمره لله، وأن يضرب صفحاً عن كل

الاستنكارات والآهات التي تجعل من الأبيض أسوداً ومن الفأل الطيب شؤماً ونحساً . . فاكتسى وجهه بلون من السماحة والرضا، واطمأن قلبه إلى ما هو مقبل عليه، فقال لأقاربه: ترى كيف يأتي إلينا هؤلاء، وكيف يقطعون الجبال والوديان والبحار ليشاهدوا (أنوار) وجهك يا (سالم)؟ واشار إلى واحد من قومه، وليتعرفوا على هذه البلاد وأهلها، كيف بالله لو واجهوا بين أهلهم من يلقاهم بمثل ما تلقوني به؟ أكانوا قد وصلوا إلى هذه المنطقة، وإلى المناطق التي لا ينفكون يرحلون إليها، ليكشفوا أمورها ويروجوا خيراتها؟.

ووجه الكلام إلى زوجته الغاضبة من وراء الستار ـ وأنت يا من تعيريتي بالإسلام والإيمان بالله هل منعنا الله من السفر والرحيل ومعرفة خلق الله في أرضه الواسعة؟ ثم أيمنعني خوف الموت والخطر من أن أسعى في مناكبها؟ ويكون هؤلاء الذين تقولين عنهم كفار أجرأ مني على خوض الأخطار وقطع البحار والفيافي والقفار؟ . . . اسكتي. صدق الحديث الذي يرويه العلماء أن أكثر أهل جهنم من النساء الناقصات العقل والدين، لو كان عندنا رجال لما تركنا هؤلاء الغرباء يأتون هم إلينا، بل كان الواجب أن نذهب نحن إليهم، أو على الأقل واحد بواحد، فإذا جاؤوا هم إلينا، ذهبنا نحن إليهم لنعرف من أمرهم ما خفي عنا، والدنيا قربت لبعضها يا جماعة، الواحد يفطر هنا، ويتعشى في بلاد السند والهند، (ويتسحر عند يأجوج ومأجوج، من فوق «هالمأخوذة» التي تطير مثل البرق. . .

وتنهدت المرأة مرة أخرى، وقالت (على كيفك يا سويلم) أنا لا أستطيع أن أحكم عليك، ولا أستطيع أن أمنعك من أجل أولادك

وبيتك على كيفك يا سويلم تفرج على الدنيا، وشوف بلاد (بره)، و(تضيّف) عند (هالخمر والشقر) يمكن تلاقي واحدة تحكمك من اللواتي رأس الواحدة منهن كرأس الحصان، «وقطاتها» مثل قطاة الفرس، إن شاء الله نشوفك (تظعن) وراءها مثل ربعك، وياما اكثر ما غش (الشقار) الرجال. . . !

وهنا انفجر القوم من حول سويلم ضاحكين. . . فقال سويلم مازحاً. . آه إذن كل الصراخ و(الغلبة) ليس خوفاً على الأولاد والعيال، ولا خوفاً علي من بلاد الكفار، وإنما خوفاً من (البيض) صاحبات السيقان الشقر. . . يا للمرأة، نحن في واد وهي في واد آخر!

فقال أحدهم من حق (أم سليمان) أن تغار وأن تخاف عليك وهي ترى الواحدة منهن هنا، كاشفة ما حرم الله تتفرك مثل البكرة، من حقها أن تخاف عليك، والشيطان شاطر، وبيغوي يا سويلم، فقال سويلم: ظنوا خيراً يا ناس،وحياتكم إن أم سليمان البركة، والذي ليس له خير في قديمه ليس له خير في جديده، وإذا كان المثل يقول: من أخذ من جنسه ما يلوم نفسه، فكيف يستطيع الشيطان أن يلعب معي، وخاصة في بلاد الغربة، والغريب لازم يكون أديب كما يقال. . . فانتفضت أم سليمان، حتى أوشك الستار أن ينهد، وقالت: مسكين أنت. . . تحسب أنك تكون بعقلك أنت بتصير مجنون يا سويلم. . . (تلهط) من هالخمرة، واللي بيقولوا عنها «وسكه»، وإذا بعيونك حمر مثل عيون الجمل الهايج، وتصبح تهدر ما تعرف الخمس من الطمس، ولا كوعك من بوعك، ولا تفرق بين أختك وامرأتك. . . عوضنا على الله فيك يا سويلم. . . ثم وجهت الكلام لأقاربها: أم إنني غلطانة يا جماعة. . . !؟

فردت مرة ثانية، وقالت: وكيف يعرف المشروب الحلال من الحرام مادامت كلها في زجاجات واحدة؟ وحياتكم إن سويلم لازم يذوق حليب السباع ولكم عيون ترى، وهنا دخل سويلم الحلبة جاداً، وقال لا يجوز لكم أن تتحدثوا عن أعراض الناس، وربنا يستر على بنات الحلال، وجميع الخلق لهم أعراض مثلكم، وكثرة «برمكم» في هذا الموضوع يسوقكم إلى الداهية، وأنا اعرف سبب كلامكم. الإناث اللواتي ترونهن عاريات السيقان والصدور لا ياجماعة هذه عاداتهم في بلادهم، فلا تظنوا أن كل من كشفت صدرها وفخذها من بنات الهوى، هؤلاء النسوة متعلمات، ويفهمن كل شيء، والواحدة تأخذ وتعطي مثل الرجل، وربنا يستر على الجميع، فلا تحسبوا أن كشف السيقان والصدور عند هؤلاء الناس يعتبر عندهم كما هو عندنا «مياصة»!

وسكت القوم، وسكتت أم سليمان، ومرة أخرى أطرق سويلم يستعيد وقائع رحلته على ضوء المحاذير الجديدة فاستقر رأيه أن يستشير أحد اصدقائه من أهل الخبرة من الأدلاء في هذا الموضوع الخطير. . . . !

(٧)

كان سويلم يستعرض هذه الورطة التي وقع فيها بقبوله دعوة صاحبه الألماني، وهو في طريقه إلى صديقه سعيد، أحد أدلاء السياحة في القدس، فلما صافحه هذا مُسَلِّماً كان التغيير والارتباك بادياً على وجهه. . . . قال له: (خير يا سويلم)، فقص عليه سويلم مشكلته من الفها إلى يائها، وكشف له هموم العيال، ومسؤوليات العشيرة، وضرورات العمل التي برزت فجأة، ثم إنه رجل بلدوي لا يعرف عادات القوم، ولا يلبس زيهم، وقد يخطيء في أمر من الأمور في بلاد

Obeikandi.com

الغربة... أنا والله يا سعيد في ورطة جئت أستشيرك للخلاص منها....

فانفجر سعيد ضاحكاً في قهقهة زلزلت جدران الغرفة، أنت ياسويلم تدعى إلى المانيا... وتتفرج على أوروبا، وتتاح لك هذه الفرصة من السماء.... وأي هموم، وأي مسؤوليات، وما هي هذه الضرورات الفظيعة التي يمكن أن تحُول بينك وبين فرصة العمر... يا مسكين.

فسرى عن سويلم، وأحس بشعور من وجد كنزاً، ولكنه لا يعرف قيمته، ولا كيفية التصرف به، وتابع سعيد كلامه: لماذا تخاف بل لماذا لا ترقص فرحاً؟ وحتى إذا واتتك الفرصة فلماذا لا تقيم هناك وتطلق بقية همومك، ومسؤولياتك الثقيلة؟ وعلى ماذا تأسف؟ على تلال الغور الجرداء؟ لا شك أنك بدوي، إنني على استعداد أن أتنازل عن مئتي دينار في سبيل أن أقوم بهذه الرحلة، تمتع يا مجنون. وردد سويلم في نفسه (مئتي دينار) إن سعيد لا يمكن أن يغشه، وقد كان كثيراً ما يسر له العمل، وكثيراً ما حدد له أجرة فوق الكفاية عندما يقود سرباً من السائحات والسائحين إلى «خربة قمران»، فأحس بالاطمئنان، وزال عنه كل أثر للتردد، وطارت (هلوسات) أم سليمان إلى غير رجعة... ولكن هل يذهب بزيه البدوي؟ وكيف يأكل، وكيف ينام؟!

قال له سعيد: تنام كما ينام الناس، في فراش عُمُرْ (جد أبيك) ما نام به، وتأكل الطعام الذي يروقك يا سويلم إن ليلة القدر قد فتحت لك، فاطلب ما تريد... حتى إذا شئت لحم الخنزير.

فأحس سويلم بالتقزز... وهو يقول: (لاسمح الله) قال له

سعيد: ما بالك تتحدث عن الطعام والنوم، كل هذه أمور لا قيمة لها... قال سويلم، واللبس..؟

قال سعيد أنا أرى أن تلبس (بدلة)، وتترك عنك العباءة جانباً، إلا إذا أردت أن تكون فرجة لألمانيا، لا أن تتفرج عليهم.. فأحس سويلم بارتباك جديد، كيف يمكن أن يلبس مثل هذا اللبس المعقد الذي يتمنطق به أهل المدن؟ ولكن سعيد لم يتركه يسترسل في أفكاره، فقال له: لا تعقد الأمور كل شيء سهل هات لي خمسة دنانير، وتعال غداً...

وخرج سويلم من عند صاحبه، وقد رمى عن كاهله حملاً ثقيلاً، وأحس بالانشراح للقيام بهذه الرحلة، وشكر سعيداً في أعماق نفسه أن علمه بما لم يعلم، وحين وصل إلى بيته حاول أن يتجاهل الحديث عن الرحلة كلياً، وأخذ في روتين حياته العادية كأن شيئاً لم يكن...

وفي صباح اليوم الثاني كان في طريقه إلى سعيد... فلما وجده قد ـ هيأ كل شيء ـ وكان سعيد قد فتش في سوق (العتق) عن ما يمكن أن يلائم سويلم من البدلات، واشترى له قميصين، ورباطين للرقبة، وهيأه كأي (أفندي محترم)، ولكن من الدرجة الثانية... في حدود خمسة دنانير، قال لسويلم: البس!.

فوضع سويلم البنطلون في ساقيه، وعاونه سعيد ثم ألبسه القميص.. ثم جاءت المشكلة «عقد الرباط حول عنقه»... قال سويلم: هل هذا ضروري؟ ما أظن ذلك ياسعيد، وهل من الضروري أن يكون للواحد رسن؟ لا يارجل، ولكن سعيد كان يضعها من حول عنقه، فاستسلم له سويلم، ثم شده إلى المرآة، وقضى وقتاً طويلاً وهو يمرنه، إلى أن استطاع أن ينجح في عقدها عقدة (مثلوثة).

فلما لبس سويلم (الجاكيته)، وتحرك في الغرفة كان يحس بنفسه شبه عار، وخفيفا كالفراشة، وضحك في أعماقه.. ماذا لو رأته أم سليمان والجماعة كما هو الان؟... ونظر إليه سعيد، فرأى البدلة ملائمة تماماً، فضحك وقال: أنت الان سائح.. يا سويلم، لكن تعال نفطر،لم يجلس سويلم على الأرض، وإنما أخذه إلى غرفة فيها طاولة، ومن حولها كراسي، جلس سويلم على واحد منها، وهم أن يمسك الرغيف، ويتناول ما تيسر من الطعام، فنهره سعيد، وقال له: امسك السكين بيدك اليمين، وهذه (المذراة) أي الشوكة بيدك اليسرى، ولا تلمس شيئاً بأصابعك.. وكان هذا درس طريف أخطأ فيه سويلم وأصاب، ولكنه علم جديد، وتجارب جديدة خرج منها فاهماً بعض الشيء، وأحس أن هذه التجربة إنما هي مقدمة لتجارب أكثر ومعرفة أوسع، وعندما هم بالعودة خلع البدلة، وخزنها في صندوق جلدي عند صاحبه إلى أن تحين ساعة الرحيل، ويعود عبدالله،الذي أصبح يتطلع إلى رجوعه بفارغ الصبر....

(٨)

ومرت الأيام الطويلة مملة، وسويلم ينتظر بداية هذه التجربة الفذة، وكان يعود بين الحين والحين إلى صديقه سعيد ليعلمه أشياء جديدة من عادات القوم وتصرفاتهم في المأكل والمشرب والملبس، أو ليشحنه من جديد بالتشجيع والجرأة.

وكان كلما اطمأن في مجلسه في بيت سعيد أحضر له هذا الصندوق الجلدي، وأخرج منه البدلة المعهودة، وأجرى سويلم التمرينات اللازمة للبسها، وخلعها، وتعليقها دون خطأ أو ارتباك، وكأنه خلق لها، أو

خلقت له، وكان بين الحين والحين يتناول الشوكة والسكين يقطع رغيف الخبز بهما إرباً إلى أن تعودت يداه على استعمالهما دون أن ترتجفا أو تضطربا، وحدثه سعيد طويلا عن عادات القوم، وآداب الحديث عندهم، وشرح له تصرفاتهم مع الأطفال والنساء وعلمه كيف يقبلون أيدي النساء، فصعد الدم إلى وجه سويلم حاراً، يقبلون أيدي النساء! لا والله لا أفعلها ياسعيد ولو قطعوا يدي، لا لن أذهب إلى هذه البلاد التي تذل الرجل إلى هذا الحد!.

فضحك سعيد طويلاً على هذه الغضبة المضرية، وقال لصديقه: ياسيدي بلاش تقبل يد أي من النساء. . . . ولكن لا تكن جلفاً، أحن رأسك قليلاً عندما تسلم على المرأة، وابتسم قليلاً. . . بالعربي خليك ذوق. . . قال سويلم: وكيف أكون (ذوق)؟ قال سعيد بأن لا تثير الغرابة والانتقاد حول نفسك إن الشطارة أن تدخل مع القوم، وتفهم عاداتهم وأخلاقهم، وما هم عليه دون أن تثير انتباههم إليك. . .

******

وحين جاء اليوم الموعود، كان عبدالله قد جهز التذاكر، وحدد ساعة السفر قبل أن يزور صديقه سويلم، ثم بكر راجعاً متعللاً بالمشاغل الكثيرة التي تنتظره لإنجازها. . . . افترقوا على الموعد غداً، وحدد الرجل لسويلم الفندق الذي يقيم فيه بالقدس ليمر عليه في الصُباح الباكر. . . .

كان القوم يودعون سويلم وكأنه الوداع الاخير، ووقفت أم سليمان تطرد الدمع من عينيها بجلد وقوة، وتمسك بأطفالها، وكأنها تعزي نفسها أن بقي لها من زوجها هؤلاء الأبناء،كانت شبه جنازة. . . . أحس بثقلها

سويلم، فوقف وقد أقبلت السيارة التي أرسلها إليه عبدالله من بعيد وقف يحدث قومه، ويوصيهم ـ من حياة أو من موت ـ أن يحافظوا على بعضهم بعضاً، وقال لهم: إن كثرة الوداع تمزق قلب المسافر، فلا يركب معي أحد. . . . وحين وضع رجله في السيارة تلفت لهم، وقال: (وديعتكم أم سليمان واولادها)!

******

كانت السيارة تطوي الأرض في سرعة عجيبة، وكان سويلم يطوي في أعماق قلبه وداع أهله له وأحس كأنه يعاهد نفسه على أنه سيعود إليهم مهما كانت المغريات، ومهما كانت الأسباب ما دام فيه عرق ينبض، وأشار سويلم للسائق أن يميل به على بيت سعيد، وحين ترجل من السيارة صرف السائق ليخبر عبدالله أنه قادم إليه بعد لحظات، وكان سعيد في انتظار صديقه سويلم، فما أن دخل حتى خلع من كتفيه عباءته، وأمره أن يخلع ثوبه، وكل ما عليه، ثم قاده إلى الحمام ليغتسل بالماء الساخن، حتى إذا نظف جسمه تماماً أمره أن يستعمل (المنشفة)، وضحك سويلم، وقال: شكراً لك يا أيها المعلم أظن أن هذا آخر درس. . . وبعده أكون قد ختمت، وحين أنهى سويلم هذه المهمة، رمى له سعيد بالألبسة الداخلية التي كان قد حضرها سلفاً، فخرج سويلم من الحمام خفيفاً نشيطاً وهو يقول لصاحبه: إنها نعمة والله ياسعيد، ما أكثر ما عندكم من نعائم. . . وابتسم سعيد وهو مشفق على فطرية سويلم وسذاجته، بل قل يا أيها البدوي المسكين: عندنا (نواعم)!

وتناول البدلة المعهودة، وسلمها إلى سويلم، وخرج ليترك الفرصة له لكي يلبسها دون مساعدته، ودخل بعد دقائق، وابتسم ابتسامة

عريضة عندما وجد سويلم قد تمنطق بالبدلة وملحقاتها بصورة مرضية، ثم أخذه من يده، وقاده إلى (شنتة) الملابس الجلدية، وعلمه كيف يرتب ملابسه، وأراه أدوات الحلاقة، ومعجون الأسنان، والفرشاة التي اشتراها له، وأخرج له كل شيء من المشط إلى الصابونة، إلى زوجين من الجرابات، وأمره أن يضع كلاً في مكانه، ففعل... وحين خرج لإحضار سيارة لتقلّهما إلى الفندق الذي يقيم فيه عبدالله، كان سويلم يحزم ملابسه البدوية في (بقجة) داخل عباءته... ويبقى بها في الغرفة، ولقد فوجيء سعيد أن سويلم عاد، فوضع الحطة والعقال على رأسه، فحاول اقناعه بتركها، ولكنه رفض رفضاً باتاً إن هذا هو (الشرف) أنا لا أمشي عاري الرأس، وهب أن واحداً من المعارف رآني على هذه الهيئة، والله لا أستطيع مواجهته، ولا مواجهة أهلي.... فسكت سعيد على مضض، ومضى مع صاحبه إلى الفندق.

كان عبدالله ينتظر على أحر من الجمر، فقد خشي أن يكون سويلم قد غير رأيه في آخر لحظة، وحين رآى سويلم على باب الفندق اتسعت عيناه دهشة، ولم يكد يعرفه.... أهذا انت؟.

(٩)

وفتح عبدالله ذراعيه لاستقبال سويلم وهو يقول: ما هذا؟ لقد تغيرت حتى ما كدت أعرفك، وأشار إلى خادم الفندق ليضم شنتة سويلم إلى مجموعة حقائبه، وأخذ بيده إلى حلقة من الكراسي كانت فارغة وجلسا، وجلس معهما سعيد الذي نسيه سويلم، ولكنه تذكره عندما التفت إليه عبدالله بنظرة متسائلة: من أنت؟ وهنا تخلص سويلم من ارتباكه، وقال: هذا هو صديقي الأعز سعيد إنه أحسن دليل للسياح

في هذه البلاد. . . . وهنا أدرك عبدالله أن التغيير المفاجىء على مظهر سويلم هو من صنع سعيد فابتسم مرحباً، ونهض لكي يجهز نفسه لمغادرة الفندق.

لم يكن سويلم يعرف هذا الفندق، ولم يكن قد دخل أمثاله في حياته كلها، وكان مجموعة من الرجال يهرولون هنا وهناك يلبسون ملابس متشابهة، وينحنون للغادين والرائحين، وكانت فتاة كأنها (صورة) تضرب على (بلية) تسمع لوقع أصابعها ما تسمعه لقلية الذرة عرف فيما بعد أنها الطابعة، وكانت موسيقى ترن من بعيد تماماً كالتي ينقلها جهاز الراديو، وكانت ساحة الفندق تتحرك كلها بالناس جميعهم مشغول لا يحيون بعضهم بعضاً، ويبدو أنهم كلهم غرباء، بعضهم يجمع حقائبه للخروج، وبعضهم ينادي هؤلاء الموحدين الملبس في الفندق لكي يساعدوه في حملها وإدخالها عبر الدهاليز، والستائر. . . فالتفت سويلم إلى صديقه سعيد أهذا الفندق في القدس؟ الناس كلهم أجانب وجوهاً وألسنة؟!

فأمن سعيد على كلامه، وقال: إنه من الفنادق الكبيرة التي لا يدخلها إلا السائح، أو من هو في مستوى السائح من أهل البلاد، وتلفت سويلم بحذر هنا وهناك ياسبحان الله على هذه القصور. . لا بد أن النوم فيه غالي يا سعيد، فقال سعيد: إن أجرة الليلة الواحدة تكفيك شهراً مع العائلة ياسويلم،من حمد الله أنك دخلته هذه المرة على حساب غيرك، وإلا دفعت الدراهم لفنجاني القهوة هذين،ما قد تجري يومين قبل أن تجمعها. . . وعلى أي الأحوال، فمثل هذا الفندق هو قطعة من أوروبا التي ستزورها «يا بك». . . ولولا عيون الخدم التي

تلاحقنا الآن لدرت معك في ردهاته جميعها حتى تكون على علم مسبق بما ستجده في برلين أو باريس . . . فقال سويلم تعني عيون هؤلاء الذين يهرولون في الفندق؟ قال: نعم . . . . قال: أهؤلاء خدم؟ قال سعيد: (أيوه يا شيخ سويلم) فتنهد سويلم، وقال: إذا كان هؤلاء هم الخدم، فمن يا ترى السادة؟ فضحك سعيد، وقال: حتى تعرف مقامك ومقام أمثالك . . . وضحك الصديقان، وسرى عن سويلم، وأسند ظهره على الكرسي الوثير، وكان على وشك أن يضع رجلاً على الأخرى، ويرتخي كبقية الفارغين المتفرغين الذين يجترون الأفكار والسجائر في الفنادق، ولكنه قفز بكلمة من عبدالله، وعثر بالكرسي والسجاد حتى كاد ان يقع، وصعد الدم إلى وجهه (هذا أول الوهن)، ولكن أحداً فيما عدا سعيد لم يلاحظ عليه هذا الارتباك المفاجىء، فهمس في أذنه: (خليك رايق)، فضغط سويلم على أعصابه، وابتسم وهو يقول: (يهونها الله)، وأشار عبدالله إلى سويلم أن يدخل السيارة الواقفة، والتفت سويلم إلى سعيد، فأحس في عينيه نظرة عطف، وتحوم على شفتيه ابتسامة تشجيع . . . لا تنسانا من الهدايا يا سويلم . . . فعانقه هذا وهو يؤكد: إنني لن أنساك أيها المعلم المخلص . . . ومضى سعيد يردد في نفسه: (مسكين)!!

لم تمض إلا دقائق معدودة قبل أن تقف السيارة في ساحة واسعة تحف بها التلال تحتشد فيها السيارات، وعند بناية تتوسط تلك الساحة وقفت السيارة على باب مطار القدس وتلقف مجموعة من الشباب الحقائب كالجن، ونهض سويلم وراء صديقه الألماني يهرول كي يلاحق

خطوته العملاقة، وعندما وضعت حقائبهم على الموازين قال سويلم في سره: (اليوم كل شيء بميزان)، وقد ظن أنه هو نفسه سيوزن، وخمن أن عبدالله سيدفع له أجرة مخفضة بالنسبة للأجرة التي يدفعها لنفسه... ولكنهما مضيا دون أن يوزن منهما أحد.!

وما كان أحد يشك أن سويلم هو أحد السياح الاثرياء الذين راقهم لبس الحطة والعقال، فخرجوا من البلاد يتوجون رؤوسهم بها كتذكار لزيارة هذه البلاد، وقد كان يمكن أن يمضي سويلم دون أن يلتفت إليه أحد لولا أن موظفي الجوازات والأمن قد اكتشفوا (الطابق)، فأمسكوا به متلبسا بجريمة الذهاب إلى المانيا...

لقد عصر سويلم عصراً لكي تعرف القصة التي رواها في سذاجة ودهشة، وفتشت حقيبته تفتيشاً دقيقاً، لكي يكتشف السر من وراء ذهاب سويلم بعيداً عبر الجبال والمحيطات، حتى ظن سويلم أنه من أرباب (السوابق)، وأنه قد لا يجوز له السفر إلى حيث يمكن أن يسود وجه بلاده، وحين أبطأت إجراءات سويلم، عاد إليه صاحبه الألماني، وأطلق مجموعة من (الرطن) لهؤلاء الذين أمسكوا بصاحبه، فانتشرت على وجوههم ابتسامات سريعة، وعلى أساس تعليمات تشجيع السياحة، وعدم إغضاب السياح انطلق سويلم مع صاحبه، وكأن لم يكن شيء انطلق إلى الطيارة، وفي نفسه غصة، فقد كان يظن أنه هو الذي يسهل معاملة عبدالله لا أن يكون هو حَمْلاً عليه هنا في وطنه، وهناك في بلاد الناس.

(١٠)

لم يدر سويلم كيف قطع صالة الانتظار، وخرج منها مع قافلة الناس إلى الطائرة، فلقد كان الارتباك ما يزال يهزه من موقف الجوازات منه، ولكنه نسي الجوازات، واستجواب الأمن مرة واحدة أمام هذه الداهية الفاغرة فاها. . . .

لقد كان سويلم يرى الطائرة من بعيد في كبد السماء جميلة لامعة كالصليب على صدر السائحة، ولكنه لم يرها كما هي الآن كالحوت الذي غاض عنه الماء،كانت قافلة الناس من أمامه يندسون في الفتحة المظلمة، ويغيبون في جوفها واحداً بعد الآخر، ولأول مرة تراود سويلم نفسه على الهروب، ولقد تلفت فعلاً بصورة عفوية كان عبدالله يمشي وراءه يحمل حقيبة صغيرة في يده، وكان مجموعة من الجنود يقفون صفاً يستعرضون القافلة التي تغيب في تلك الفتحة. . . فطرد سويلم هذا الخاطر المخزي، ومشى في ثبات. . . وقفز الدرجات، فاستقبلته أنثى. . تحزم نفسها في ثياب كالبسة البحارة، ولقد ظنها فعلاً أحد الجنود لولا أنه تفرس فيها جيداً عندما استرد أنفاسه، ولقد خيل لسويلم أنه في أحد (باصات) المدينة!.

كان الناس يتدافعون ليندسوا في مقاعد مزدوجة في صف طويل يفصلها ممر، وتحف بها طاقات النور من كل جانب، وقاده عبدالله ليجلس إلى جانبه في مقعد مجاور، وكان المقعد لينا ككثيب الرمل، فدفن نفسه فيه كأنما ليختبىء من الكارثة، وأفاق مما فيه على تلك الأنثى المحزومة في ألبسة البحارة تمد إليه حبيبات ملفوفة بالورق، فوقف هنيهة لا يحرك إليها يده إلى أن أسرع عبدالله يتناول منها حبة، فتبعه هو

بدوره، وحين ألقمها عبدالله فاه، فض اللفافة عنها، وحذا حذوه. . . وأطلق «أنَّة» طويلة حين عرف أنها (ملبسة) من الحلو، والواقع أن هذه (الملبسة) هي وحدها التي تعرف عليه مما حوله،كانت الوجوه كلها غريبة، جميعهم يتبادلون (الرطن)، وبعضهم يتحدث العربية بلكنة أجنبية، وكان في ظهر المقعد الذي يجلس أمامه كيس شبيه بفردة الخرج، وبدأ سويلم ينقل عينيه من منظر إلى منظر في ذلك الكهف العجيب، ويتأمل في هذه الفخامة المحيطة، وكان حرياً أن يمتد به التأمل، وأن تنطلق أفكاره خارج الطاقات، لولا إشارات من نور رسمت أمام القوم في صدر القاعة، تحركوا بعدها حركات غير عادية، وخرجت الأنثى إياها تحدثهم بصيغة أمرٍ لم يفهم سويلم مضمونه، ولكنه لحظ عبدالله بطرف عينيه، فإذا به يمد يده إلى حزام (يبزمه) على وسطه، وتلفت ليعاون سويلم في ربطه، فظل سويلم يشده حتى أصبح قطعة من المقعد، وحتى خيل إليه أن الحزام قد استقر على فقرات ظهره، وأدرك الرجل بفطرته أنه الاستعداد لساعة الفصل، والابتعاد عن الدنيا، ولقد كان سويلم من أمرِّ ركاب الخيل، وكان يشد جسمه، فشد نفسه على المقعد، وكما (تضبح) الفرس في بداية الشوط، وكما يصهل الحصان سمع سويلم هذه النفرة التي ملكت حواسه، ثم انطلقت هذه الآلة تئن حيناً، وتهدر حيناً آخر، والرجل لا يرفع بصره عن المقعد أمامه، وأحس بألم يغشى رأسه، ودوران يلف دماغه، فأسلم أمره لله، وكأنه يودع الدنيا. . . وبعد لحظات استقر كل شيء، وخفت (الرجرجة)، وخف الدوار من رأس سويلم، فتمكن من أن يلقي بصره من حوله، فرأى الناس على ما هم عليه (يرطنون) دون أن يتغير فيهم شيء، ومد بصره أمامه، فرأى صورا

مختلفة لرجل يتمنطق بمخدات من حوله، ورأى إشارة حمراء كالسهم تشير إلى الطاقة، وأدرك سويلم بفطرته الحساسة أن هذه الطاقة هي السبيل الوحيد للخروج حين تقع الطامة، ولقد تصور البدوي أن هذه الطامة واقعة لا محالة، بل ورأى بعين الغيب كيف تتمزق جثته على رؤوس الجبال بعد أن يهيم في السماء. . . . ولقد كان الرجل في حالة (كرب) يتصبب العرق من جبينه، ولكنه مع كل هذا حريص أشد الحرص أن لا يكون أول الفارين، وأن لا تظهر عليه علامة جبن في مواجهة الموت، وسيترك عبدالله ينزلق من الطاقة قبله، ولكن عبدالله لم يفعلها، بل يبدو أنه لا يحس بالخطر، ولا يرى الصورة، ولا علامة الخطر التي تقود إلى النافذة، وتلفت سويلم من على يمينه، فرأى عجباً، رأى عجوزاً من تلك السائحات اللاتي كثيراً ما رآهن في «البتراء» «وخربة قمران»، كانت غافية، وكان الكرى يداعب عيني فتاة أمامها، وكان الركاب جميعاً لا يلقون بالاً إلى النوافذ، وكأن تلك الصورة صنعت خصيصاً لتخويفه، فأحس بصوت ينهره من أعماقه (يا فضيحتك يا سويلم هذه العجوز أرجل منك؟!).

(١١)

لقد انتشل هذا الخاطر سويلم من بحر الرعب الذي كاد أن يهلك في أمواجه، فقد كان الرجل معتداً بشجاعته وبقدرته على مواجهة الموت، ولم يكن يخطر له على بال أن هذه العجوز تغفو، وهو يوشك أن يفقد وعيه حين يواجهان الخطر معاً، وفي مركبة واحدة، فبدأ يراجع نفسه في قيمة هذا الخطر، وفي وجوده أصلاً، ولكن الصورة والسهم المصوب للنافذة. . . لم لا يسأل عبدالله؟.

لقد كان سويلم يعاني هذه الكروب التي يحسها قادمة لا محالة دون أن يجسر على سؤال صديقه وجاره، خشية أن يظن به الجبن عن مواجهة الموت، وكان يخفي ما حل بوجهه من (كرمشة) وعرق بطرف «الحطة»، وحين بدأ الشك في الأمر التفت إلى صديقه وجاره في المقعد يسأله في هدوء (مصطنع)، ليخفي القلق والخوف، ليسأله عن هذه الصور، وذلك السهم، فأخذ صاحبه يشرح له بدون اكتراث هذه الصورة التي يتطلب تقليدها إذا حدث طارىء أو اصيبت الطائرة بخلل، وهو ما يندر جداً حدوثه، وأخذ يتوسع له في ذكر حوادث الطائرات وأسبابها، وفي نفس الوقت أقلها بالنسبة لما يحدث مع السيارات أو حتى الجمال، أو الخيل حين تعثر في خندق، أو تسقط براكبها من فوق جبل، ولقد كان سويلمّ يحمد الله في أعماق نفسه أن لم يكتشف ما حل به أحد، حتى صديقه عبدالله، وكان يتفرس في وجه عبدالله ليجد فيه نفياً لما يقول، فوجد أنه يكلمه ببراءة، ودون أن يبدو عليه تغيير، ثم ما الداعي أن يغشه عبدالله . . . ثم (هل روحك يا سويلم أحسن من أرواح الناس؟) ولم يشعر إلا وهو يتمتم في أعماق نفسه : (يارب إذا أرجعتني إلى أهلي سالماً غانماً لك نذر عندي عنز غراء . . . للفقراء والمساكين)!

وأحس سويلم بالطمأنينة تتسرب إلى نفسه، وأحس كأنه في حرز حريز من جميع الأخطار، فانتابه سرور مفاجىء، وبدأ يتفرس من جديد فيمن حوله، فاكتشف أنهم جميعا عراة الرؤوس نساء ورجالاً : بعضهم أصلع وبعضهم أشيب، وبعضهم منفوش الشعر، وبعضهم ممشط الشعر مدهون، واكتشف أنه من بينهم الذي يحمل هذا العقال على

رأسه، ولفه في فردة الخرج المعلقة على ظهر الكرسي أمامه، وابتسم عبدالله، أو تخلع الحطة والعقال أيضاً؟ قال سويلم من عاشر قوماً أصبح منهم، وأخذ يمسح شعره الكث بأصابعه وابتسم في سره، إن الجماعة الذين يمكن أن يلوموه على (قلة الحياء) بعيدون جداً، وفجأة دوى صوت: (نحن فوق دمشق)، وتدافع الركاب إلى الشبابيك، ومد سويلم عنقه إلى الشباك بجانب عبدالله، فرأى خطوطاً سوداء وبيضاء، وخيل إليه أنه رأى فرساً ونهراً، ولأول مرة يحس بعظمة هذه الآلة التي تحمله عبر السماوات، ويحس أنه يتفرج على أناس لا يستطيعون ان يتفرجوا عليه، ويراهم من حيث لا يرونه لقد أصبح ينافس النسور في ميادينها، يا سبحان الله، ولقد جذبت الأرض صاحبنا، فأخذ يتابع الجبال، ويلقي بصره على الأودية، فيزداد عجبه، ولكنه عاد مرة أخرى يلتصق بمقعده حين بدأت طائرته تهتز. . . . حتى خيل له أن هناك طارئاً، فبدأ يعيد نذره لله من جديد. . . فأحس بالطمأنينة مرة أخرى، في حين أن القلق لا يزال بادياً على الآخرين، وبعد لحظات خرجت تلك الأنثى تخبرهم أنهم على وشك الوصول لبيروت، وما كادت تتم كلامها حتى احس سويلم أن الطائرة بدأت تطلق أنينا كأنها كانت تهوي من جبل لقد رأى من تلك النافذة البحر، ورأى الشجر يمر مر السحاب ورأى أخيراً ميداناً فسيحاً جداً، وفجأة اهتزت الطائرة لقد وصلت الأرض. . . .

وابتسم عبدالله، وقال لصاحبه: لقد وصلنا إلى بيروت، وسنغير الطائرة بعد فترة. . . فبهت سويلم لقد كانت هذه الطائرة (مبروكة) وجربها، وهي لا شك راكوبة أصيلة، فقال له عبدالله: إنك ستركب

الآن واحدة أعرق أصلاً، وأكثر بركة، إن هذه الطائرة لا تستطيع أن تصل إلى أوروبا، فلا بد من واحدة تقوى على السفر البعيد، ومع حركة الركاب وقف سويلم ممسكاً بحطته وعقاله، ووقف معه عبدالله، وخرج من الفتحة إياها، وتنفس النسيم الرطب، وقفز الدرجات نشيطاً واثقاً من نفسه، يتفرس في وجوه الناس الواقفين عند أسفل الدرجات، وسلمهم عبدالله جوازيهما، وتطلع القوم في هذين الرفيقين كيف اجتمعا؟ واحد من الغرب، وواحد من الشرق، ولكن سويلم مر من أمامهم بدون اكتراث وهو يطلق بصره فيما حوله . . . وينقله من منظر إلى منظر . . .

كانت الدنيا تموج، طائرات تهبط، وأخرى تشق طريقها إلى السماء، وكانت البناية أمامه لا حد لسعتها وضخامتها، وكان الناس من على الشرفات أكداساً يحركون أيديهم، ومن بعيد تبدو البطاح خضراء داكنة، تلتف بعضها على بعض . . . والتفت سويلم إلى عبدالله بعد أن أنهى معاملة الجوازات يقول له: (هذه البلاد جنة) قال عبدالله: سترى بعد ساعات جناناً كثيرة يا سويلم وكأي سائح محترف، وكأي أفندي عريق، أخذ سويلم يقلد القوم، وهو يضع يده في جيبه، ويحتفظ بالحطة والعقال تحت إبطه، ويدخل مع عبدالله صالة الانتظار، ويدرس وجوه الناس، وأشكال النساء، وأزياءهن، أو قل يتابع المكشوف من أجسادهن، ويقارن بينها على هذا الأساس، وجلس مع عبدالله يبادله الابتسام كثر خيرك ياعبدالله . . . مخلوقات الله كثيرة، وملك الله واسع، وعفوه أوسع من ملكه . . . وطبعاً لم يكن لدى عبدالله إلا أن يؤمن، وهو يطلب لسويلم فنجاناً من القهوة، فوضع هذا رجلاً على

رجل، وبدأ يحتسي الفنجان رشفة رشفة، ولم يمض كبير وقت، حتى عادوا إلى ساحة المطار مرة أخرى ليتجهوا إلى طائرة جديدة كانت مركبتهم الأولى بالنسبة إليها كالطفل يقف بجانب أمه، ولقد قفز سويلم الدرجات في ثبات لقد أصبح مجرباً ونجح في الامتحان، فهو لا يدخل مغارة مخيفة، وإنما يدخل طائرة عظيمة تنقله عبر الجبال والمحيطات، ولقد لقي فيها سويلم ما أدهشه ورأى من عليها ما لا يزال منقوشاً على ذاكرته من قبل أن تحط به على الأرض مرة أخرى. . . .

(١٢)

لقد صعد سويلم السلم في ثقه، وحين دفن نفسه في المقعد إلى جانب صديقه عبدالله كان الأخير مسروراً بادي الانشراح، وهو يقول لصاحبه: (أنت الان على طائرة ألمانية، ويمكن أن تعتبر نفسك في ألمانيا، فنحن نرحب بك من الان ضيفاً عزيزاً. . . .).

لقد فوجىء سويلم بهذا الكلام، وأحس بالخجل والعرفان بالجميل وهو يقول: والله ما تقصروا. . الألمان رجال فحولة. . وأخذ عبدالله يحدثه سلفاً عما يمكن أن يشاهده، ولفت نظره إلى هذه الطائرة الألمانية إلى فخامتها وإلى الخدمة الممتازة فيها، وبالطبع، لم يكن سويلم يفهم ماذا يعني بالخدمة التي يتحدث عنها عبدالله، وهو أيضاً لم يشك في فخامة الطائرة، وضخامتها بالنسبة لتلك التي أقلته من القدس. لقد رأى سويلم سرباً من الناس ابتلعته الطائرة لا يقل عن ثلاثة أضعاف القافلة التي نقلتها الطائرة الأولى، فهي مركبة هائلة تتسع لعرب سويلم كلهم. . . وهنا عرضت صورة بيوت الشعر، والرجال، والأطفال والنساء، فابتسم وهو يتخيل أنهم بجانبه. . . ومن صدر القاعة خرجت

شابة في ريعان العمر (رطنت) كلاماً لم يفهمه، وأشعت في أعلى القاعة أجرفاً من نور، وتحرك عبدالله ليفتش على الحزام، وأسرع سويلم يربطه على وسطه، وأنّت الطائرة أنيناً خافتاً، ثم بدأت تتحرك وفي لحظات كانت في كبد السماء، وقد تقلصت خضرة لبنان، وغاب مطاره، ولم يبق إلا البحر يبدو وكأنه لوح من الزجاج لا حد لأبعاده. . . ولقد شعر سويلم بالتغيير فعلاً. . كانت الطائرة لا تتحرك، ولا تهتز، وكأنها جاثمة على الأرض، ويبدو أن الصالة مقسمة إلى خزائن مختلفة، فلقد تلفت سويلم من حوله، فلم ير من ذلك السرب الكبير الذي ابتلعته الطائرة إلا رؤوساً قليلة من الناس، خمسة من الرجال وامرأتان في خريف العمر، وصديقه عبدالله الألماني، وهذه الشابة التي خرجت مرة أخرى من صدر الصالة لتهمس مع كل راكب على حدة، حتى وصلت إلى سويلم.

كانت بيضاء تبسم عن أسنان أشد بياضاً، وكانت خفيفة اللحم، في صباحها زخرفات من النمش، تلمس القلب بأصابع سحرية، لقد أحس بالأنس والاطمئنان إليها، فبادلها ابتسامة عريضة اتبعتها بشوط من الكلام لم يفهم سويلم منه شيئاً، فتدخل عبدالله معهما، وسأله إذا كان يحب أن يشرب شيئاً، فشكر سويلم هذه الأريحية (وكثر الله خيركم)، ولكنه لا يمانع في كأس من الشاي. . وشاهد صاحبه عبدالله يتناول زجاجة عليها مجموعة من التصاوير، ولقد تسرب الخوف إلى قلب سويلم، لئلا يفقد صاحبه عقله في أعالي السماء، فلا بد أن تكون هذه الزجاجة من التي تجعله يهدر كما يهدر الجمل، وتجعل من عينيه حمراء كعينيْ الثور الهائج، ولكن شيئاً لم يحدث لقد ظل عبدالله على هدوئه وسروره. . . وظل يمازح سويلم، ويذكره «بعوجا الحفير» ولكن هذه

الشابة لا تنفك تطلب منه أن يشرب شيئاً آخر، وما تزال تعرض عليه أنواعاً من قطع الخبز الرفيعة (البسكوت)، ولا شك أنها كريمة من قوم كرام، فسأل رفيقه الألماني عن أصلها، فقال: إنها من قومنا إنها ألمانية، فضحك سويلم وهو يقول: هذا ما قدرته، ولكن ضحكه انقلب إلى دهشة وحرج وهي تضع بين يديه (قفة) كبيرة مملوءة بالزجاجات، تلك الزجاجات اللعينة التي حذره منها قومه قبل أن يغادر «خربة قمران»...

وظلت تقلب له زجاجة زجاجة، وعبدالله يترجم، وقد ارتج على سويلم، فلا يحير جواباً (هذا نبيذ بافاريا هل تفضل الفودكا، شراب روسيا، وهذه شمبانيا، وهذا جن) وهنا انتفض سويلم: (أي والله جن)، فأدرك عبدالله أن سويلم لن يشرب شيئاً، فقلب كفيه للأنثى، ولكنها لم تيأس، فاختارت زجاجتين، الواحدة في حجم زجاجة «القطرة»، وقالت لسويلم: (سوفنير) يعني تذكار، وهنا لم يجد بداً سويلم من أخذهما، لكي لا يكسر خاطر (هالمستورة)، فدسهما مع حطته في حقيبة زرقاء أهدتها له، ولقد ظلت تلك الزجاجتان مع سويلم إلى أن تمكن من تفريغهما في غفلة من الناس في أول مدينة استقر به المقام فيها.

وانطلق صوت جهوري يرطن لم يعرف سويلم مصدره، ترجمه عبدالله: (إننا فوق قبرص..) فتنهد الرجل وهو يردد:
(قبرص...)، وتذكر الحمير القبرصية الكبيرة ذات الصيت في بلاده، ولكن الصوت عاد مرة أخرى ليقول ما معناه: إن الطائرة ستمر بجبال عالية، وستضطر للارتفاع، فعلى الركاب أن يضعوا الخراطيم في

أفواههم.

وأدرك سويلم أنه الخطر دون أن يعرف مصدر هذا الخطر، ولكنه تذكر (النذر) الذي وهبه لله، وتذكر أنه في منعة من رب السماوات والأرض، ورب الخراطيم، فلم ينزعج، ولم يقلق، وإنما قال بكل بساطة: (يهونها الله) ولقد، (هونها) الله فعلاً، ومضوا فوق جبال الأناضول دون أن ترتخي تلك الخراطيم، ودون أن تتحرك، فتنفس الركاب الصعداء، وخرجت الشابة ذات الوجه الصبوح لتعلن لهم ذلك، ولتهمس مرة أخرى في آذان الركاب... ماذا يريدون أن يأكلوا؟ يالله، وماذا يريد أن يأكل سويلم أكثر من (الموجود)؟ فهو لا يريد أن يتكلف الناس له، ولا لغيره فبدأت الأنثى تحمل الصحون بيديها الجميلتين، وأخرجت من بطن الكرسي شبه طاولة صغيرة، ووضعت بعض الصحون عليها أمام سويلم، وكان سويلم لا يستطيع الحراك؛ لأنه حشر بين الطاولة والكرسي، وخشي أن يسقط كل شيء على الأرض، ولم يعرف مما قدم إليه إلا البيض، وقطعاً مقصوصة يبدو أنها من الخبز، ولكن شيئاً أثار انتباهه وتقززه معا لقد قدمت إليه صحناً صغيراً فيه شيء أسود معجون، وكأنه عجينة من النمل الصغير لقد التفت إلى عبدالله، وأشار إلى الصحن، فابتسم هذا وقال: (كافيار)، لم يفهم سويلم العبارة لتوها، فظن أنها (كفّار)، فذهب تفكيره إلى نوع من النمل قرصته تؤلم مع صغره، ويدعونه في البادية: (نمل كافر)، ولكن عبدالله تابع كلامه: (إنه طعام لذيذ من بيض السمك)، فقال سويلم: (أنا لاآكل دود البحر)، ولا بيضه....

(١٣)

كانت المجادلة قائمة بين سويلم وصديقه حول (الكافيار)، أو عجينة النمل في ظن سويلم، وبيض السمك كما يقول عبدالله، ولكن سويلم رفض في النهاية أن يتذوق طعمه، أكان من النمل الأسود أو من بيض السمك.

وإذا كان سويلم لم يتعرف إلاّ على البيض وشرائح الخبز من هذه المائدة العامرة، فإنه تلكأ سويلم طويلاً قبل أن يلتهم هذا الذي تعرف عليه، وأخذ يلحظ بطرف عينه ما يحدث عند عبدالله، وعند الآخرين فرأى أن كل واحد قد أقبل بسكينه و(مذراته)، وأراقوا في الكؤوس من الزجاجات شراباً جديداً، فتفرس سويلم فيما أمامه يفتش عن السكاكين وملحقاتها، فوجد أنها ملفوفة في ورقة نظيفة، ظن في الأصل أنها لون آخر من ألوان الطعام.

وأمسك الرجل بسكينته وبشوكته امساك العارف الخبير، وهو في أعماقه يسأل الله أن يجزي سعيداً على تعليمه دروس الأكل بهما كل خير، وقد كان في استطاعة سويلم أن يلتهم الخبز والبيض في لحظة، ولكنه أخذ يتمصمص عليهما، حتى إذا رأى الآخرين يمسحون أيديهم بالورق أمامهم، حذا حذوهم مع أن أمعاءه كانت تموج بعضها في بعض في انتظار المزيد، وقال سويلم وهو يساعد الفتاة الحلوة في رفع المائدة العامرة: (خلف الله عليكم) فالتفت إلى عبدالله ليترجم، وحين فهمت ما قاله، ضحكت في صوت رنان، وقد غطس سويلم جهد المستطاع في مقعده الوثير.

ومرة أخرى برزت الأحرف المشعة، ومرة أخرى بدأ هذا الصوت يدوي عالياً، ولا يرى صاحبه، وحين سأل عبدالله قال: إن الطائرة ستهبط وإننا سنقف دقائق في استنبول !

(اسطنبول) رددها سويلم وهو يتطلع كبقية الركاب إلى النافذة، وقد بدأ البحر هادئاً، وأمواجه ترتفع رويداً رويداً كلما أخذت الطائرة في الهبوط، ولم يكد يتبين سويلم شيئاً من هذه المدينة التي يعرف عنها كثيراً من كباره، وإنها كانت آخر الدنيا ونهاية المطاف في سالف الزمان، بل لم ينزل من طائرته مثلما فعل في بيروت، حتى تساءل عن سر هذا الهبوط والارتفاع دون حاجة إلى ذلك ولكنه لماذا يجهد نفسه في التفكير مع أن عقله لم يكن ليستوعب هذه الدنيا التي هي أوسع، وأعظم مما فكر وقدر، فلقد مر بقبرص، وها هو يلحظ اسطنبول... ومن يدري إنه قد يصل إلى بلاد تركب الأفيال، المهم أن يثبت في مقعده، وأن ينسى أنه جاء من «قمران»...

ولكن هل يستطيع ذلك، لقد خرجت الفتاة المضيافة مرة أخرى من صدر القاعة وعينها لا تفارقه، فأغضى عنها وهو يستعيذ من الشيطان الرجيم، وإن كان يجب أن ينظر إليها وأن يطيل النظر في تلك النقاط الجميلة في وجهها الصبوح، ولكنها لا تفارقه، فوقفت بجواره، وبدأت (ترطن) رطناً موسيقياً مع عبدالله، ويبدو أن الاخير قد عرفها على سويلم، وحدثها طويلاً عن أصله، لأنها كانت بين الحين والحين تنظر إلى سويلم، وتردد (أوه)، وكان قاموس سويلم المختصر من الألمانية لم يكن يضم (أوه) هذه على كثرة تكرارها، وقد شعر في أعماقه بأنها كلمة غرام، أهكذا وأمام الناس، يا للفضيحة هنا بدأت تبرز له صورة أم

سليمان، وتستعيد ذاكرته كل ما ردد قومه من محاذير الغربة، ومكر الإناث، وسيطرتهن في ما وراء البحار، فتحصن بهذه الذكرى من كلمة (أوه)، والتفت إلى عبدالله ليعرف مضمون ما يدور بينه وبين هذه الأنثى، فقال له: إن الست قررت أن تزورك في «قمران»... وهي تحب العرب وو... فرحب سويلم وأهل، وحين أشار عبدالله إلى كرم العرب، ذكره سويلم بكرم هذه الأنثى التي قدمت ما لا يقدمه شيخ من شيوخ العرب لجميع هؤلاء الناس... قال عبدالله إن ما تقدمه على حساب الشركة صاحبة الطيارة، وإن هذه مجرد موظفة !

لقد بدأت الامور تتكشف لسويلم، إذن لم تقدم من (كيسها) إنها مجرد (خادمة)، وإذن فهذا الطعام لم يكن كرماً، وإنما لا بد أن عبدالله يدفع ثمنه، وأحس سويلم بالندم إنه لم يأكل إلا البيضة والخبز، فلماذا يدفع عبدالله الثمن كله، وأحس سويلم بقيمة الفتاة تنحدر قليلاً وأحس بالعطف عليها يحل في نفسه محل الإعجاب، والشعور بالجميل، والفضل.

وهذا الصوت الذي لا يعرف صاحبه يدوي، وعرف سويلم أنهم فوق اثينا... وبعد فترة وجيزة قال نفس الصوت: إنهم فوق إيطاليا، وسويلم لا يعرف ما هي أثينا وأين إيطاليا، إنها من بلاد الله الواسعة التي لا يحيط إلا الله بسعتها وأبعادها، وكثيراً ما نسي سويلم أنه في طائرة تمر كالسهم من فوق رؤوس الجبال، وانشغل بمن حوله يتابع تصرفاتهم، إلى أن تحرك عبدالله، وأشار إلى سويلم إلى جبال عظيمة... هذه هي (الألب)، وبعد ساعة نصل إلى بلادي، فأهلاً وسهلاً، وتطلع سويلم من الطاقة،كانت الجبال مخيفة شاهقة، ولكنها

سوداء، إلا في بقع صغيرة تشع بياضاً قال عبدالله: إنه الثلج، ولم يمض كبير وقت حتى رأى الناس يتحركون، ويلمون أنفسهم، ويلبسون معاطفهم.. وتشع الأحرف المثيرة مرة أخرى لقد وصلنا إلى مطار ميونيخ.

(١٤)

لقد وصلنا إلى مطار (ميونيخ) قالتها الأحرف المشعة في صدر القاعة، وقالتها تلك الأنثى اللطيفة ذات الوجه الصبوح المزخرف بالنمش، والتي بدأ سويلم يعطف عليها، لأنها مع هذا الجمال وصباحة الوجه، وهذه اللطافة... تعمل خادمة ترى لماذا لم تتزوج؟ لماذا لم (يضبها) ابن الحلال؟ ولماذا لم يتزوج صديقه عبدالله مثلاً؟.. إن عند هؤلاء الناس ألغازاً لا يستطيع سويلم لها كشفاً، ولا يعرف لها حلاً.

كانت الغيوم تغطي السماء، حتى لقد عجب سويلم كيف سلكت الطائرة طريقها إلى المطار من خلالها، وأحس سويلم بالبرد يخترق لحمه الخفيف، ليستقر في عظامه بمجرد أن هبط الدرجات وراء عبدالله، بعد أن ودعا تلك الأنثى الجميلة اللطيفة، والتي أنهت صحبتها لهم بعد هذه الرحلة الطويلة، وبعد أن كفت ووفت، كما قال سويلم: نقول: لقد أحس الرجل بالبرد يستقر في عظامه على الرغم من أنه يحتفظ بـ (دراعة) من الوبر من نسج أم سليمان تحت القميص، وقد كان يحس حين يلبسها في عز الشتاء بأن بدنه يفور، ولكنه هنا يحس ببدنه يرتجف كأنه مصاب بالحمى، لقد تجلد الرجل، ولكن لا بد له من أن يقضي (الحاجة) أين،

وكيف يترك عبدالله ليزوغ في ركن لقضائها؟ ومن يدري أن يكون هذا المطار كبقية الدور في المدينة يقضي الناس حاجتهم في جحر خاص؟..
ثم تذكر سويلم أنه يستحيل أن يقضي حاجته في العراء... بدون عباءة، إنه مأزق يحدث عنه سويلم فيما بعد، وهو يصور العبر التي تفرض على كل رجل أن يعرف كل شيء، حتى كيف يقضي حاجته في مختلف البيئات والأقطار، ولكن المأزق يشتد ضيقاً وحرجاً حين يضطر في النهاية إلى وشوشة عبدالله، ليكشف له هذه المعضلة بكلام مغلف: (قل يا عبدالله في بلادكم، في ها المطرح، وين يفرغ الناس بطونهم؟) ولم يبد على عبدالله ما يعكر المزاج، فأمسك بيد صاحبه بعد أن وصلا إلى داخل المطار، وقاده عبر دهاليز وممرات طويلة، ثم (همز) شيئاً في باب إحدى الغرف المغلقة، فانفتح وأُنير المكان، رخاماً نظيفاً في داخله شيء مرتفع على الأرض كالقدر فوقه غطاء أسود لم ير سويلم في الدور التي دخلها مثله، فدار يفتش عن جحر يقضي فيه حاجته، وإذا بالغرفة كلها مشدود بلاطها بعضه إلى بعض، لا تستطيع النملة أن تتسرب من خلاله، فتطلع سويلم بفطرته إلى القدر، ورفع الغطاء، وأقعى كالنسر من فوق القدر الرخامي، وقفز وهو أكثر ثقة بنفسه، وأكثر اطمئنانا إلى صحته، فقفز إلى الباب المغلق لقد عالج الباب بكل طريقة، ولكنه لم يفتح، لقد همز كل مغمز، ولكنه على حاله، لقد شد الكرة الصغيرة، ولكنها لم تفعل شيئاً.... ياللبشاعة أتحبس ياسويلم بهذا المكان؟ والتفت مرة أخرى إلى ذلك القدر اللعين، وبدأ سويلم يحس بضيق لا مثيل له... وأحس بالخجل والعار معاً، وملأ التشاؤم نفسه، هل هذه هي فاتحة الرحلة؟ وعاد مرة أخرى يضرب جسمه الخفيف بالباب لعلها

أن تفرج، ولكن الباب ثابت لا يتزحزح... وفجأة وسويلم يتصبب عرقاً، ويتهالك إعياء دق الباب، وكان عبدالله واقفاً ينتظر ليقود صاحبه وهو يقول: لقد أطلت حتى ظننت أن حادثا قد وقع لك، فتنحنح سويلم متظاهراً أن الأمر لم يكن بهذه الخطورة، وقال: الحق أن المعدة فيها «قرص»، ولكني حركت (حدايد) الباب، فلم تفتح، وعلى كل حال حصل خير... ولكنه في أعماق نفسه كان يشكر العناية الإلهية التي قادت عبدالله إليه.

كانت البناية واسعة لا حد لسعتها، وكانت الإجراءات طويلة، لأن المكان على الحدود، ولكن سويلم شعر بالدفء، فسأل عبدالله الدنيا دافية هنا، ولكني عندما نزلت من الطائرة أحسست بالبرد يهز عظامي.

فابتسم عبدالله وهو يقول له: إن الثلج يتساقط في الخارج، ولكن في الداخل يوجد دفايات كهرباء.

(١٥)

كان المطار دنيا تموج بعضها في بعض، رجالاً ونساء كالرجال لم يستطع سويلم أن يميز بينهم إلا بعد الحملقة والتدقيق، وكان الكل مسرعاً لا يتحدثون إلا في همس كأن أمراً خطيراً على وشك الإحاطة بهم، ويزحم بعضهم بعضا لا يحييه، ولا يسلم عليه، ولا يسأله عن الأحوال والعيال، فضلاً عن (اعزم واكرم وأكل العيش نصيب).

لم يكن عند سويلم من الوقت ما يستطيع فيه أن يكتشف كل زاوية من زوايا هذه البناية، ولم يكن يجسر أن يكلم أحداً، او أن يحيي أحداً،

فهو لا يعرف كيف بدأ الحديث مع أي مخلوق من هؤلاء الواقف بينهم، وهم ينظرون إليه وإلى بعضهم جميعاً نظرات فيها الكثير من شبه الازدراء والدهشة، وحتى عبدالله الخبير ببلاده لا يحدثه أحد، ولا يحدث أحداً، ولم يستقبله الأقرباء والمحبون، ولم يتنازعوا قراه، ويتسابقوا على إكرامه، لقد خيل لسويلم أن صاحبه عبدالله قد لقي من التكريم عنده وعند غيره أكثر مما يمكن أن يلقى بين قومه، وبني جلدته عجيب والله أمر هؤلاء الناس، وأعجب منه أن يحمل عبدالله ـ حين انتهت الإجراءات الرسمية ـ الحقائب لا يساعده أحد، فهب سويلم يساعده في النقل، وقد أحس بصدمة وهو يتذكر المساعدات التي تقدم للضيف في بلاده، ويتذكر أولئك الناس الذين يحملون الحقائب في مطار القدس، والمسافر (يتمشكح) لا يحمل إلا جواز سفره.

وعلى باب المطار من الجانب الآخر، وقف عبدالله وسويلم هنيهة ينتظران سيارة، وكان الظلام قد أرخى سدوله، وكانت الغيوم الكثيفة تزيد من حلكة الظلام، حتى ان الأنوار المشعة لا تكاد تخترق أسوار الظلام إلا لأمتار، وكان رذاذ لزج يتساقط في سكون، وأغلق سويلم فاه بإحكام، لأنه أحس وكأن الصقيع قد تحول إلى أشياء ملموسة يتجرعها قسراً، فتصل إلى أمعائه، وتجري في عروقه، وحين قفز وراء عبدالله في مقعد السيارة، كان يهتز كورقة في ريح عاصف، فأخذ يشد جسمه إلى جسم صاحبه، وكأنه يفتش فيه عن دفء، أو يستعين به على الثبات والصمود، على الرغم من أن السيارة كانت دافئة، ولكن برده تغلب على دفئها.

لقد أدرك عبدالله ما حل بصاحبه، ولم يكن يستطيع وهو في السيارة أن يفعل شيئاً، وإنما قال له بعد دقائق تكون في الأوتيل، في الأوتيل. . . هكذا سأل سويلم نفسه، كيف يذهب به إلى بيت الأجرة، ويترك بيوته، وهو كما قال له ميسور الحال، ومرة أخرى هز سويلم رأسه عجيب أمر هؤلاء الناس، ولكنه أخذ يقلب الأمر على وجوهه، ربما كانت هذه البلدة غير بلده، ولكن كيف ينزل بضيفه بعيداً عن بيته؟ ومرة أخرى يراجع نفسه، ربما كانت له أشغال أحب أن يقضيها، ولكن ألا يستطيع أن يؤجل هذه الأشغال إلى ما بعد أن يؤدي الواجب؟ لولا وجبة الصقيع التي استقرت في بطن سويلم، والتي أثارت عواصف عاتية في هيكله، كان يمكن أن يظل يتساءل ويحدث نفسه دون انقطاع، ودون أن يجد لهذه الفوضى التي (شوشت) رأسه تفسيراً، أو يهتدي إلى حل لألغازها، ولكنه بدون تفكير سأل (المحلي): بس إن شاء الله فيه نار يا عبدالله، «أنا صقعت» يا أخي، وبلادكم باردة، فأمن عبدالله على كلامه، وقال: أين «العوجا حفير» و«البتراء» و«خربة قمران» الشمس هنا لا ترى إلا بقدر ما ترون الغيوم عندكم، وستدفأ في الأوتيل إن شاء الله يا سويلم لا تخاف. .

وأمام مبنى كبير وقفت السيارة، ودخل سويلم وراء عبدالله لا يستطيع التماسك، ولا النطق بكلمة واحدة دون أن يهتز فكه، ولكنه يقف بضع دقائق في الداخل، حتى أحس بالدفء الشامل يتكشف حتى يصبح شيئاً يؤكل، يدخل من نفس الطريق التي دخل منها الصقيع، يطارده في كل مكان حل فيه من جسم سويلم، وبعد دقائق أيضاً ناداه عبدالله: تعال نصعد إلى غرفتك، وقد كان سويلم يتطلع من

وراء عبدالله، ليكشف طريقه إلى الدرجات، ولكن الأخير دخل زنزانة صغيرة مجاورة، وقال لصاحبه: نحن الآن في المصعد، لا تنس أن تكبس على هذا الزر إذا أردت أن تصعد إلى غرفتك، وعلى هذا الزر إذا أردت أن تنزل منها، وكأن شيئاً يهمس كالنسيم وهم في تلك الزنزانة، وفي رمشة عين وقف الهسيس وانفتح الباب.

وخرج سويلم وصاحبه في ردهة، ثم دخلا ممراً طويلاً، كان المفتاح على حاله في باب من الأبواب، حركه عبدالله، ودخل وراءه سويلم لم يكن في الغرفة أحد، كانت حقيبته على كرسي طويل لقد عرفها بخيط أسود ربطه فيها كالوسم، وكانت الغرفة واسعة: بها ممر صغير، ومن النافذة تبدو الأنوار ساطعة تتجاوب مع نور الكهرباء الذي أضاءه عبدالله، ولم ينس هذا قبل أن يغادر أن يمسك بيد صاحبه، ويريه أقسام الغرفة: هنا الحمام، وهذه المغسلة، ثم أهوى بيده على صندوق أبيض، وهذه ثلاجة تستطيع أن تشرب منها ما تشاء، وإذا أردت شيئاً اكبس على هذا الزر... وإذا....

كان سويلم يتنقل وراء صاحبه وهو شبه غائب عن الوعي، ويستمع إليه كأنما يحدثه من بئر عميق، وحين خرج عبدالله لم يعرف لماذا خرج، ولماذا تركه في هذا المكان وحده، ولقد حاول أن يستعيد تفكيره، وأن يشد أعصابه حين جلس على هذا الكرسي الطويل اللين الذي قال عنه عبدالله: إنه سرير النوم. لقد حاول ذلك، ولكنه لم يستطع؛ لأنه كان قد راح في سبات عميق.

(١٦)

لم يتهيأ سويلم للنوم، أو يخلع ملابسه، يلبس البيجاما التي دسها له في الحقيبة صديقه الدليل في القدس، بل لم يخلع حتى حذاءه حين ارتاح على ذلك السرير، لقد تسرب الدفء إلى جسمه المنهوك، والخدر إلى اعصابه، فنام هكذا بدون مقدمات ولا استعداد.

ولقد عز على عبدالله أن يرى سويلم مرة أخرى في تلك الحالة التي رآه فيها وهو يرتجف خارج المطار، فاشترى له معطفاً، وعاد لكي يأخذ هو الآخر قسطه من الراحة، وحين ضرب طرقات خفيفة على الباب، ولم يجبه أحد دخل الغرفة . . . كان النور على حاله، والحقيبة في مكانها، وكانت الغرفة وكأنها خالية، فلما ألقى بصره إلى السرير تبسم الألماني وهو يتابع تنفس صديقه الرتيب، تبسم وهو يرى سويلم في حلته الكاملة في سرير النوم، وعلق المعطف، وخرج دون أن يطفىء النور خشية أن يسبب الارتباك لصديقه حين يستيقظ ربما في ساعات الليل.

لقد أخذ سويلم كفايته من النوم، وعادت روحه إلى منطلقه الأول لتستعرض رحلته الطويلة من قرية «قمران» إلى منزل سعيد، ودروسه في تحضير البدو إلى الطائرة، إلى ذلك النذر الذي وهبه حين اشتد به الضيق، إلى تلك الأنثى التي لم تجد زوجاً، فأصبحت خادمة في الطائرة، إلى صديقه عبدالله الذي لم يتزوج هو الآخر، ولم يستقبله أحد، ولم يتنازع قومه على قراه . . . . لقد كان حلماً طويلاً استيقظ منه سويلم، فقفز من الفراش مذهولاً مرتبكاً، وتطلع هنا وهناك لم يجد حساً لعبدالله، وجد نفسه وحيداً في هذه الغرفة المغلقة، فتجول في أرجائها، الخزانة البيضاء، والمغسلة، والحقيبة وشيئاً آخر لم يره قبل لقد رأى معطفاً

معلقاً في مدخلها. . . عجيب أين ذهب عبدالله؟ كيف يتركني هكذا وحدي؟ أين رعاية الضيف وإكرامه؟. . . كيف اترك هكذا كالغريب وحدي؟ ياللعجب. . . . ولأول مرة يتسرب الندم إلى نفس سويلم أن جاء إلى هذه الديار التي لا يعرف عادات أهلها، والذين يتركون ضيوفهم كالسجناء في غرف مغلقة. . . لقد تطلع سويلم إلى النافذة، كانت السيارات غادية رائحة، ولكن الليل ما زالت سدوله ترتخي في كل مكان وصلت إليه عينه: لقد أحس الرجل بالجوع ينهش أمعاءه، ولما فتح تلك الخزانة اللعينة وجد أنها محشوة بالزجاجات فقط، تلك الزجاجات التي لا يزال يحفظ تحذير قومه منها: ولكنه تجلد وأطلق ضحكة ساخرة، وهو يحدث نفسه: (ليلة ما قتلت عيلة والدفء فيه غداء كفاية)، وأخذ يخلع ملابسه من جديد على أساس تعليمات سعيد، وتمدد على ذلك السرير اللين العجيب.

لم يغش الكرى عيون سويلم، فلقد أخذ كفايته من النوم، وقد خيل له أن الديك قد صاح، وأن الصباح قد انبلج نوره، فتوضأ وصلى ودعا ما شاء له الله أن يدعو، ثم عاد وتمدد مرة أخرى. . وظل على حاله إلى أن سمع نقرات خفيفة على الباب، فهب كالملسوع، ودخل عبدالله. . !

لقد هب سويلم في وجهه وكان الغضب بادياً عليه على الرغم من ابتسامه المصطنع، كيف تتركني هكذا وحدي والغرفة واسعة؟ وحتى لو لم تكن واسعة، والبيت الضيق يسع مئة صديق. . . .

كيف تتركني هكذا وأنت لا متزوج أولاً، وليس لك أقرباء

هنا؟ . . . لقد تصورت نفسي رهينة . . . ووو، فجلس عبدالله، وحاول أن يهدىء من روعه، لقد خرجت لإحضار معطف ليحفظك من البرد، لأن بلادنا باردة، وأشار إلى المعطف المعلق . . ثم حدث عن تقاليد القوم . . . إن كل واحد يجب أن ينام في غرفة على حدة، ليأخذ راحته . . . وابتسم ابتسامة عريضة وهو يطلب من صاحبه أن يلبس ليذهبوا لتناول الإفطار . . .

ومن نفس الممر، ومن خلال الردهة التي دخلوا منها، وفي نفس تلك الزنزانة التي صعدوا بها نزل سويلم وصاحبه (بمجرد أن همز زراً صغيراً فيها . . .) ومشى سويلم وراء عبدالله بكامل نشاطه ويقظته، وفي ساحة كبيرة فيها مجموعات من الناس، خليط من النساء والرجال جلس عبدالله، وجلس قبالته سويلم . . . وتراكض إليهم أولئك الرجال موحدي الزي، ورطنوا ورطن معهم عبدالله، وعادوا بما تيسر من البيض وأشياء أخرى كطبيخ العنب.

لقد أمسك سويلم بالشوكة، وشكر سعيد من أعماق نفسه مرة أخرى . . . واسترق النظر إلى من حوله كان كل فرد مشغولاً بنفسه، ويبدو أنهم جميعاً لا يعرف بعضهم بعضا، والنساء تأكل مع الرجال، ومرت أنثى، وتبادلت الابتسام مع عبدالله، هكذا ابتسامة طائرة، ولقد عجب سويلم، وحاول أن يتتبع سر هذه الابتسامة . . . وعبدالله يتطلع في إعجاب إليه وهو يأكل وكان جائعاً، ولم يكن سويلم في حاجة إلى ذكاء لكي يدرك أنهم يأكلون من مطعم بالثمن كما ينامون بالثمن، كل شيء بحسابه في هذه البلاد، وتناول سويلم الشاي كأي مدني عريق، وخرج

من المطعم مع صاحبه، وأحس أن عيوناً كثيرة في ذلك الاوتيل أخذت تتابعه، مما أزعجه، وجعله يراجع نفسه ماذا فعل مما يمكن أن يثير انتقاد القوم؟ . . .

(١٧)

ماذا فعل سويلم . . حتى يتطلع إليه الناس، وخاصة النساء ،ومنهم الجالسون في الساحة خارج صالة الطعام، لقد أكل بنفس الأسلوب الذي علمه به سعيد، وسعيد لا يغش سؤال ظل يتردد في نفس سويلم دون جواب إلى أن عرف جوابه بعد ذلك بزمن طويل، وابتسمت له الأنثى الواقفة أبداً على الطريق، ومن حولها سور سميك من الخشب الفاخر، وأمامها السجلات، وتلكأ عبدالله يحدثها بما لم يستطع سويلم فهمه، فاستمر في طريقه إلى تلك الزنزانة التي يرتفع بها إلى الغرفة حيث ترك حقيبته، وأطال عبدالله الحديث، واستطاع سويلم الانتظار، ولم يدخل تلك الزنزانة؟ ولم يهمز ذلك الزر؟ وأخيراً لماذا لا يجرب وحده؟

ودخل سويلم، تماما كما دخل عبدالله من قبل، وغمز الزر المعهود، فتحركت الزنزانة، ووقفت، وانفتح بابها، فخرج سويلم نفس الردهة، ونفس الممر الطويل المغطى بالسجاد، ونفس المفتاح، فتقدم إلى الباب واثقاً أنه استطاع أن يصل إلى الغرفة دون مساعدة أحد، وشد الباب تماماً كما رأى عبدالله يفعل . . . . فيا للهول . . !

كان رجل يحرك عنقه، ويعدل (الرسن) في قميصه، ويتطلع إلى المرآة، وكان هناك أنثى . . . لقد جفل الرجل، ولكن سويلم كان أشد دهشة لقد الجمت المفاجأة فاه، وشلت قدرته عن التفكير لقد كانت الأنثى جالسة في ثوب ضبابي، وأحس سويلم أن الضباب يتكاثف بينها

وبينه، حتى أصبحت خيالاً لا يستطيع تمييزه، وكان الرجل على حاله يتطلع إلى صاحبنا، إلى هذا الدخيل الذي لم يستأذن ولم يطرق الباب وسويلم يتطلع إليه في تحد، كيف احتل مكانه؟ وكيف يستطيع أن يصل إلى حقيبته، ولكنه آثر أن ينتظر عبدالله، فأعاد إغلاق الباب، ووقف خارجه كالحارس. ولكن الرجل عاد ففتح الباب بقوة، وتطلع إلى سويلم في غضب، وأخرج شوطا من الرطن كطلقات الأتوماتيك، وعلى عادة راجحي العقول، وبالأسلوب البدوي السمح في معاملة السفهاء، تطلع إليه سويلم مبتسماً فاضًا بعض قاموسه من اللغة الألمانية: (جودن تاك)، ثم أشار بأصبعه إلى الداخل، ثم إلى صدره، ليعبر أن هذه الغرفة له، وأن حقيبته داخلها، ولكن ذلك اللعين لم يفهم، لقد خيل إلى سويلم أنه أحد أولئك الأوباش الذين يمسكون ببنات الهوى، وأنه إنما جاء ليفعل الفاحشة في مكانه، لقد انتفض الدم حاراً في وجهه، وبدأ الغضب يهزه، وأطلق مجموعة من الجمل العربية الغاضبة، ولكن الرجل لم يفهم، ولكنه أدرك أنه غريب، فهدأ غضبه، وأشار إلى سويلم أن يمشي معه، ففعل ونزل الدرجات، وإذا به عند تلك المرأة التي مر عليها قبل دقائق، ولكنه لم ير عبدالله، فرطن الرجل مع المرأة وردت هي عليه وابتسم إلى سويلم، وصافحه ثم مضى... ونادت المرأة على أنثى أخرى، فأشارت إلى سويلم ومع «اللخمة» ومع عدم فهمه لكل ما جرى مشى وبصورة آلية معها إلى تلك الزنزانة... وأغلقت الباب، وتحرك الدم مرة أخرى في بدنه، هو والأنثى وحده في هذه الزنزانة لعن الله الشيطان... ولعن هؤلاء الناس وعاداتهم... وابتسمت الأنثى، وكشر سويلم، وأدار لها ظهره، وفي لحظة فتح الباب نفس الردهة،

ونفس الممر، وأشارت له الأنثى إلى نفس الغرفة فتلكأ سويلم، لأنه يعرف أن بداخلها تلك الأنثى صاحبة الثوب الضبابي، ولكن المرأة فتحتها، ومضت مكسورة الخاطر، ولم يأسف سويلم على ما حدث، ولكنه أمام مفاجأة أشد، فقد رأى الغرفة خالية من كل أثر للرجل، وتلك المرأة، لم يرِ إلا المعطف معلقاً، وحقيبته في مكانها، وكل شيء كما هو. . فما الذي حدث؟ لقد تذكر ما قيل عن بلاد أوروبا، من أنهم يصنعون أبنيتهم على أساس متحرك، فيكفي أن يهمز صاحبها زراً، فتتحرك البناية لتشكل غرفا كما يشاء، ولكن المرأة والرجل إنه لغز آخر لم يجد سويلم سبيلاً إلى حله، لولا أن عبدالله جاء باشَّاً هاشَّاً، يطلب منه أن يسرع ليذهب معه، ولكن العرق كان يتصبب من وجه سويلم كان في حالة غير عادية، فسأله عبدالله ماذا بك؟ قال فسر لي ياعبدالله كيف تكون هذه الغرفة مملوءة بالناس، ثم تكون فارغة في آن واحد، ولم يفهم عبدالله، فروى له سويلم القصة من اللحظة التي تركه فيها، فضحك هذا، وقال لعلك قد أخطأت في طابق آخر، فأقسم سويلم: إنه نفس الممر، ونفس الغرفة، فضحك سويلم مرة أخرى، وقال: إنها نفس الغرفة والممر، والردهة، إنهم يصنعون الغرف والممرات متشابهة، وتعال معي لنرى ونزل بضع درجات، ومشى، فتعجب سويلم إنه ذلك الممر، وتلك هي الغرفة كان الرجل الطويل واقفاً على الباب فحياهما وخرجت المرأة من الداخل، وقد تغيرت ملابسها، وصبغت شواربها وبين الحين والحين تقول أوه وهي تفتح عينيها في وجه سويلم وتتلوى، وصاحبها يتطلع إليها وكأنه فخور بها، وكلاهما كان كأنما يعتذر لسويلم، وعبدالله يترجم له أنهما يحبان بلاد العرب. . .

(١٨)

كان سويلم يمشي وراء عبدالله بعد أن ملأته الدهشة من تصرف الرجل والمرأة هذا يعتذر إليه وتلك تتلوى أمامه، وتحرك عينيها انسجاماً مع هذا التلوي، حتى خيل إليه أنـه لو دخل عندها في الغرفة لكان الاعتذار أشد، والتلوي أكثر، على الرغم من أن الواجب أن يعتذر هو وأن يسألهما الصفح والغفران، فهو الذي فتح الباب غباء وجهلاً، وهو الذي كشف عورة البيت ورأى المرأة في المحرم.

وسويلم يقلب فكره في عادات القوم وتصرفاتهم التي يجاملون بها ضيفهم في مثـل هذا الخطأ الشائن، ولكنهم لا يلتفتون إليه إذا تعلق الأمر بالقرى، وتقديم واجبات الضيف الأخرى، ومضى سويلم وراء صاحبه لا يكاد يلقي بالاً إلى انحناءات خدم الفندق من حوله، ولا إلى الابتسامة العريضة التي استقبلته بها الشابة التي تحرس المفاتيح، وفتح ديدبان الفندق لعبدالله وصاحبه، فانفلتت دفعة قوية من الصقيع جفل لها سويلم، وتذكر عبدالله أنه قد نسي أن يسلح سويلم بالمعطف فرطن بضع كلمات، وبعد لحظات كان المعطف بين يدي إحدى الخدم تحمله، وتـومىء إلى سويلم، وقـد همّ هذا أن «ينتش» المعـطف منها، ولكن عبدالله قال له: تريد أن تلبسك، فمد سويلم يداً ادخلتها الأنثى في المعطف برشاقة، ولم يتركها تدس اليد الأخرى، لأنه كان قد أمسك بها ودس نفسـه فيه، وابتسم عبد الله وهو يقول لصاحبه: إنهم يجاملون النزلاء الضيوف، فقال سويلم: عجيب أمركم ياعبدالله نساؤكم يخدمن

ويجاملن الرجال بمساعدتهم في ارتداء ملابسهم، وربما في خلعها هذه الوجوه الفليحة كيف ولماذا لم تتزوج؟ قال عبد الله بعضهن يملكن أزواجا وبعضهن في انتظار ابن الحلال، فازداد عجب سويلم، اتتزوج المرأة عندكم، ثم تخدم في فندق وتلبس الرجال الغرباء ملابسهم، قال عبدالله: إنها مجرد مجاملة للضيوف، فقال سويلم: إلى هذا الحد؟ وقال في نفسه: ولكنهم لا يعطونه لقمة من خبز...!

وتمنطق سويلم بالمعطف، ولو أمسك باسنانه ذيل غليون صغير، وهو يضع يديه في جيبه، لظن بعض الناس أنه واحد من أولئك الأثرياء من رجال الشرق الذين يقلدون الإنجليز في كل شيء، وفي نقل الغليون بأسنانهم كما ينقل الكلب العظم، وفتح الباب مرة أخرى، ودخلت تلك العاصفة من الصقيع، ولكن سويلم قد تدرع أمامها، ومشى وراء عبدالله خطوات، وقد ملأه العجب، كيف أنه في داخل الفندق كأنه على شاطىء البحر الميت، وهو خارجه لا يتنفس إلا الصقيع، وهل تحوط هذه الدفايات على هذا القصر الذي لا حد له، ونادى عبدالله على سيارة طائرة، فوقفت، وفتح الباب، ودخل سويلم دون أن يسأل أو يدري إلى أي داهية يذهب، لأن الضيف كما يقال أسير المحلي، ولكن عبدالله قص له المخبوء، وقال له إننا ذاهبون إلى صديق عزيز جداً هو مدير شركتنا في هذا البلد، وقد ضربت معه موعداً، وهو ينتظرنا... والتفت إلى ساعته بعد خمس دقائق، أي والله هكذا بالدقائق وصديق عزيز، لم يستقبله عندما نزلوا في بلده على أي أسس يا ترى يمتحن الأصدقاء أصدقاءهم في هذا البلد، وابتسم سويلم وهو يقول لنفسه من يدري أن هذه الخمس دقائق لو مرت دون أن يصل إليه عبدالله أنه

سيرفض مقابلته؟ وقال في نفسه ساخراً: الحق أنه صديق عزيز.

كان سويلم يتطلع من خلال نوافذ السيارة إلى كتل الناس تتحرك كالشياطين، الكل يهرول، والكل ينطلق بأقصى ما عنده من قوة.. حتى لكأن كل واحد منهم عنده موعد!

بعد دقائق، ومن خلال الغبش لم يستطع سويلم أن يتحقق من هيئات الناس ووجوههم، لم يستطع أن يكتشف أسباب العجلة التي لا تترك للقوم مجالاً لإدراك أن في العجلة الندامة، وكانت البنايات عالية تغيب في الضباب لم ير سويلم أن لها نهاية والسيارات كالخنافس، تقف أحياناً لتترك المجال لسيارات تأتي من الشمال أو الجنوب: أو من يدري أن هذا هو الشمال، وذلك هو الجنوب: لقد صلى سويلم في الفندق دون أن يتحقق من القبلة، وهو أولى أن يجهل من أين تأتي هذه السيارات، وإلى أين تذهب، ولكن شيئاً سحرياً له عين كما تحاش الغنم، ولا تنطلق إلاّ إذا أغمض عينه لقد سرح سويلم مع هذه الدنيا التي تموج، ونسي صديقه، ونسي الخمس دقائق الموعد المضروب مع صديقه الصدوق، ولم يذكره بكل ذلك إلا السيارة تقف، وعبدالله يناول السائق ما تيسر، ويدخلون باباً ضخماً، ويصعدون بضع درجات... ويدأ سويلم يتنفس الدفء، وفُتح باب ليقف أمامه رجل طويل القامة، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة، وشد على يد عبدالله وهو يتبادل معه الرطن، ثم وقف عبدالله بينهم... هذا صديقي سويلم، فشَدَّ الرجل على يده... وسويلم يبادله الشد في كياسة مصطنعة، ويقول له: (جودن تاك...).

(١٩)

ولقد حاول سويلم أن يتذكر اسم الرجل، غير أن اسمه ثقل على لسانه، فلا ينطقه، وكان يكتفي مع أصحاب هذه الأسماء أن يقول السيد، الوجه الفليح، وإذا حاول أن «يتفرنج» قال: المستر، وإذا أحب أن يسخر في أعماق نفسه من صاحب الاسم قال: الهر، وهكذا كان يتحاشى الأسماء التي لا يستطيع أن ينطقها.

كان الرجل يتقدم سويلم في ردهة طويلة، ماراً بأبواب كثيرة مغلقة، وكان سويلم يمشي خلفه كأنما ليمنعه من الفرار، وفتح الرجل باباً يؤدي إلى صالة واسعة مملوءة بالنساء، كل واحدة تجلس على كرسي، وتستند على طاولة، وكل واحدة تعمل في شيء أمامها، إما أن تكتب وإما أن تطقطق على ذلك الصندوق الصغير، لتخرج صوتا كقلية القمح، ولم يستطع سويلم كبح شهوة النظر في تلك الوجوه الصبيحة، والخالق أحسن، وعلى الرغم من أنهن يتفاوتن في الأعمار، إلا أن كل واحدة تنافس الأخرى في جمال الخلقة، واستمرالرجل مجتازاً الصالة إلى غرفة مقابلة فيها كراسي لا تقل فخامة عن كراسي الطائرة، وأومأ إلى عبدالله، ثم جلس في الصدر على كرسي يميل به يميناً ويساراً، يتطلع في وجه عبدالله مرة، وفي وجه سويلم مرات، وبينه وبينهما صندوق حديدي ضخم، يتكافأ ولا ريب مع مقام الرجل، ومع ثروته، والذي يدعونه مكتب يستند عليه الرجل أحياناً، ليخط كلمات، ويمسك بالتلفون، وأحياناً «ينشكح» على الكرسي إلى الوراء، ويتطلع من الباب المفتوح على كل النساء الجالسات في الصالة... يراقب ببصره الثاقب كل واحدة منهن، وكأنه يقرأ أفكارها فضلاً عن إحاطته بما تشغل به نفسها، ولقد

أدرك سويلم أن هذه المجموعة من النساء لا بد أن تكون زوجات الرجل مع بناته وأخواته، وواضح أنه رجل (ذكر) صعب مع النساء، فإنه دخل عابساً لم يبتسم في وجه واحدة، وكذلك فإن كل واحدة كانت مشغولة بما في يديها، لا تلقي بنظرها إلى سويلم وعبدالله أثناء مرورهما وراء هذا الزوج الفولاذي الغيور. . . وكأن سويلم لم يأت من وراء البحار، وكأن عبدالله يقيم عندهم صباح مساء. . . !

ولقد ندم سويلم على تفحصه لوجوه النساء في الصالة اثناء مروره، واستعاذ بالله من تلك النظرة الشيطانية، وابتسم للرجل، وكأنه يعتذر عن فعلته الشنعاء بالنظر إلى نسائه، وبدأ عبدالله يحدث صديقه عن قصة سويلم وبلاده والكرم البدوي، وهجرة سويلم وقومه من «العوجا حفير»، كان يحدثه بمرارة يستطيع المرء أن يحكم معها أن الرجل يحب هؤلاء الناس حباً ملك عليه قلبه، وتطلع الرجل إلى سويلم ليكشف في صاحبه مصداق ما يقوله عبدالله، وابتسم ابتسامة عريضة وهو يقول: آه. . . عندكم يتزوجون أربعة وخمسة، ومرت سحابة من عدم الرضا على وجه عبدالله، وابتسم سويلم، وقد فهم أن الرجل إنما يريد ان يفاخر بكثرة نسائه، ابتسم قائلاً: الرجل القادر أن يتزوج اثنتين وثلاثة وأربعة. . فقال الرجل: وكم واحدة تملك أنت باعتبارك شيخ قبيلتك؟ قالها في لهجة من السخرية والتحدي. . قال سويلم: والله ما عندي غير أم سليمان، والتفت إلى مجموعة النساء في الصالة، أما أنت فما شاء الله عندك شلوة، وأردف قائلاً: تغلبهن بالمال، ويغلبنك بالعيال !

وأدرك عبدالله الخطأ الذي وقع فيه ضيفه بتوهمه أن مجموعة النساء في الصالة هن زوجات مدير فرع الشركة، فحاول أن يوضح الأمر

لسويلم قائلاً: لا ياصديقي الستات،وأشار إلى المجموعة لسن زوجات السيد، ولا حتى قريباته،إنهن فقط سكرتيرات، وموظفات يعملن ساعات من النهار. . فقال سويلم: أتعني أنهن زوجات بالأجرة لبعض النهار فقط؟. . . . أتعني أن كلهن من بنات الهوى؟ وابتسم عبدالله لسوء الفهم الذي وقع فيه سويلم. . . لا ياصديقي،افرض أن عندك بنتاً واحببت أن تشتغل بالأجرة، فحوقل سويلم، وتمتم في نفسه: لا سمح الله، وتابع عبدالله كلامه، أقول: إذا كانت عندك مثل هذه البنت، فإنها تطلب عملاً في الشركات، وعند أصحاب الأعمال، فتعمل وتأخذ راتباً. . .

لقد كان الأمر واضحاً، فسأل سويلم مستغرباً: هل تعمل البنت، وتأتي إلى مثل هذا المكان داخل الجدران المغلقة مع هذا الرجل، ولا تكون زوجته؟ قال عبدالله: نعم،قال سويلم: يا سبحان الله، وكيف يكون ذلك؟ ومن يمنع هذا الكبش الذي يجول في وسط النعاج وحده من أن يتزوجهن واحدة بعد الأخرى؟ وأحس عبدالله بالحرج. . . فقال في شبه همس لصديقه،هنا يا سويلم فيه المرأة حرة تعمل ما تحب. . . . فقال سويلم في لهجة حازمة: (وهل تحب المرأة من الرجل إلا ما يحب الرجل من المرأة؟ أتقنعني أن هذه الأجيرة عند صاحبك هذا، تفعل ما تريد، أو ما يريد هو؟. . وهل يريد شيئا غير. . .).

كانت المناقشة باللغة العربية قد اشتدت بين عبدالله وسويلم، فانتفض السيد المتربع وراء الصندوق، وسأل عبدالله ماذا هناك، فقال عبدالله: إن سويلم يظن أن. . . وأشار إلى النساء هن زوجاتك أو قريباتك. . . . وكأنما فجر عبدالله معين الضحك والسرور في الرجل،

فانطلق يقهقه.. زوجاتي.. يا لشقائي... ويكرر زوجاتي، ورطن بضع كلمات من خلال القهقهة ليترجم ما يقوله سويلم، ولدهشة سويلم انفجرت النساء القريبات في قهقهة.. وقامت بقية المجموعة ليسمعن القصة المسلية، ويشاركن في الضحك، وعيونهن جميعاً على سويلم، وقد انكمش الرجل في نفسه، شعر بغربة مضاعفة، وأحس أنه قام بفعلة في نظر القوم نكراء، وأنه ما كان يجب أن يكون سخرية القوم إلى هذا الحد... وتمتم... يا خسارة...

(٢٠)

لقد ذهل سويلم لهذه المفاجأة المؤسفة، فما كان يظن أنه سيصبح سخرية القوم إلى هذا الحد، وهو لم يقل شيئاً، وهل قال أكثر من أن هؤلاء النسوة، إما أن يكن زوجات الرجل، أو بناته أو أخواته ما دمن يعشن معه في هذه البناية؟ وهل كان هذا الظن بمثل هذه الغرابة عند القوم، حتى يبعث فيهم مثل هذه السخرية، ويدفعهم إلى القهقهة؟ الرجل ونساءه معا.....

وانكمش سويلم، وحامت على وجهه ابتسامة باهتة، وهو يتطلع إلى عبدالله، ويقول في نفسه: (عجيب أمر هؤلاء القوم يرسلون بناتهم إلى مثل هذا الرجل، ليعشن معه داخل جدران مغلقة، ثم لا يكن زوجاته... ترى ما عمل الزوجة إذن وما وظيفتها...؟) وقال لصاحبه: لقد أدخلنا السرور على صاحبك لقد كان حديثاً مسلياً، للبنات والحريم... والتفت سويلم إلى مجموعة الإناث التي تجمهرت على الباب، واقتربن منه، وما زال رنين ضحكاتهن يصفق على أذنيه، كان

العطر ينبعث مع أنفاسهن، وصدورهن تهتز مرحاً، وهن يتبادلن الرطن، ويتحركن في دلال، وقال متابعاً كلامه: وأدخلنا السرور كذلك على هـ (المزامين) جمع مدموزيل ـ فابتسم عبدالله، وقال مدارياً فصل السخرية: إن النساء هنا يحببن العرب.. ورطن مع مجموعة من الإناث... فقلن مرة واحدة: (أوه)، وأتبعنها بضحكة مدوية، وركزن أنظارهُنَّ على سويلم الذي أخذ يتفادى سهام إبليس، ومن وراء البحار، ومن خلف الجدران بدت أم سليمان من وراء ستار البيت تحذره وتنذره، فذاب سحر العطور، وموجات الصدور وتكسرت سهام إبليس، وهُزِمَتْ أجناده المتجمعة على الباب، وأحس سويلم بالوعي، وبالقدرة على التفكير، والارتفاع فوق سفاسف هؤلاء الناس الذين ظهر أنهم جميعاً دونه حكمة وفهماً: لقد أحس سويلم بوجوده، فقال ساخراً... ليش هالحلوات ما يتزوجن؟... الله يرزقهن بابن الحلال.. فترجم عبدالله كلامه، فضحكن مرة أخرى، وقالت واحدة مرة أخرى: إننا لم نجده، على الرغم من أننا نفتش عنه ليلا نهارا، فضحك سويلم، وقال ساخراً.... وكيف يمكن أن تجده البنات الحلوات، وهن يعملن أجيرات مع الرجال داخل الجدران؟ من يرضى لنفسه أن يتزوج واحدة منهن على الرغم من جمالها مادمن أمينات سر للمستر؟ وأشار إلى المضيف.. فارتبك عبد الله، وأحس بالحرج، فلطَّف كلام صاحبه.. وقال له إنك تريد أن تطفش البنات من عند مديرنا يا شيخ سويلم، تريد أن تدك إسفينا في الشركة، فارتج على سويلم، ولم يحر جواباً... هل جاء ليخرب على الناس؟ لا... ما كان لك يا سويلم أن تتمادى في الحديث إلى هذه الدرجة... وتذكر كلام

الشاعر البدوي:

(لـــنّــك لفـيت ديار من غير أدِلّـــة حِرْصَـك تلجّ القـول مع كل هابي)

فسكت، ووجـه بصره إلى الجدران لينشغل بها عن الاشتراك مع القوم، ويحاول تغيير مجرى الحديث،كانت عليها لوحات رائعة فيها صور لنساء ورجال، وصور أخرى بها خطوط ونقاط سوداء لا بد أنها خرائط كتلك التي يهتدي بها السواح في بلاده إلى الآثار، ويتعرفون على المواقع، ولم لا يكـون سائحاً في هذه البلاد؟ فأشار إلى عبدالله: أليست هذه خريطة بلادكم يا عبـدالله؟ قال: نعم. قال أين نحن يا صديقي؟ فانتهت المجـادلة مع الإناث، واعتدل المستر على كرسيه، والتفت إلى الخريطة، وسكتت الإناث، بل واستدرن جميعاً كل واحدة إلى كرسيها، ولتمضي فيما هي فيه من عمل، وأعجب عبدالله بما لم يعجب من قبل بأسلوب صديقه هذا الأعرابي للتخلص من هذا المأزق، وتغييره لمجرى الحديث، واضطر إلى أن يقف، وأن يشير إلى نقطة كبيرة تتوسطه شبه دائـرة يحيط بها خط أسـود سميك، واستـطاع سويلم أن يتـابع شرح عبدالله وهو جالس في ثقة واطمئنان هذه هي سيونيخ، وهذه هي مقاطعة بافاريا، وهو يمر بالمسطرة على الخط الأسود المحيط، ثم نقل المسطرة إلى خط أكـبر، وهـذه هي حدود ألمـانيا الاتحادية، وهنا عاصمتها، ونقل مسـطرته إلى نقطة سوداء إلى فوق، وهذه هي هامبورغ مقر شركتنا، وحيث ستسافر مساء، وهنا برلين، حيث سنمر بها بعد ذلك لنفتش فرع الشركـة هنـاك وتـزورها، ثم مر بالمسطرةعلى خط متعرج آخر، وهذه القـطعة الكبيرة أخذها الروس منا، وتعيش تحت حكمهم، ويدعونها

ألمانيا الشرقية، ثم انتقل بمسطرته فجأة بعيداً إلى الغرب، وقريباً من النقطة السوداء حيث يوجدون . . . قائلاً، وهذه هي باريس . . . حيث ستمضي وقت طيباً . . . واحمرت أوداج عبدالله وهو يقول لصاحبه . . . آه يا سويلم ما أحلى ليالي باريس . . ثم وقفت المسطرة عن الحركة ليقول: ثم سنرى بعد ذلك إلى أين نذهب . . . فتنهد سويلم وهو يتابع هذه الرحلة الطويلة وقال لصاحبه: قل: إن شاء الله، فأنصت الرجل هنيهة، وكأنه يفتش عن جذور هذه الكلمة، وقال بصورة آلية: (إن شاء الله).

(٢١)

لقد قال سويلم كلمته (إن شاء الله) في بساطة وعفوية بعيدة كل البعد عن ما دار في خاطر صديقه عبدالله قبل أن يؤمّن على هذه الكلمة، ذلك لأن معاني كلمة (إن شاء الله) بدأت تتلاشى في قواميس الغرب، إن لم تكن قد تلاشت واندثرت مع الكلمات البائدة، وما دام التوقيت صحيحاً، والآلة سليمة، ما دامت سرعة الطائرة معروفة، ومحركاتها شغالة، وتوقيت إقلاعها وهبوطها محدداً، فلا مكان إذن ل(إن شاء الله)،ليصل سويلم وصاحبه إلى هامبورغ، ومن بعدها إلى برلين، ثم إلى باريس، ثم يرسمان من بعدها خط سيرهما إذا شاءا إلى روما، أو لندن . . . ولقد كانت الكلمة على طرف لسان سويلم لم يفكر حين قالها، ولم يضرب أخماساً في أسداس. إنه لا يعرف دقة الآلة، ولم يلمس عظمة الصناعة، ولا جبروت العقل البشري الذي بدأت مخلوقاته ترود السموات، وتحفر الأعماق، وتكتشف المجاهل الدقيقة في قطرة الدم، وتجعل من الفحم ملابس ثمينة فذة، ومن الخشب خبزاً طرياً،إن سويلم

لا يعرف كل ذلك، فلا يزال عقله مربوطاً بالقوة المجهولة التي تخضع لمشيئتها في اعتقاده كل الأشياء. . . تلك هي عقلية الشرق المتشابكة جذورها مع الغيبيات، والتي تتجاوز دائماً البحث في المعروف إلى المجهول، والتي ترفض كشف الطبيعة لتنطلق إلى ما وراءها. . . ولكن عبدالله الذي طاف بالشرق تجر تفكيره العدوى، فيدخل في الاحتمالات، فلربما تعطلت الطائرة، لربما وقفت محركاتها، لربما مرض أحدهما. . احتمالات لا يمكن إنكارها، ولا يمكن تجاهل تحكمها في خط سيرهما، بل وفي مصيرهما كذلك، احتمالات هي في ضمير الغيب، وربما كانت مربوطة بهذه القوة المهيمنة التي يؤمن بها سويلم وقومه، وحين وصل التفكير بعبدالله إلى هنا. . . . كرر بصورة تلقائية كلمة سويلم: (إن شاء الله).

وبدأ عبدالله يتحدث طويلاً مع (المستر)، أدرك سويلم أنهما إنما يتحدثان في العمل، وكانا بين الحين والحين يطالعان سوياً حزمة من الأوراق، ثم خرجا بعد أن طلب عبدالله من سويلم أن ينتظر، وغاب طويلا، وأحس سويلم بأظافر الجوع تقرص أمعاءه، فتململ عن غير قصد، فوقع نظره على أكثر من أنثى. . . وكانت عيونهن تفتش عن عينيه بجرأة، ودون استحياء، ودون مبالاة حوّل بصره إلى الخارطة، ليتابع خط رحلة المستقبل، وليتمتم في دعوات تاركاً العيون ترعى تقاطيع وجهه، وتستطعم بشرته، وتعيث في جسمه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبين الحين والحين تحدث واحدة الأخرى في صوت موسيقي على الرغم من عجمته استطاع أن يلتقط كلمة كثيراً ما تكررت بين أصوات المتحدثات، كانت كلمة (أرابش)، ولقد تحيّر سويلم في سبب تكرار

تلك الكلمة، ولقد حاول أن يهرب بسمعه كما هرب ببصره، ولكنه لم يستطع حتى إذا عاد عبدالله سأله ودون مقدمات: ما معنى أرابش؟ فضحك عبدالله، وقال: معناها عربي، فغلى الدم في رأس سويلم، هل العربي عندكم رابش؟ فذهل عبدالله الذي يعرف الإنجليزية، وقال: لا يا صديقي، وجعل يفسر لسويلم الفرق بين صيغ الإنجليزية، واللغة الألمانية، فسرى عنه بعد أن صدق أن العربي ليس هو الرابش المعروف عندهم، وأحس سويلم بالندم الشديد، إذ لا يعرف لغة القوم، فهو كالأطرش بينهم يستطيعون أن يسخروا منه... ترى ماذا يقولون عنه؟ لو يعرف ما يقولون إذن لعرف الكثير، إن رحلته لا قيمة لها، ما دام هذا البرزخ الكبير يفصل بينه وبين الناس، ويا ليت عبدالله يعلمني، لكنت قد كفيته مؤونة الترجمة، فقال له حين عاد مع صاحبه: لقد تركتني أستمع إلى «المزامير»، فلا أفهم، ولا أستطيع أن أرد جواباً كالبعير، يا صديقي لا بد لك أن تعلمني لسانكم حتى أفهم من الناس، ويفهمون مني.. قال عبدالله: يا مرحبا بك، حضر نفسك لأول درس بعد أن نتناول الغداء... ومع ذكر الغداء تحركت أمعاء سويلم مرة أخرى، وتذكر أنه لم يذق شيئاً عند المستر، ولم يمالح صاحب عبدالله، ولم يمرر ريقه بفنجان قهوة، فرد ذلك إلى الغداء، وأن المحلي لم يشأ أن يصدم شهيتهم بأي شيء، ليلتهموا من الطعام أكبر كمية ممكنة

وحين وقف عبدالله، وقف المستر وتبعه سويلم، ووقفت النسوة تودعهم، أو تودع سويلم على وجه التحديد؛ لأنهن كن يخصصنه بالنظرة والابتسامة، ولقد تطوعت واحدة في طريقه لتمد إليه يدها، كانت بيضاء كالزبدة، ناعمة كالحرير، لينة كورق الموز، ولقد أحس سويلم وهو يشد

على الكف الممدودة، كأنها ذابت في يده، أو تحطمت عظامها. . . فسحب يده بسرعة، وألقى ببصره إلى ظهر المستر لا يحيد عنه، حتى خرج من الباب، فتنفس نفساً عميقاً، وكأنما ألقى عن كاهله حملاً ثقيلاً، أو كأنما هو طالب ألقى ورقة الامتحان بعد أن أبدع في الإجابة.

وحين وقف الثلاثة على الباب كانت سيارة المستر على الباب، اندسوا ثلاثتهم في المقعد الخلفي، وانطلق السائق من خلال جبال العمارات. . وقد بدأ سويلم يعد نفسه للامتحان الجديد، كيف يقدم المحلي الطعام؟ كيف يأكلون في بيوتهم؟ . . هل تشارك النساء الرجال على الموائد؟ . . . عشرات الاسئلة حاول سويلم أن يجيب عليها ، أو يتصور وجودها، ويعد نفسه لمواجهتها . . . ولكن السيارة وقفت، وخرج سويلم مع الرجلين ليجد نفسه أمام مفاجأة لم تخطر له على بال.

(٢٢)

كانت المفاجأة التي تنتظر سويلم تختلف عن غيرها من المفاجآت، فلقد كان متحفز الأعصاب ينتظر بداية التجربة الجديدة التي ستواجهه بدعوة (المستر) إلى بيته، وكان يرسم في مخيلته أوضاعاً وهمية لتقديم الطعام، ويهيء نفسه للانسجام مع القوم باعتباره ضيف الشرف، أو هكذا يظن نفسه، ولكنه فوجيء بالسيارة تقف أمام مكان دخله من قبل، الخدم والأنثى التي ألبسته المعطف وتلك التي تحرس المفاتيح وقفت أمام الفندق وتقدم المستر وخلع معطفه، وناوله إلى فتاة ندية الصباح وعلقته بدورها على شعب حديدية قريبة منها، وتقدم عبدالله. . . وكأي إفرنجي عريق، انسل سويلم من معطفه، وقدمه مقلداً القوم، وناوله

للأنثى . . . وهو ما زال تحت تأثير المفاجأة، فما كان يخطر له على بال، أن صديقاً عزيزاً يقدم عليه صديقه من وراء البحار، ولا يولم له، فبالأحرى أن لا يخطر له على بال أن يكون المقيم ضيفاً على الضيف، وأول ما تبادر إلى ذهنه أن المستر يملك هذا الفندق، وبذلك لن يخسر عبدالله شيئاً، وعندما وصل تفكيره إلى هذه النقطة وجد منفذاً للرجل، فهو إنما يعزم في محله، على الرغم من أنها (مش مجروعة) حين يقدم الواجب هكذا في وسط الناس، الكل ينهش من صحنه على حدة.

كان عبدالله واقفاً ينتظر سويلم، وكانت الخادمات ينحنين إجلالاً لهذا الأمير الشرقي، وكان «المستر» يتقدم بخطوات بطيئة إلى ساحة الطعام، حيث يتحلق الناس من فوق الكراسي حول الموائد، ووضع يده على كتف سويلم، وهو يهلي ويرحب مقلداً البدو حين يقدم عليهم الضيف، ولكن سويلم التفت إليه مازحاً (أنا وأنت ضيوف على صاحبك اليوم، الله يخلف عليه، ويظهر أنه يملك هذا الفندق، وربنا يوسع عليه) . . . فابتسم عبدالله، وقال بدهشة: يملك هذا الفندق؟ لا ياسويلم إن ثروته لم تصل إلى هذا الحد، ولكن ما الذي جعلك تظن ذلك؟ قال: لا تؤاخذني ظننت أولاً أننا ذاهبون إلى بيته ليقدم لك الواجب، وحين رجعنا إلى الفندق تصورت أنه يملكه، ليستقبل الضيوف فيه، فابتسم عبدالله مرة أخرى من الدائرة التي يدور فيها عقل سويلم والتي لا تتجاوز القرى،والضيوف، والأصول، والعادات في هذه المواضيع الثانوية، وقال مبرراً سلوك صاحبه: لقد أخطأنا كثيراً إذ لم نخبره سلفاً بحضورنا ليتمكن الرجل من تهيئة نفسه، فابتسم سويلم في

وجه صاحبه، وهو يقول: أنتم كل شيء عندكم بميعاد، حتى حضور الضيوف أنتم ناس أصحـاب مشـاغـل كان الله في عونكم.. فأمن عبـدالله على كلامـه، وقال: ولما كانت هناك بعض الأمور نحب أن نستكمل الحديث فيها، فقد دعوناه ليتغدى معك.... !

لقد بدأ الامر معكوساً تماماً، على الرغم من تبريرات عبدالله، وبدأ على سويلم أنه لا يستطيع فهم القوم، وآثر أن يصمت دون تعليق، وهو يتذكر أنه لا يمكن أن يحدث هذا إلا مع ملة واحدة هي النُّور، ولكن سويلم تذكر أن مثل هذا الأمر يفرض شبه غرامة أو جزاء لتأكيد عدم المضاربة بين قوافل «النُّور»، وليس شيئاً عادياً كما حدث الآن فإذا قدر لقـافلة من «النُّور» أن تمر بعرب، وجدت بجوارها مجموعة أخرى من النُّور، فإذا المجموعة الأخرى تطالب القادمين بالقرى، لأنهم إنما جاؤوا هكـذا ينـازعـونهم على لقمـة الخبـز التي يطلبونها من الناس المقيمين عندهم، وبذلك لا يمكن أن ترى إلا في القليل النادر، أن مخيماً من هؤلاء القوم يجاور في ناحية، ويأتي رحالة آخرون من قومهم يضاربونهم في صنعة الطرب، (والتلقيح) على عباد الله !

ووصـل سويلم وصـاحبه إلى طاولة جانبية واسعة كان المستر قد استقر بجانبها، وجلس عبدالله، وفسح المجال لسويلم أن يدخل بينهما بحيث يواجهـون الصـالة جميعاً.... ورطن الرجلان، وجاءت أنثى فارعـة الـطول والتفت عبدالله إلى سويلم: هل تحب أن تشرب شيئاً خفيفاً، قال سويلم: أحب أن اشرب شاياً، فابتسم عبدالله، وقال: هنا في هذه البلاد لايقدمون الشاي قبل الغداء... قال سويلم: ... وهل يقدمون ماء إذن؟ قال عبدالله: لا ولكنهم يقدمون أشياء تفتح

الشهية، المشروبات بأنواعها، وأردف: تأخذ شيئاً خفيفاً: قال سويلم... خفيف؟.. وهل المشروبات ثقيلة؟ قال عبدالله: ثقيلة على الرأس والمعدة أفضل تأخذ كأس بيرة.. هذه مصنوعة من الشعير... وهنا تذكر سويلم حقول الشعير في بلاده في «بئر السبع»، فتنهد إذن نشرب بيرة... وبعد لحظات عادت الأنثى الفارعة الطول بمجموعة من الكؤوس وزجاجتين... فذهل سويلم من المفاجأة، لقد ظن كل شيء إلا أن تكون البيرة مصنوعة من الشعير في زجاجة من تلك التي حذروه منها، وبدأ يتسرب إليه الشك في أن عبدالله وصاحبه أراد أن يتفرجا على هذا البدوي حين يفقد عقله، فجاؤوه بهذه الخمرة، وتصور أن هذه الرغوة البيضاء على الكأس إنما هو مجموعة من البصاق تتجمد على وجهه، وتصور أنه فقد عقله فِعْلاً، فاستعاذ بالله من الشيطان وهو ينظر إلى الكأس كأنه من السم، وحين بدأ يحثه عبدالله على الشرب قال له في شبه همس: أنت تعرف أن عندي نصف عقل، وهذا الكأس كفيل به، وأنت تعرف أنني لا أشرب من (القزاين) الله يطول عمرك... فأسقط في يد عبدالله، وجعل يؤكد له أنها شراب بريء.. ولكن سويلم ظل على إصراره لم يلتفت إلى الساقية التي كانت تبتسم، وتلح بهذا الابتسام أن يذوق شرابها، لم يلتفت إليها، وإنما ألقى ببصره بعيداً عن عبدالله والمستر والساقية، كأنما ليقطع عليهم المضي في هذا الإلحاح... فوقع نظره على رجل وامرأة يتصرفان بصورة جعلت الدم يغلي في عروقه...

(٢٣)

كانا اثنين،رجلاً وامرأة يجلسان قبالة بعضهما البعض وبينهما ثلاثة صحون، وقد وضع كل منهما مرفقة على الطاولة، وتقدم برأسه إلى الامام، وقد ركز نظره في وجه صاحبه: العين في العين، والشفة قبالة الشفة، والأرجل من الأسفل... وفي هدوء يأخذ كل منهما شيئاً صغيراً من الصحون بأسنان الشوكة، ويسوقه في أناة إلى فم الآخر، فيتناوله في قبلة طويلة حالمة...

لقد أدار سويلم عينيه في أركان الصالة، كانت مملوءة وبين الحين والآخر يعلو الصوت، فينبه أصحاب الموائد المجاورة، فيلتفتون قليلاً، فيختفي الصوت تدريجياً، ثم يموت... ولكن حركة الخدم، وحركة الأنثى الطويلة الساقية لا تقعد ولا تهدأ، تهرول من هذه المائدة إلى تلك، ولا تبتسم إلى زبون إلا لتحيي زبوناً آخر بأهداب رموشها الطويلة السوداء.. والمستر يرفع الكأس في لذة، ثم يمتص منه رشفة، ثم يضعه أمامه.. يمثل معه دور العاشق، وزبد كأس البيرة يصفو قليلاً قليلاً، ليستقر في الكأس شراباً زيتياً، وعبدالله يواصل الاعتذار والتأكيد بأن هذا الشراب الزيتي الأصفر الكريه، هو لذة للشاربين، لا يسكر ولا يذهب العقل.

فتبسم سويلم في سخرية: وأسند ظهره إلى الكرسي، ووضع رجلاً على رجل وهو يقول تهناً يا صديقي، اشرب... المثل يقول عندنا: (كل واشرب ما يعجبك)، والبس ما يعجب الناس. إن نفسي تعاف الماء أحيانا، وخلف الله عليك... فتنهد عبدالله الألماني في يأس وهو يراجع كلام سويلم، ويقول صدقت.

ولكن سخرية سويلم ودهشته، كانت أعمق من انعكاسات محاورته مع صديقه الألماني حول كأس البيرة، كانت دهشته تتسع وتترسب في أعماق نفسه، كلما رأى هذه الصورة المفضوحة على الطاولة المجاورة، ولا يرى أنها لفتت نظر صديقه، ولا نظر المستر، ولا أنظار هؤلاء الناس الكثيرين الذين تعلو أصواتهم حيناً، وحيناً تموت، ويبدو أن الشاب الذي يخرج من عنده الشراب والطعام، ويلبس ملابس (التمرجية)، يبدو أنه قد انتعش، وزاد سروره حين وقف نظره عندهما، فانبعثت من عنده ضربات موسيقية طويلة برنات كقفزات الغزال أمام رفيقها في أيام الربيع الندية الخضراء، أما الساقية، فكانت تتخطاهما ذات اليمين، وذات الشمال، كأنما تفكر أن لا تقطع عليهم هذا الحلم، أو تفسد عليهم هذه العبادة.

أي شيء هؤلاء القوم؟ ألا يلفت نظرهم هذا العشق العاري على موائد الطعام؟ ألا يحسون بهذا الغزل السمج المكشوف؟ وماذا يفعلون في بيوتهم حين يغلقون وراءهم الأبواب؟ مئات الأسئلة والاجوبة تذهب وتجيء في فكر سويلم... حتى عبدالله ينقل بصره عن هذا الزوج، ولا يستقر عليهما.

لقد أحَسّ أن شيئاً مختلفاً تماماً يسيطر على الناس في هذه البلاد؛ بالنسبة للضيف، وبالنسبة لعلاقة الأنثى والذكر، إنهم قد لايعرفون أمر الله بإكرام الضيف، لأن الضيف ضيف الله، وقد لا يعرفون أوامر الله فيما يتعلق بالرجل والمرأة، وأنه تعالى أمر بالستر، وتخيل سويلم أنه دس لقمة من الخبز في شدق أم سليمان، فتولاه ضحك مفاجيء، أخذ يداريه

بكحة مكشوفة، ثم التفت إلى عبدالله وقال: . . . بلادكم حلوة يا عبدالله. . . خضراء، ثم ضحك. . . ونساؤكم (زينات) وكريمات، كلهن متعلمات وموظفات. . . ثم أخذ يهذي بكلام لا معنى له وهو يضحك، ويقارن بين قصص العشق في بلاده، وبين عمليات الحب هنا، فيخرج بمقارنة مضحكة، وهو يرى الأرجل متشابكة، والعيون متعانقة، وأفواه تتبادل فتات الطعام في قبل مكشوفة. . . - يرى كل ذلك، ويتذكر كيف يخاطب الراعي ناقته، أو رعيته من الغنم، وهو إنما يعني رفيقته، وكيف يستحي أن يذكر اسمها بين الأسماء، حرصاً عليه، وحياء منها. . . ومن أهله وأصحابه، فإذا زفت إليه، وجاء إليها، ضم أحدهما الآخر بشحنة هائلة من الشوق العنيف، تظل آثاره إلى أن يختفي كل منهما في قبره. . . وتنهد سويلم، تنهد لأنه يرى عملية الحب مكشوفة، ويرى البخل له أسبابه وأسانيده. . ترى أي شيء يمكن أن يكون جميلاً لذيذ الطعم من عادات القوم وأخلاقهم ؟

لم يجب سويلم طبعاً على هذا السؤال، ولم يحس بعظمة القوم، وقوة طاقاتهم لقد فاجأته الطائرة بعظمتها تجوب السماوات، وفاجأته الفخامة في المطارات، وأحس بذهول عندما رأى العمارات، غير أن هذه الفخامة والعظمة، غير ان هذه القوة الهائلة التي تخلق الطائرات، وتصنع المطارات، وتبني العمارات، لم يستقر أثرها طويلاً في نفس سويلم، لقد أذهلته ثم نسي أثرها، نسي الآن أنه يقيم في فندق فخم، لقد أصبح يتصرف فوق المائدة، وينظر إلى الصالة، ويتطلع من بعيد إلى الخدم، وكأنه ألف هذه الأشياء الفخمة، كأنها من صنع يده، أو كأنها ميراث تركه له أجداده،لم يسأل نفسه كيف صنعت الطائرة، ولم يكرر هذا

السؤال عن الضخامة والفخامة فيما رأى من حوله . . . إن شيئاً واحداً هو الذي ظل يحوم في فكره هو الذي ظل يثير دهشة مزمنة لا أول لها ولا آخر لقد كان هذا الشيء يتعلق بتصرفات القوم، بعلاقاتهم مع بعضهم البعض ذكوراً وإناثاً، وهو في حيرته، وهو في تساؤله مع نفسه، جاء شاب يسوق أمامه ما يشبه «الكارة» عليها ألوان الطعام، وتهيأ عبدالله، وتحلب ريق سويلم، وكرع المستر ما تبقى من كأسه مرة واحدة . . .

(٢٤)

لقد آن لسويلم أن يجوع، خصوصاً وأن ما تناوله من الطعام لا يسمن، ولا يغني من جوع . . لقد وصلت الطاولة واستدار صاحبها من حولها وبدأ يفرق الصحون أمام سويلم، وعبدالله، والمستر مجموعة من الصحون بعضها فوق بعض، ثم وضع على جانبي الصحن، ومن خلفه مجموعة من الملاعق والسكاكين (والمذاري) أو (الشوك)، ولقد بدأت متاعب سويلم، متاعب جف معها لعابه، وأوشكت نفسه معها أن تعاف الطعام، فلماذا هذه الصحون بعضها فوق بعض؟ وكيف يجب أن يتصرف ولكن هون عليه أن المستر لم يلق بالاً إلى ألوان الطعام، ويبدو أن عبدالله قد داخ كذلك مما بلع من تلك القزايز، ولقد وقف الجرسون وقفة تعني أنه يستوحي أصحاب الشأن، من يكون ضيف الشرف، وسكت سويلم ينتظر الخطوة الثانية، ولكن عبدالله أومأ ناحيته، فهب الجرسون بقدر خزفي صغير فيه مغرفة، وانحنى أمام سويلم وهو يحملها، وبالطبع لم يحرك سويلم ساكناً حتى إذا فات (وقت العزومة) كما يقول البدو تطوع (المحلي)، وأخذ يفرغ في صحن سويلم من تلك العصيدة المائعة، ثم أفرغ للمستر، وأنهى الدورة بصحنه، وأومأ إلى

سويلم أن تفضل، وشاهد سويلم المستر يتناول بصورة آلية المعلقة المعروشة أمام الصحن، وجعل يلهط في صمت، وتناول سويلم ملعقته مقلداً، وأخذ يتذوق ما في صحنه كانت العصيدة مزة، لم يرتح سويلم لطعمها، ولكنه رشف منها قليلاً، ثم طرأ بباله أن هذه العصيدة ربما كانت مرقة خنزير. . . وأحس وكأنه على وشك أن يتقيأ فالتفت إلى المائدة، فرأى كتلة من اللحم، لها أطراف وهو يعرف أن الخنزير أكبر منها، ولكنه قال في نفسه؛ ربما كان هذا النوع من الخنازير الصغيرة، فالتفت إلى عبدالله، ولكي يتأكد أنه ما زال متمتعاً بسلامة العقل، قال له: كيف الحال؟ فقال عبدالله بخير كيف هذه الشوربة؟ قال سويلم: لا بأس بها يا صديقي، ولكنك تعرف أن معدة البدوي لا يلائمها هذا الطعام كثيراً، خصوصاً إذا كان لحم خنزير، أو مرقة خنزير، فانتفض عبدالله، وقد أدرك ما يدور في خلد سويلم، وقال له: أنا أعرف أنك لا تأكل الخنزير، لقد أوصيتهم أن لا يقدموه لنا، كل يا سويلم هذه شوربة مغذية، وأشار إلى المائدة، لقد أوصينا بأن يجهزوا لنا (بطة)، فالتفت سويلم إلى حيث أشار إلى قطعة اللحم ذات الأطراف، فأدرك فعلاً أنها أقرب أن تكون بطة من أن تكون خنزيراً صغيراً، فأحس بشهية جديدة إلى الطعام، فانكب على صحنه، حتى جفف آخر قطرة فيه، والتهم قطعتي الخبز التي وضعها الجرسون في صحن صغير إلى جانبه وقد ازداد جوعاً. . . ووقف في انتظار الخطوة الثانية، وفي لمحة جاء الجرسون مرة أخرى، وتناول الصحن الفارغ وملعقته من أمام سويلم وبقية الصحن، وبدأ الصحن الآخر يلمع، ثم تناول من على المائدة الكبيرة (الجاط) الذي تتمركز فيه البطة، فبدت من قريب على الرغم من

احتفاظها بشكلها ممزقة الأوصال، ووقف الوقفة القديمة، وقد قربها إلى ضيف الشرف.. كان الموقف محرجاً حقاً، فما كان سويلم يدري ماذا يفعل لقد كان يعرف أن الطعام يقدم للضيف الذي يأكل كفايته، ويترك الفضلة، ولكن الرجل ما يزال واقفاً، ومرة أخرى تذكر عبدالله كيف كان سويلم يمزق أوصال الخروف بيده لهم على شاطىء البحر الميت، فتناول الشوكة الكبيرة، وتناول بها حاملاً صحن سويلم، ثم ثنى هذه المرة بصحنه، وترك البقية إلى المستر، ثم أسرع الجرسون بجاط آخر، عرف سويلم منه البطاطس والبازيلا، كتلك التي تقدمها وكالة الغوث للاجئين، ووقف الجرسون وقفته الأولى، وهنا أدرك سويلم أن المطلوب أن يأخذ منها كفايته، فأخذ ما تيسر..

ثم جاء بجاط آخر لم يعرف سويلم محتوياته، فهز رأسه معتذراً عن أخذ حصته منه، وتطلع سويلم إلى مكان الخبز، فلم يجد شيئاً.. ولم يتصور أن هذا الطعام يمكن أن يؤكل بدون خبز، والتفت إلى رفيقيه، فوجد أن حصتهما من الخبز ما زالت على حالها، ولكنه لا يستطيع ذلك، فقال لعبدالله... (الطعام الخبز... يا محلي...)، فرطن عبدالله قليلاً، فجاء الجرسون برزمة لا بأس بها من هذه القطع الصغيرة...

كان عبدالله والمستر يلتهمان اللحم الطري، وبين الحين والحين يغمسانه من ذلك الشراب الحاد الرائحة، وبدأ سويلم يقلدهما ويأكل بشراهة وهو يقول في نفسه؛ لا يجب أن يستحي الرجل في هذه البلاد، وإذا كانت المرأة تدس اللقمة في فم الرجل أمام الناس، أتستحي يا سويلم من أن تضخم اللقمة وتدسها في فمك؟ ولقد أخذ فعلاً كفايته،

وخرج من هذه التجربة أكثر ثقة بنفسه، فأخذ يمزق اللحم بالسكين، ويملأ الشوكة في حذق شأن من نشأ على ذلك، وكان عبدالله يرقبه مبتسماً ومتعجباً في آن واحد، وقال له: طعامكم يا سويلم أحسن، قال له سويلم: وطعامكم أيضاً لذيذ يكثر الله خيرك... وما أسرع ما ينظف الجرسونات المآدب، وفي لحظة.. كانت الطاولة أمامهم كأن لم تكن عامرة بالبط والقزايز والكؤوس، وكان عبدالله يتطلع إلى ساعته.. لقد أزف موعد الرحيل إلى هامبورغ، ولكنه قبل أن يصعد سويلم لحزم أمتعته جاءه النبأ أن الجو قد عطل المطارات هنا وهناك ربما لساعة أو أكثر، وهنا تحرك المستر، وأدرك سويلم أنه كان يصر على عبدالله أن يبيت تلك الليلة، وقد ابتسم سويلم في سره وهو يقول: (ربما كان ذلك بفعل السكر)، ولكن الرجل نجح على أي حال بإقناع عبدالله بالمبيت بعد محاضرة طويلة، فألغى هذا الحجز بالطائرة إلى اليوم التالي، ليرى سويلم بعض الغرائب التي يقول إنها كانت أول معرفته الحقيقية بعادات القوم...

(٢٥)

قال عبدالله الألماني: وهكذا يا صديقي قُضيَ علينا أن نبيت مرة أخرى هنا بسبب الأحوال الجوية التي لم تيسر للخطوط الجوية الداخلية أن تنقل الركاب من هنا إلى هامبورغ... فقال سويلم ألم أقل لك؛ قل إن شاء الله؟ لأنك لا تستطيع أن تنقل قدماً إلا بإرادته قال عبدالله: صدقت، وهو يتعجب من إيمان الشرق المجبول في فطرة هذا البدوي،

والذي جاء تأخيرهم تصديقاً له، وكرر مرة أخرى: صدقت يا سويلم، وستسافر غداً إن شاء الله أما الليلة فأنت مدعو عند ـ (المستر) وما زال سويلم لا يذكر الاسم، ولا يعرف كيف ينطقه ـ لحضور أعظم فرقة في جنوب المانيا، وربما في ألمانيا كلها، والتي ستقدم ألعابها في مسرح العظماء هنا.

لقد كان الكلام غريباً حقاً على سويلم، وكلمة (فرقة) و«ألعابها»، و«مسرح العظماء» كلها كلمات لم تدخل معانيها الصحيحة في قاموس سويلم، فما علاقة اللعب بالفرقة التي يعرف سويلم أنها مجموعة من المحاربين، وما علاقتها باللعب، وما علاقة العظماء بالمسرح؟ قال سويلم: خير إن شاء الله.. الضيف أسير المحلي، ونحن الآن أسرى عند (المستر) يودينا حيث يشاء، فابتسم عبدالله وهو يترجم الكلام إلى زميله، وضحك الآخر الذي لا يرى في مثل هذا الكلام إلا لوناً من (حفلطات) الشرق المنافقة، قال سويلم: .. دخيلك إيش الفرقة التي سنقابلها فرقة جيش؟... قال عبدالله لا ياسويلم هي مجموعة من الأشخاص ذكوراً وإناثاً يقدمون غناءاً ورقصاً وألعاباً تسر الناظرين في مكان بهيج، ومطعم كبير يدعى مطعم العظماء؛ لأنه غال جداً، ولا يصل إليه إلا كل (زنقيل) ألا تذكر الأفراح عندكم يا سويلم؟ إنها مثلها تقريباً ليتسلى الناس من عناء التعب: يشربون، ويأكلون، ويتفرجون قال سويلم.. (آه)..

قال عبدالله: لنذهب نغتسل، ونغير ملابسنا، فارتبك سويلم قليلاً، وقال: إلى أين،ليس عندي ما أغيره،ولكن عبدالله أخذ بيده بعد أن ودع المستر إلى لقاء وقاده إلى تلك الزنزانة التي ترفعهم إلى الغرف،

وهذه الزنزانة تئن تحتهم، وعبدالله يذكره أن لا يخطىء مرة أخرى في غرفة أحد، فهذا الزر عندما تضغط عليه يرتفع المصعد إلى الطابق الذي توجد فيه غرفتك قال سويلم: لا تخف إن شاء الله ما تحدث مرة أخرى، وحين فتحت الزنزانة انطلق سويلم إلى باب غرفته، وبطقة من المفتاح دخل....

كانت الحقيبة على حالها، والسرير عاد مرتباً نظيفاً، وتطلع سويلم إلى الصندوق الأبيض «الثلاجة» وإلى الحمام ماذا يفعل الآن؟ وكيف يغير ملابسه؟ إنه لا يملك إلا هذه البدلة التي اشتراها له سعيد، والتي يحملها دائماً على جسمه... ولكنه على أي حال آثر أن يغتسل، فعلق المعطف ثم علق الجاكيتة على الشعب المثبتة إلى الحائط قبالة الحمام، ثم بدأ يحل الرسن الذي يزين به عنقه، بدأ يرخيه بعناية إلى أن استطاع أن يملص رأسه منه مبقياً العقدة كما هي لئلا يخطىء في تركيبها مرة أخرى، ثم حل قميصه، وسل ساقيه من بنطلونه، وتركهما على الكرسي قبالته، وتحرك أمام المرآة، وكأنه يريد أن يتأكد أنه لم يتغير من هذه الرحلة، وأن هذه القشور التي يلبسها لم تؤثر عليه، ثم عاد وخلع حذاءه... ثم عاد ولبسه، ليقضي حاجته، ويقرفص كالنسر فوق البالوعة الرخامية، ثم رمى بالحذاء بعيداً.. ودار إلى الحمام، وخلع ملابسه الداخلية حتى إذا أصبح عارياً تماماً تذكر أن الباب لا يزال مفتوحاً، وأن أحداً ربما دخل ورآه على هذه الصورة، يالللفضيحة... فلف عورته في القميص الداخلي، وقفز إلى الباب، وبحذر اختبأ وراء الباب، وأخرج يده إلى القفل من الخارج ليسحب المفتاح، ثم قفل الباب من الداخل حتى إذا أمن أنه في ستر تنفس الصعداء، وعاد إلى الحمام مرة أخرى كأن صحناً

واسعاً مربعاً . . . فمد يده إلى الحنفية يديرها كيفما اتفق، فإذا بها ماء مثلج . . . اقشعر له بدنه فأغلقها بسرعة، ثم عاد وحرك الحنفية الأخرى، فإذا بها نار تغلي . . فماذا يفعل؟ لقد فتح الحنفيتين معاً، وتربع في بركة من الماء فاترة مخدرة، وجعل يرش بدنه بسرعة، ويغسل أطرافه بالصابون، وما كان يخشى أن ينفذ الماء من هذه البلاد والمطر ما زال نازلاً من السماء في الخارج، فاطال المكوث في ذلك الصحن، ثم خرج، وهو يحس بخدر، وبارتخاء في مفاصله، وبرغبة في النوم . . وفعلاً اتكأ على السرير (فعسلت) عينيه، وأفاق على رنين متواصل، وما كان سويلم خفيف العقل حتى يهزه هذا الرنين، ولكن الرنين يشتد، فقام للباب يفتحه، فلم يجد أحداً . . ورن الجرس مرة أخرى كان واضحاً أن الصوت يصدر من الآلة الصهباء أمامه على مقربة من السرير، فلم يمد إليها يداً، وخيل إلى سويلم أنه لو مد يده لربما تحركت الغرفة، أو حدث ما كان أعظم . !

ولكن الرنين كان كافياً لأن يذهب النعاس من رأس سويلم، فيهب إلى ملابسه يتمنطق بها مرة أخرى، ويعود أفندياً كما كان ولم يكد يربط حذاءه إلا وقد سمع ضربات على الباب، لقد كان عبدالله، فأحس سويلم بالسرور، وكأنه جاء في أوانه قال له: لماذا لم ترد على التلفون،لقد أحببت أن اطمئن إلى أنك قد جهزت نفسك للخروج . . فتظاهر سويلم بأنه يعرف التلفون . . فقال: لقد شغلت باللبس . . . فقد عرف عبدالله أن صاحبه ربما لا يعرف أين التلفون، ولا كيف يجيب عليه، فأشار إلى تلك الآلة التي يختلف لونها عن لون التلفون الأسود والمشبوكة بشكل عمودي قرب السرير، وعلمه بصورة مؤدبة كيف يستعمل

التلفون، وهو الأداة الرئيسية للتخاطب في هذا البلد، لقد بدأ سويلم نشيطاً للغاية، وخرج مع صاحبه وهو يحس برغبة في المشي، وانحدر معه على الدرج، لم يستعملا تلك الزنزانة، وسويلم يتفرج في هذه الدنيا الفخمة، يقارن بين الطوابق والغرف، والخدم يمرون وينحنون احتراماً وهو يبتسم في وجوههم شأن العقلاء وكبار القلوب، وعلى الباب وجد السيارة فلف نفسه بالمعطف مقلداً عبدالله واندس في السيارة التي قادتهم إلى دنيا جديدة!

(٢٦)

وقد تحركت السيارة كأنما يريد سائقها أن يملأ نظره من حوله، وعلى الرغم من أن الليل أرخى سدوله، فإنه لم يضف جديداً إلى حلكة السماء، فقد كانت الغيوم طبقات بعضها فوق بعض، والناس يتحركون من تحتها على الأضواء القوية، وكأنهم في خيمة كبيرة سوداء.

ولم تمتد حركة السيارة طويلاً، فلقد لفت شارعاً، ومالت إلى فتحة فرعية، ووقفت بناء على طلب عبدالله بجانب سيارة عرف سويلم أنها سيارة المستر، وقال عبدالله: إن هذا هو بيته، وإذا بالمستر يخرج من الباب ومعه ثلاثة أشخاص يلفون أنفسهم في المعاطف، ويحزمون رؤوسهم بطواقي صوفية ضافية، فخرج عبدالله من السيارة، وبصورة آلية خرج سويلم، ووقف الثلاثة، وبدأ يسلم عليهم واحداً واحداً وينحني أمام كل يد كأنما يوشك أن يقبلها، والمستر يرطن بكلمات عند عملية المصافحة، واقترب سويلم ونظره متعلق بالمستر يحييه، ويبتسم له، فقد أصبح صديقاً قديماً، وانفلت عبدالله ليفسح المجال لصاحبه، وألقى

سويلم ببصره على وجوه الثلاثة، فتولاه شبه ذهول، لقد كانت وجوه نساء. . . !

لم يكن هناك فرق متميز في اللبس بين الرجال والنساء داخل المعاطف، وما كان سويلم يشك عندما خرج المستر وراء الثلاثة أنهم جميعاً من الرجال، أما الآن، وهذه الوجوه الثلاثة تتوهج كالجمر، أما الآن، وهذه العيون الواسعة تشعُّ أمواج الفتنة والسحر، أما الآن، وهذه الشفاه مصبوغة بدماء الغزلان، أما الآن، ورائحة نفاذة تنطلق من تحت المعاطف تبدو معها روائح المسك، والقيصوم، والشيح شيئاً بالياً لا أثر له. . . . أما الآن، فلم يبقَ عند سويلم ريب في أنهن من النساء.

وتقدم سويلم، ورطن عبدالله للنساء، ونطق اسمه، فتقدم للأولى مصافحاً رافع الرأس، مثبتاً رجليه في الأرض دون أن يقلد عبدالله في ذلة الانحناء، وما كان الرجل لينحني لمن هو أكبر وأعظم من المرأة، وعلى الرغم من المفاجأة المذهلة، فقد تماسك سويلم، كان يمد يده مستقيمة قوية ثابتة، ويقبض اليد الناعمة كاد أن يعجنها بين أصابعه، ويفتح عينيه كعيني الصقر يثبتها في عيون النساء، حتى تهرب هي، وتزوغ من المصارعة البصرية.

وكان عبدالله ينطق الأسماء لسويلم عند المصافحة. هذه الست (نيلي)، وهذه الست (لورا)، وهذه الست (ماريانا)، وكان عبدالله ينطق أشياء أخرى إلى جانب هذه الأسماء، ولكنها كلمات طويلة يتداخل فيها حرف الشين، والقاف، وغيرها، تماماً كاسم المستر الذي لم يستطع سويلم مجرد إعادة لفظه، ولكنه حفظ هذه الأسماء الخفيفة اللطيفة، وظل يحفظها، ويعيد ذكرها في كل مجلس حل فيه، وفعلاً لم يملك نفسه

إلا أن يعيدها مرة أخرى بعد المصافحة، فقد وقف وأشار على كل واحدة بأصبعه... نيلي... ولورا... وماريانا. وعندها انفجر الجميع ضاحكين، والنسوة يطلقن قهقهات كالأجراس، وهن يحطن بسويلم، ويرددن اسمه ليتبين أنهن قد حفظن الاسم أيضاً، وأخذ الجميع في الرطن، ولقد خيل لسويلم أن الكلام كان معظمه عنه، وربما كان عبدالله يحدثهن عنه، وعن تاريخ حياته، وقد تنفس سويلم الصعداء؛ لأنه لم يتذكر في حياته ما يشين، وبعد لحظات في هذا الجو المرح انفرد المستر بالست ماريانا، وفتح لها باب السيارة، وتقدم عبدالله بفتح السيارة الأخرى للست لورا، وعندها حدثت شبه مشادة أدرك سويلم أنها عن المكان الذي تركب فيه نيلي، فتطوع من نفسه ليقول لعبدالله أنا أركب إلى جانب السائق، ودع الستات يركبن إلى جانب بعضهن... كان المستر قد ولى مع ماريانا وحدها، فاستقرت نيلي إلى جانب السائق، وتوسطت لورا سويلم وعبدالله... ولقد كان امتحانا شاقاً جداً على سويلم أنه لم يجرب في حياته أن يجلس هكذا إلى جانب امرأة غريبة، لقد أحس بخدر تام في جنبه الذي يلاصقها، وعلى الرغم من أن رجلها كانت تدوس رجله على الرغم من ذلك، فقد شل جسم سويلم، وتبلدت مشاعره، وهام عقله يفتش عن أشياء أخرى غير السيارة، وغير عبدالله، وغير هذه الفتنة التي تتوسطهما... وعاد إلى اللحظة التي وقفت فيها السيارة أمام بيت المستر، وبجانب سيارته، والأشخاص الأربعة الذين خرجوا من الباب، وهبطوا الدرجات القليلة، ليلتقوا مع عبدالله وسويلم على البوابة التي تتعانق فوقها أشجار مائية رطبة... ووجوه الجمر الأحمر... وأحس سويلم أنه يثبت قدمه

في الأرض من جديد، ويعصر الأصابع الناعمة، ويكرر الأسماء من جديد: نيلي.. لورا... ماريانا... لقد انحنى المستر، وانفرد بماريانا في سيارته، وانحنى عبدالله... وبحركة غير عادية من السيارة اصطدمت القدم بالقدم، فانتفض سويلم، وأحس بشعور من داس على حية.. فانطلقت كلمة (يارب) من فيه مع زفرة طويلة...

وعاد سويلم بتفكيره يربط الأسباب ببعضها، وبداية الأمور بنهايتها، ويحاول أن يجد لكل ذلك تفسيراً يمكن أن يرضاه لنفسه.

لقد خرجت النسوة الثلاث مرة واحدة من بيت المستر هكذا كأن عنده مستودعاً من النساء ذات الوجوه النارية الحمراء، المصبوغة الشفاه بدماء الغزلان، والمستر يفتح الباب إلى ماريانا، يفتحه بخشوع واحترام لا حد له، وينحني هو وعبدالله احتراماً لهؤلاء النسوة. لماذا، وكيف؟... وكل هذا احترام للمرأة على الإطلاق أم للثلاث على وجه الخصوص؟ وهل يمكن أن يحترم المستر المرأة على هذه الصورة وعنده منهن عشرون خادمة على الأقل، أو موظفة كما يسمونها؟ والمستر أعزب، أزعر، لا أولاد له، وكذلك عبدالله، فلماذا لا يتزوجون الثلاثة؟ أو على الأقل كل يأخذ واحدة ما دام الواحد منهم يحترمهن إلى حد الانحناء الذي لا يجب إلا لله عز وجل.

ومرة أخرى اختلط الأمر على سويلم، ولم يستطع أن يجد تفسيراً يرضاه، فأخذ يردد كالعادة: عجيب أمر هؤلاء القوم.

(٢٧)

(عـجيب. . . .) كان كل ما انتهى إليه سويلم من تفسـيراتـه وتقديراته لتصرفات القوم، فقد كان الأمر أكثر من أن يحيط به عقله، أو أن يحلله على أساس تجاربه.لقد أحس سويلم بشعور مماثل تماماً لشعور رواد الحضارة العربية في مجاهل إفريقيا قبل قرون، وأحس برغبة شديدة إلى المعـرفـة، أي كشف هذه المجـاهل في أواسط أوروبا. . . وحرك ذراعه، فيصطدم كوعه بالصدر الناهد إلى جانبه، وقد بدا نافراً بعد أن ازاحت لورا من عليه أطراف المعطف، فأحس وكأنه قد أصيب بـ (هفة جن) أو كما يقال: بمس من الكهرباء، وحين ذهب تأثير (الهفة) أخذ سويلم يراجـع نفسه، ويحاول أن يتأقلم مع ما هو فيه، يحاول بعبارة أخرى أن يبلد إحساسه وأن ينسى أن بجانبه أنثى، وأنه ذكر، أن ينسى هذه الفروق الجنسية، ولقد تململ سويلم متعمداً، والتفتت له «لورا» بابتسـامة عريضة، فبادلها ابتسـامة جاحظة لا حياة فيها ولا جمال، وقال لعبـدالله: . . والله ليلة يا عبـدالله. . وضحك عبدالله. . . وأخذ يزين لسـويلم ماهم فيه صحبـة الأوانس (الحلوة)، فكـرر سويلـم: (آه. . . . الحلوة) والله حلوة خالص: . . فترجم عبدالله الكلام إلى «لورا» و«نيلي»، وكانتا تتابعان بشغف كل كلمة ينطق بها سويلم. . . . فامتلأت السيارة بالقهقهة الصارخة. . . حتى لقد التفت سويلم حواليه مذعوراً، ليتأكد أن أحداً من المارة لم يشاهد هذه الفضيحة. . . وعادت الفتاتان إلى القهقهة مع تأوهات عرف سويلم أنها للإعجاب المذهل، وكان السـائق صامتاً كالصخرة، وكأن ما يجري في سيارته لا يعنيه، وقد عجب سويلم من سكوت الرجل، فقال لعبدالله: صاحبنا. . . وأشار

إلى السائق من أين؟ فعرف سويلم أنه غريب وأن السيارة بالأجرة، فعجب سويلم وأحس بالخزي على حساب الجماعة أن تمارس قلة الحياء أمام هذا الرجل الغريب، ولكن أحداً لم يكن يحفل به، أو حتى يحدثه، وهو يسير بمهارة فائقة في ذيل سيارة (المستر)، ورمى سويلم بنظره إلى الأمام إلى السيارة التي يتبعونها، فرأى عجباً إن ماريانا قد مالت على المستر، وأسندت رأسها على كتفه حتى ظهرا وكأنهما جثة عريضة واحدة، فطارت البلادة مرة واحدة من تفكير سويلم. ماذا سيحدث لو مارست لورا هذه الحركة الفاجرة معه؟ وكركب سويلم الدنيا على رأسه، وخشي أن تزلق قدمه فيما حرم الله عليه، وندم سويلم على المجيء جملة واحدة، وتمنى أن يكون الآن في سريره في الفندق، ولكن «لورا» لم تفعلها، فبدت هواجس سويلم أضغاث أحلام، فسأل عبدالله منشرحاً: (طال المشوار...)، فقال عبدالله: لقد وصلنا...

وفعلاً دارت السيارة دورة طويلة، ووقفت، وكان المستر يشد ماريانا ليعينها على الوقوف وهي ترخي بنفسها عليه، ووضع يده على كتفيها كأنما ليحميها من المغيرين... وابتسم سويلم ابتسامة ساخرة صفراء وهو يتفلت من السيارة كأنما قطع حبلاً كان مربوطاً به، ونفض أطراف معطفه، وتطلع فيما حوله متجاهلاً «لورا» التي كانت قد انسلت لتسير إلى جانبه. فلما رأت أنه لا يلتفت على الرغم من أنها كررت أكثر من مرة (أو....) وهي الكلمة الوحيدة التي يمكن أن يفهمها هذا الشرقي، أسقط في يدها، والتفتت إلى عبدالله تحادثه، وهو قد شبك فعلا مع «نيلي» يعاونها في الخروج، ويمثل معها دور المستر، ولكن بأدب.. وكان سويلم واعياً تماماً بما يحدث أمامه، ويحاول أن يجد تفسيراً لكل الرطن

الذي يدور من وجوه القوم وحركاتهم، وقد أدرك سويلم أن «لورا» لا بد وأن تكون حصته في تمثيل الدور السمج الذي يبدأ بوضع رأس الأنثى على كتف الرجل وينتهي بوضع ذراع الرجل على كتف المرأة، أو حول خصرها ليسوقها إلى هذا الدهليز، ولكن سويلم آثر أن ينظر إليه القوم على أي صورة نظروا، وأن يفسروا تصرفاته التفسير الذي يشاؤون على أن يسقط هذه السقطة، وآثر أن يكون صلباً جامداً ليحافظ على شرفه وسمعته في بلاد الغربة، ومن يدري أن هؤلاء جميعاً إنما يمثلون دوراً معينا ليتخذوا منك يا سويلم سخرية ومضحكة، وأنت لا تعرف عادات القوم، ولا تعرف طريقة حياتهم؟ . . . . ومن يدري أنهم يريدون أن يسجلوا أن سويلم قد «لهط» من تلك الأواني الفخارية حتى امتلأ وحتى احمرَّ، فعل وفعل، وتصور سويلم أن ما قد يحدث الآن نُقِلَ إلى جماعته هناك، فأحس بهزة عنيفة، وقال في نفسه: الغريب لازم يكون أديب، وفي حدود هذا المثل انضم سويلم إلى عبدالله، «ونيلي» ودخلت «لورا» الحلقة، ومضوا الأربعة إلى بوابة بنية قائمة، على أطرافها قناديل معلقة، وعلى جانبيها رجلان يلبسان ملابس فضفاضة، ذكرت سويلم بملابس الشرق فيما وراء البحار، وانحنى الرجلان للمستر «ولورا»، ودق جرس تجاوب رنينه في الداخل، وكذلك أعادا هذه الانحناءة لبقية الجماعة، ورن الجرس مرة أخرى في الأرجاء الواسعة كان ينبه من بالداخل للضيوف الجدد، أو أنه نوع من مراسيم الاستقبال للعظماء الذين يرودون هذا الملهى المسمى باسمهم، كانت الدنيا تضيء بجميع الألوان في الممر الواسع، وكان الناس يدخلون من أبواب متفرقة، وأقبلت عليهم أنثى وضيئة الوجه، تنعكس الأنوار على وجهها، فتجعل منه

قوس قزح، وانحنت أمامهم، وقادتهم إلى ساحة واسعة، كانت تحيط بها أكداس لا حصر لها من المعاطف والقبعات المعلقة على الحائط، وأمام سويلم وصحبه مجموعات من الناس يخلعون قبعاتهم معاطفهم، ويسلمون هذه القبعات والمعاطف إلى فتيات في غاية النشاط، ويتسلمون مقابلها أوراقاً بيضاء، وضحك سويلم في سره وهو يردد مثلاً بدوياً: «لولا الورق والدفاتر راح مال الناس»، وأخذت الأنثى الوضيئة الوجه تعاون نيلي، ولورا، وماريانا في خلع المعاطف، وفي إحضار الإيصالات، وكذلك فقد تسلمت معطف سويلم الذي خلعه في تؤودة، وبدأ يحرك نفسه في البدلة، وكأنما يتحسس أطرافه، وحين ألقى ببصره إلى اليمين، ورأى حركاته في مرايا تعكس صورة كل من في مستودع المعاطف، وشعر سويلم أن حركاته في المرآة لا تتلائم مع الوقار المطلوب، فبدأ يراقب الوجوه الأخرى، وإذا بالعيون كلها مصوبة عليه، فانتفض سويلم هل فعل شيئاً أثار انتباه القوم؟ وأعاد النظر في المرآة، فالتفتت عينه بعيني «لورا»، كان شيئاً غير عادي في تلك النظرة، حاول سويلم أن يجد له تفسيراً، أن يقارنه بالنظرات الأخرى، فلم يجد له شبيهاً . . .

(٢٨)

لقد كان في تلك النظرات ـ نظرات لورا ـ أشياء تختلف عما في الأنظار المصوبة على وجهه الأسمر من خلال المرايا العاكسة، نظرات لم يتعود عليها سويلم، ولا يعرف أن المرأة يمكن أن تصوبها لرجل على هذا الشكل، ولقد كان سويلم هو الذي زاغ بعينيه تاركاً العيون النجل تفتش في الفراغ، وكان على سويلم أن يتحرى سر هذه النظرة التي لم يجد

لها تفسيراً في تلك اللحظة، وأن يتابع اللقاء معها في المرآة، ولكن عبدالله يناديه، وينادي «لورا»، فيتجمعون للدخول.

كان الممر واسعاً، ودخلوا إليه بعد أن تخطوا مستودع المعاطف، وهنا وهناك، كان سويلم يرى إحدى النساء تتناول بالمشط شعرها، وتحرك نفسها أمام المرايا المثبتة في الجدران، هكذا دون أن تلقي بالاً لمن يروح أو يغدو، ومشى سويلم بين المستر وعبدالله كلاهما يمسك بيده، وكان واضحاً عند سويلم أن هذا نوع من الاحترام باعتباره الضيف، ومشت أمامه نيلي ولورا وماريانا كانت النسوة قد خلعن المعاطف، فبدون شيئاً مختلفاً جداً، كان القماش الزاهي الذي لم ير سويلم له مثيلاً لاصقاً بأبدانهن، كان مشدوداً شَدّاً يبرز كل شيء كما خلقه الله، وكان كل شيء متناسقاً تناسقاً عجيباً في هذه الخلقة، كانت الثلاثة كأنهن واحدة، وثبت سويلم عينيه في قفا«لورا»، وكانت تموج بعضها في بعض كالسمكة في البحر، أو (كالملجة) في البر، وهي نوع من السحالي في البادية ـ ولم يملك سويلم إلا أن يردد في نفسه أكثر من مرة: (ياسبحان الله)، وأن يردد كذلك أكثر من مرة (أعوذ بالله)، كلما وقع نظره على حركة الأرداف المشدودة في الحرير أمامه، ولم تترك المفاجآت لسويلم وقتاً لمتابعة هذه الحركة، ولا لكشف حركات الشيطان من حولها، فقد انتهى الممر المفروش بشيء من الوبر إلى ساحة بسيطة هبّ إلى لقائهم عندها من يقودهم إلى دنيا مملوءة بالناس... وسويلم لا يذكر الآن كيف دلف لأول مرة في تلك الدنيا، وإنما يذكر أنه تجاهل كل شيء تجاهل الصفير والصراخ، وتجاهل الأنوار، وثبت عينه فقط في موطىء قدمه، وحصر تفكيره قبلها في حركة رجليه، لقد نسي حتى أرداف النسوة أمامه، والتي

كانت موضع تفكيره قبل لحظات، وكان الممر الذي اقتيدوا إليه ضيقاً، ويجتاز صفوفاً من الناس، فمشت «نيلي» في المقدمة، ومشى سويلم وراء عبدالله، وقد اعتراه شعور بأنه سيقع أو يتعثر فهو لهذا يوشك أن يتحسس بقدمه الأرض قبل أن يسنده عليها، وداروا دورة طويلة خالها سويلم دهراً، وإلى طاولة واسعة، يبدو أنها حُضرتْ سلفاً أشارت الدليلة للمجموعة، ومضت تفتش عن زبائن جدد بعد أن انحنت أمام سويلم انحناءة طويلة.

كانت الطاولة شبه مستديرة، وأشار عبدالله لسويلم أن يتفضل على مقعد في الصدر، وأشار إلى «نيلي» على يساره وإلى «لورا» على يمينه، وإلى «ماريانا» إلى جانب «لورا» وأخذ هو والمستر مقاعد الأطراف: هو إلى جانب «ماريانا» والمستر إلى جانب «نيلي»، والحق أن سويلم قد جرب في اليومين الماضيين ما يوازي علم الشهور والسنين، ولكنه كان دائماً على الحافة، كان باب الهرب مفتوحاً أمامه، سواء كان هذا الهروب من مجرد الحديث، أو من التصرفات، ولكنه الآن ولأول مرة يحس أن صديقه عبدالله، صديقه الذي جاء به إلى هذه الديار، صديقه الذي يأتمنه ويعرفه قبل عشرين عاماً، هذا الصديق الذي لا يستطيع أن يتحرك في هذه المجاهل دون مساعدته، قد أصبح بعيداً، بعيداً جداً، يفصله عنه سد مؤلف من جوزين من الأفخاذ والصدور التي أخذت تتألق كقمم الثلج تحت أشعة الشمس، وباب الانفلات مسدود تماماً، تسده نيلي، ومن ورائها المستر، لقد تمنى سويلم أن يكون صاحب مقعد المستر أو مقعد عبدالله!!.. إذن لاستطاع أن يتزحزح، وعند اللزوم يستطيع أن يجد طريقه إلى الممر الخارجي، والطاولة أمامه، وطبقة كثيفة من الناس

من خلفه، لقد أحس سويلم وكان عبدالله يتآمر عليه ليحرجه، وليدخله هذا المدخل الذي لا مخرج منه، ربما ليجربه ليمتحن قدرته على التصرف في مثل هذه الوقعة التي يعرف عبدالله أن سويلم لم يقع في مثلها عمره، ومن يدري؟ ربما كان هذا زيادة في تكريمه، وتعبيراً عن الحفاوة به، وأيّاً ما كان هدف عبدالله من المقلب الذي دبره لسويلم، فإن تدبيره جاء في الصميم، وشعر سويلم لأول مرة أنه لا يستطيع أن يفكر، وأحس بسعة صدره تضيق، وبقلبه الكبير يتحول إلى قطعة صغيرة متحجرة، وأحس بالعرق يتصبب من جسده، وبتيبس في أطرافه لدرجة لم يحس معها حركة الأفخاذ، والسيقان، والأقدام التي تحتك، وتصطدم بقدمه عن عمد، وسبق إصرار، وكذلك لم ينتبه إلى سؤال عبدالله، ولا إلى الأنثى التي جاءت تنحني أمامه إلا بكلمة: (هاه) تماماً كما يفعل البدوي حين يريد أن يتغابى لغرض في نفسه، ليتجاهل، أو يدعي الصمم...

كان الوقت عشاء، وكان المفروض أن يتناول الصحب عشاءهم في هذا المكان، والمفروض أيضاً أن يتناولوا الشراب قبل أن يلتهموا الدسم، وعلى هذا، فقد سأل عبدالله سويلم.. ماذا تشرب؟ وقد كان سويلم، وإلى دقائق مضت يحس برغبة في الأكل، ويحس أن أمعاءه تتحرك ضجراً من الفراغ، ولكنه يحس الآن أنه قد أكل، وأنه قد شبع، (وماذا تشرب)؟ رددها سويلم كأنما ليتذكر معناها، ثم قال في بساطة: نشرب.... فضحك عبدالله: طيب أي الشراب تريد؟ فقال سويلم في بساطة: نشرب ماء... عندها لم يملك عبدالله نفسه من القهقهة، وابتسمت المجموعة كلها على هذه المحاورة، ورطنت «لورا» تسأله عن

سر ضحكه، وحين عرفت الحقيقة، وعرفتها المجموعة كلها أغرق الجميع في الضحك، وكأنه أطلق نكتة حلت براغي عقولهم. . . فجفل سويلم، وتلفت من حواليه كأنما ليواري هذه الفضيحة. . . وكانت صدمة أيقظته من كابوس المفاجأة الأولى، فعاد إلى نفسه قليلاً قليلاً، وبدأ فكره يستقيم شيئاً فشيئاً، وبدأ عقله يتحرك، وبدأت عيناه تنقلان إلى ذاكرته ما حوله، فماذا رأى؟ . . .

(٢٩)

كان إغراق الجماعة في الضحك صدمة أيقظت سويلم، وبدت عيناه تنقل إلى ذاكرته الصدور المحيطة به، فحين سكت الضاحكون، وأعاد عبدالله عليه السؤال، قال بحزم: لامون، وتلفت بعيداً في أركان الملهى الواسعة. !

كان المكان واسعاً جداً، في قلبه ساحة دائرية يحيط الناس بها إلا في جزء بسيط عليه ستائر متحركة، وكان الناس كثيرين، لم ير سويلم مثل هذا الجمع من قبل قد صلى في المسجد الأقصى، وحضر إحصاء اللاجئين، واشترك في طهر أبي شلهوب (احتفال البدو بطهور الأولاد)، وعرس ابن عامر (أحد كبار البادية) أيام العز في فلسطين، فلم ير فيها جمعاً مثل هذا العدد من الناس. !

وكان الناس مكدسين كثلاث طبقات بعضها فوق بعض منهم من يتمركز في الجهة المقابلة في كراسي متواصلة لا عداد لها، ومنهم من يتحلق حول موائد مشابهة للمائدة التي يجلس عليها، وألقى سويلم ببصره على أصحاب الموائد، وكان إلى يمينهم شلة من الرجال والنساء

قد شرعوا فعلاً في التهام الطعام، ويكرعون من أباريق فخارية شبيهة بهذه التي وضعها خدام الملهى أمامهم، كانت أباريق، وكبايات، وصحاف كلها من الفخار، وذكرت سويلم بفاخورة غزة، وتابع سويلم حركة عينيه، كان إلى يسارهم مجموعة أخرى، بينهم امرأة ضخمة، عجب سويلم كيف يتسع الكرسي لمقعدها، وكيف لا يتهشم تحت ثقلها، وكان الرجال والنساء من حولها كأنهم مجموعة من الأطفال أولادها. . . وبين الحين والحين ترسل قهقهة مرعبة تزلزل أركان الملهى، وفي حركة هادئة استدار سويلم بعينيه إلى الخلف، وكانت مائدة أخرى تعلوهم إلى جانب موائد أخرى محيطة، ومن فوقها صف آخر وراءه صف، . . . ولم يستطع سويلم متابعة النظر، فقد اختلطت رؤوس الناس في الطبقات العليا، بحيث لم يستطع أن يتابع صفوف الموائد المحيطة من فوقهم، وكان واضحاً أن مائدتهم هي التي تتمركز إلى جانب الساحة مباشرة، وأنها بالتالي مكشوفة لكل الموائد من فوقهم، ولكن سويلم لحظ ظاهرة تأكد منها تماماً، وهي أن مجموعة من الناس لا تنظر إلى مجموعة أخرى، حتى ضحكات المرأة الضخمة لا تثير انتباههم، الكل مشغول بما هو فيه، أو بمن عنده، لا يلقي بالاً إلى ما يفعل جاره، ولا يأبه للنظر إليه. . .

قال عبدالله: إن ميونيخ مشهورة بالبيرا، إن أفضل بيرا في أوروبا هي في ميونيخ، وإن لها عيداً تراق فيه آلاف أطنان البيرا في كل عام، لا يوجد بهذه الجودة في أي مكان آخر، قال سويلم: من أجل هذا الأفضل أن لا أذوقه، ومن يدري أني سأظل أحن إليه، فأين لي به في «خربة قمران» على شواطىء بحيرة لوط، إن الإنسان يا صديقي يجب

أن يتعود على ما يستطيعه من الطعام والشراب.. قال عبدالله: الحق معك يا سويلم، ولكنها لحظات أحببت أن تجرب فيها طعام أهل هذه البلاد وشرابهم، وتتعرف على عاداتهم. قال سويلم: إن طعامهم قد جربته، وأخلف الله عليك، وأما شرابهم فالماء هو الشراب الذي يشترك فيه جميع الناس، وأما عاداتهم، فصدقني أني ما زلت لا أعرف منها شيئاً... واعذروني يا جماعة إذا أخطأت! قال عبدالله: لا بأس يا سويلم، ولكنك كدت أن تصبح أوروبياً، وحدثني عن أي شيء أثار انتباهك أكثر من غيره؟ قال سويلم: والله ما أدري ولكني كما ترى كالأصم في الزفة، يرى ولا يسمع مما يقال شيئاً....

كان الجماعة قد بدأوا يحتسون الشراب من الأواني الفخارية، وجاء الساقي بكأس اللامون لسويلم، لقد ذاقه أولاً بدون أن يشعر أحداً حتى إذا تأكد أنهم لم يغشوه بدأ يمتصه في هدوء.

وكانت الموسيقى تدندن، وبين الحين والحين يرافقها صوت كالخوار، ثم يذوب هذا الصوت الغليظ ليبدأ صوت ناعم أكبر الظن أنه لون من غناء القوم، لأن جماعته كانوا يميلون رؤوسهم مع موجات الصوت، وأحياناً يعلو ضرب الموسيقى فتبدأ السيقان من حوله تتحرك حركة عجيبة استجابة لتلك (الدندنة)، وكان سويلم قد عاد إلى نفسه تماماً، وبدأ يحس بالانتعاش، ويستطعم رائحة العطر التي تفوح في الأرجاء على الرغم من زحام الناس، وحين جاء الطعام بدأ يتطلع إلى ما يمكن أن يلائمه من ألوانه، واكتفى منه بشريحة من اللحم، لم يمد يده إلى غيرها على الرغم من توسلات عبدالله والمستر، ولقد تطوعت «لورا» بوضع قطعة من الطعام في وعائه، وانتفض سويلم

وقد تصور له ذلك المنظر الذي رآه في الفندق حين كانت المرأة تدس الطعام في فم الرجل، فترك القطعة في مكانها، وحمد الله ودعا «للمحلّي» بخير، وكان أصحابه يلتهمون الطعام بدون حساب أيضاً، وكانوا أثناء ذلك يتحدثون ويرتفع رطنهم، ثم ينطلقون في قهقهة طويلة، ثم يعودون إلى الشراب وإلى لملمة ما بقي من طعام على كثرته، وكلما أوغلوا في ذلك كلما احمرت وجوههم، وعلا ضحكهم، ولقد أيقن سويلم أن ما أصاب القوم من هذا السرور الزائد هو بعض آثار ذلك الشراب،

ولم يجد بداً من أن يكشف أسنانه البيضاء متصنعاً الابتسام ويشارك القوم ويتصرف على أساس ذلك اليقين. . . وفجأة دوى التصفيق، وعلا الصفير، واختلط الصراخ بالمناداة. . .

●

(٣٠)

وكما تأخذ الغانية بأطراف ثوبها الطويل تلفه، ليكشف المستور والمحذور توارى الستار شيئاً فشيئاً، ليكشف ساحة صغيرة من المرايا أرضاً وسقفاً وجداراً، تنعكس عليها الأنوار الصفراء والحمراء، وفجأة قفز شيء إلى الساحة فدوى التصفيق من جديد، وانطلقت أصوات مروعة هي وعواء الذئاب سواء.

وفتح سويلم عينيه على سعتهما ليتبين هذا الشيء الذي أثار تلك الضجة وأطلق كل ذلك العواء كان رجلا عارياً. . لا، لقد كانت أنثى شبه أو عارية أو أن عليها قماشاً تشد به صدرها، وأردافها، وجحظ سويلم بعينيه أكثر فأكثر إلى أن أزال الشك باليقين. لقد كانت بالتأكيد

أنثى . . . تقدمت خطوات إلى الأمام، وانحنت فضج التصفيق والعواء من جديد، ورجعت خطوات إلى الوراء، ودارت على نفسها دورات، ثم جعلت تنتفض وتقفز كأنما قد أصابها مس من الجنون، ثم أخذت تتثنى ذات اليمين، وذات الشمال، لتعرض كل قطعة في جسدها على حده، كل ذلك والمرايا تعكس تحركاتها لجميع النظارة فيزلزل تصفيقهم أركان الملهى الواسعة!

ولم تكن تلك الحركات تثير في سويلم شيئاً، بل إنه لم يكن يفرق بين قفزة ودورة، وبين انحناءة وأخرى لقد كانت امرأة أو فتاة ـ الله أعلم ـ تقفز كالسعادين، ولكن قفزاتها لم تكن شيئاً إلى جانب جسمها القوي العضلات المتناسق الأطراف يعرض هكذا على عباد الله دون حياء يا خسارة . . ولا شك أنها أتعبت نفسها كثيراً، فها هي تنثني حتى تصل إلى الأرض، فتمشي على الأربع، و(يا . . .) أطلقها سويلم فجأة إنها تنقص فقط (ذيلاً) قال عبدالله : ماذا تقول؟ لقد خشي سويلم أن يكون قد قال قولاً منكراً، فأجاب عبدالله يلفت النظر إلى حركة الأنثى، ويقول : عجيبة إن جسمها كالعجين، تشكله كما تشاء، وكانت مناسبة للجميع لكي يشاركوا في الكلام، ويستفسروا من عبدالله عن الملاحظة التي حركت صاحبه، والذي لا يتحرك لشيء، وكانت مناسبة أيضاً إلى «لورا» والبقية أن تلفت نظر سويلم إلى كل حركة جديدة ما دام يستطيع التمييز، وضج الجميع بآهات الإعجاب عندما شرعت بالجري على يديها، وأسدل الستار، ورفع ليكشف منظراً عجيباً.

لقد مشت في الساحة أمام الناس نعامة، كانت بيضاء السيقان، طويلة المنقار، لها ريش ذهبي عند كتفها . . لقد كانت شيئاً جميلاً

حقاً . . . وفجأة انتفضت تلك النعامة الجميلة، فإذا بها تلك الأنثى التي تلعب قبل لحظات . . . يا للعجب، وكيف كان ذلك، إذن تستحق تلك الشيطانة كل ذلك العواء والصفير . . . والله إن الرجل ما يصنع صنعها، بل إنها ربما لو أمسكت برجل مثل سويلم لمزقته إربا إربا، وعادت تقفز وتقلد حركات الحيوانات والناس يهدرون على كل حركة من حركاتها إلى أن اختفت وراء الأستار، ثم عادت مرة أخرى لتنحني وتستمطر التصفيق من جديد . . . وحين لف تلك الشيطانة الستار خلفه، انطلقت موسيقى كمشية الإبل هادئة تحركت لها رؤوس جماعته، وتحركت من حوله السيقان، وانطلق من النظارة أزواج يمسكون بأيديهم والموسيقى تمضي، وكل رجل وامرأة يقتربان ويقفان قبالة بعضهم، ثم يمسك بعضهم بعضاً بصورة عجيبة مذهلة يد في يد ويد الرجل الأخرى تحيط بخصر الأنثى، ويد الأنثى تحيط بعنق الرجل، ثم أخذوا يدورون كل زوج على طريقته . . . لقد كان المنظر من الغرابة بحيث غطى على ما قبله، فالأنثى التي كانت تقفز، وتقلد النعامة والحيوانات كانت تفعل ذلك وحدها، وعلى الرغم من أنها عارية، أو شبه عارية، فإنها بقوة عضلاتها تبدو (مستذكرة) لا تستحي من الناس . . . أما هؤلاء أفلا يستحون؟

ومضت الموسيقى، ومضى الرجال والنساء يدورون حول بعضهم بعضاً، وسويلم لا يترك زوجاً آخر من هؤلاء إلا ليلتقط نظره زوجاً غيره، واحدة لا يزال بينها وبين الرجل سنتيمترات على الرغم من تشابك الأيدي، وواحدة تلتصق به، وتبتعد طبقاً للحركات الموسيقية، وواحدة قد أخذ الرجل يشدها إليه لتصبح قطعة منه، وأخرى قد أرخت رأسها

في دلال على كتف الرجل، وخيرها قد قربت خدها إلى وجهه.

لقد نسي سويلم نفسه، ونسي لورا، ونسي وعبدالله، ونسي الكتل البشرية، ونسي المرأة الضخمة القريبة منه، نسي كل ذلك، وانسجم كلياً مع حركات القوم الذين يمسكون بعضهم بعضاً: الذكر بالأنثى على هذه الصورة، وتحت الأضواء، وعلى مرأى من الجميع.

ترى هل هذه هي ليالي الأفراح عند القوم؟ وهل هذا هو الرقص عندهم؟ لقد أخذ يتذكر السامر (الدِّحِّيَّة) في البادية. حين تغني النساء في الأفراح، غناء جميلاً يمدحن فيه الرجال الكرماء، ثم يأتي، فتيان العرب، يلتثمون صفوفاً أو صفاً واحداً على مقدار عددهم، ويتناقلون الكلام، أو ما يسمى بالبدع، وحين يقومون بضرب الكف، فيخرج صوتاً موسيقياً قوياً، ثم ينحنون، ويرفعون رؤوسهم في صف كأنه قطعة واحدة، فتخرج لهم أنثى مسربلة بالملابس السوداء، تمسك بيدها سيفاً مصلتاً يلمع على ضوء القمر، وتتحرك، وتحرك السيف مع حركة صف الرجال، ذلك هو الرقص، وتلك، هي (الدحية) التي لا يقيمها البدو إلا في الأفراح العظيمة.. ومع ذلك، فقد قال الشيخ: إنها حرام، وإن الدين لا يسمح باقتراب الرجل والمرأة على هذه الصورة، ترى ماذا يقول الشيخ في هؤلاء؟.

(٣١)

ماذا يقول الشيخ في هؤلاء الرجال والنساء يضمون بعضهم بعضاً على هذه الصورة؟ وأسرعت الموسيقي في دقاتها، وأسرع الرجال والنساء في الساحة بالدوران، وبعضهم شدد ذراعه على الخصر الذي يمسك به، كل ذلك يحدث، وكأنه امر طبيعي لا يثير في عبدالله، ولا في اصحابه شيئا، وتطلع سويلم الى الموائد من على يمينه ويساره، كانت المرأة الضخمة لا تكاد ترفع ذلك الكأس الفخاري عن رأسها، وكانت الضحكات تنطلق من الموائد تجلجل في المكان دون ان يلتفت لمصدرها احد، وحتى هؤلاء الذين يدورون، ويحركون اعجازهم الذين يلفون في دورة، وصورة منكرة، الكل مشغول بصاحبه، وقد يحتك اثنان باثنين آخرين، فلا تبدر من احدهم كلمة اعتذار.

وارتفع صوت الموسيقى أكثر فاكثر، وأسرعت ضرباتها، وبدأ القوم في الساحة ينتفضون، ويشدون بعضهم بعضا كأن بهم مساً من الجنون، كان سويلم مأخوذا بما يرى لم يعط بالاً إلى مضيفيه وجيرانه، ولم يلتفت حتى الى ضحكاتهم التي بدأت تفقد توازنها، وتنطلق بدون نكتة، ولا مناسبة، وكانت الموسيقى قد أرخت أوتارها، وفي ضربة واحدة وقفت، فدوى التصفيق، وأرخى الرجال والنساء في الساحة أيدي بعضهم بعضاً، وشرعوا في العودة إلى أماكنهم لقد تابعهم سويلم، أو قل تابع بعضهم إلى أن جلس على مائدته، ولقد ازدادت حيرته حينما رأى أن منهم من جلس الذكر والأنثى على مائدة واحدة، ولكن بعضهم جلس على موائد متفرقة، وكان الرجل يتبع المرأة، أو الفتاة حتى إذا جلست أحنى رأسه لها، ومضى لمائدته ليقهقه مع رجل، أو فتاة أخرى، ومرة

أخرى يردد سويلم في نفسه: (عجيب الناس هنا طبيخ) يعني خليط، بعضهم مع بعض، ولكنه قدر أنهم لا بد ويعرفون بعضهم بعضاً، فهم أولاد بلد واحد، وربما حارة واحدة!.

حين سكتت الموسيقى قليلاً أوقفت طاحونة دورانها في رأس سويلم، فأحس بقايا هديرها في رأسه، ولكنها كأنما أرهقت سمعه، والضحك يعلو، وحتى الأصوات بدأت ترتفع، وعلى الرغم من أن سويلم كان يعرف بضع كلمات من الالمانية التقطها من السواح وعلماء الاثار، إلا أنه لم يسمع أن أحداً يستعمل الكلمات التي يعرفها، فاللغة الوحيدة التي يشارك فيها القوم ويستطيع فهمها دون ترجمة هي الضحك لا أكثر، ولا أقل، وحتى لورا ونيلي والمستر لم يستعملوا قط كلمة مما سمع عند «العوجا»، أو قريباً من «خربة قمران»... فماذا يقولون يا ترى؟

لقد كانت غصة، كم تمنى سويلم أن يفهم ما يقولون، ولقد نذر في نفسه أن يعلم أولاده«السبعة السن» حتى لا يقعوا في مثل ما هو عليه الآن، ويلتفت إليه عبدالله ضاحكاً: مالك ساهماً يا سويلم؟ هل أعجبك الرقص؟ الرقص..؟ قالها سويلم، وأي رقص يا عبدالله؟ قال الأخير ألم تر القوم يرقصون قبل لحظات؟... وعندها اضطجع سويلم إلى الخلف وهو يقول: (آه..) كأنما هو قد ذكر شيئاً قد نسيه تماماً، وحين قال: (آه..) ضج القوم بالضحك بصورة منكرة، وتمرغوا برؤوسهم، وانتفضت «لورا» من الاغراق في الضحك، وأمالت رأسها في حضن سويلم وهي ما زالت تقهقه، وقلبت عينيها في عينيه، وكان الآخرون يقهقهون، حتى عبدالله ذلك الرجل العاقل الوقور سمعه يضحك من أعماق نفسه، ولورا ما زالت تمرغ رأسها عند صدره،

وسويلم يتململ، وقد كان في البداية يتصنع الضحك مع القوم، ولكنه أحس بالحرج، وقد جحظت عيناه، وهو يقول: (والله خربانة... يا جماعة)، ويحاول أن يجد ملجأ مما هو (اه اه اه) في صوت وسط بين الكحة والضحكة الجافة، فلما اعتدلت المرأة في جلستها تنفس سويلم الصعداء، ونظر إلى عبدالله بعيون يتطاير الشرر منها، وإذا بوجه الرجل أحمر كالدم، وهو يهز ذراعه: أهلا يا سويلم مرحب يا سويلم، وإذا بالجماعة كلهم يعيدون ما نطق: (مرهب ياسويلم)، ثم يكررونها، وكأنها أصبحت أغنية تنسجم مع الموسيقى التي بدأت تدندن هادئة من جديد، والحق أن سويلم كان يمثل في ذلك الحين الفأر في المصيدة، وكان في حيرة تامة. ماذا يفعل؟ وقد تصور له أن القوم لا بد وقد فقدوا عقولهم، أو هم في طريقهم لفقدانها، وقد أخذوا يميلون رؤوسهم سروراً وطرباً، بدأ سويلم يعزّي نفسه، ويعتقد أن من واجبه أن يتصرف تصرف العقلاء مع المجنون، أو شبه المجنون، وقال في نفسه: إذا لم يتناولوا هذه الأواني، ويحطمونها في رأسي، فكل شيء يهون، ويتمنى أن يأتي الساقي حالاً لينظف هذه الطاولة ليأمن سويلم عواقب الأمور، وفعلا بدأ سويلم يشارك كالمجنون في الضحك أحياناً، والابتسام والتململ، وحين يقف القوم لينظروا عبر الممر الطويل كانت التقطيبة العابسة تكسو وجهه، كأنه لم يكن يضحك قبل لحظة، وكأنه لم يتململ طرباً، وسويلم في ذهوله وقلقه وحيرته، والرعب الذي يملأ جوانحه دوى التصفيق من جديد، وسكنت الموسيقى قليلاً.

وخرج شاب يلبس ملابس الجنود القصيرة، وعلى رأسه معمعة بريشة طويلة، وتحت إبطه شيء يشبه الربابة خرج وانحنى، فصفق له

الجمهور، وصفر طويلاً، ووقفت الشابات المكدسة في الصفوف المقابلة تحية وإكبار، وهن يعوين كبنات آوى، وخرج رجل آخر عليه ملابس رثة وآخر وآخران إلى أن اكتملوا أربعة، وأعاد الناس التصفيق من جديد، وشارك جماعة سويلم في هذا التصفيق، وامتلأ سويلم سروراً إنهم قد وجدوا ما يلتهون به غيره . . .

(٣٢)

كان يبدو على الفرقة أنهم من الناس العاديين؛ لأنهم كانوا يلبسون ملابس وجدها سويلم مألوفة إليه، وخاصة المرأة، فقد كانت تتسربل في ملابس فضفاضة مطرزة بخطوط حريرية حمراء، وشرع الشاب يحرك أوتار ربابته، ويدندن عليها، ويخرج من لـ انه دندنات مماثلة، ولم يكن في الأمر ما يثير الغرابة بالنسبة لما مر على سويلم من أحداث، وحتى حين بدأ الرجلان يمثلان دور المعتوه والأحمق، والمرأة تمثل دور الأم التي تحنو عليهما، حتى حين ذلك كان سويلم يحس بإلفة غريبة نحو هؤلاء الناس، الناس الذين يضحكون الجمهور، والذين أضحكوا مضيفيه طويلاً، والحق أن سويلم كان يرى أن هذا الجمهور الضاحك الفالت الذي لا يضع موازين لفرحه وسروره، والذي يتساوى في هذه الخصال شبيه وشبانه، هذا الجمهور هو في حقيقة الأمر هو المعتوه، وهو الأحمق في نظر سويلم، ولقد قادت سويلم غريزة حب الاستطلاع أن يسأل عبدالله عند انقطاع الضحك عن هؤلاء: من أين هم، وماذا يفعلون؟ ومن بين ضحكات عبدالله الهستيرية عرف سويلم أن هؤلاء يمثلون دور عائلة من الفلاحين القدماء . . . ويقولون كلاماً، ويعرضون مشاكل

قديمة تثير الضحك حقا، وعندها أدرك سويلم سبب ميله لهؤلاء الناس لحركاتهم، وضحكهم المتزن، ولمظاهر الوقار الذي يتحلون به في تصرفاتهم، وأسدل الستار، وانكشف مرة أخرى عن العائلة إياها مع رجل عجوز تبدو عليه علامات الإرهاق في العمل، من الواضح أنه يمثل أب العائلة، ومع شابة أخرى مسبلة الثوب، تلف رأسها في خمار جميل، والرجل يحرك يده، ويشير إلى الشابة، وبقية العائلة في وجوم تام، ولكن العائلة الكبرى هذا الجمهور يضج بالضحك والتصفيق، ترى ماذا يضحك القوم من كلامه وتصرفاته، الشابة يبدو عليها الحياء، وتتلوى كأنما لتخفي نفسها من عيون أهلها، والشباب وقوف، والمرأة مكتفة اليدين لا تنبس ببنت شفة، وقال الشيخ كلمة ضج لها الجميع بشوط من الضحك الهستيري، فابتسم سويلم، وقال لعبدالله الذي ما يكاد يلتقط أنفاسه من القهقهة: كان صاحبكم هذا مسخرجي كثير، والله ليلة مسخرة وانبساط، فماذا يقول يا عبدالله؟.. قال عبدالله: يقول عبدالله كلاماً يضحك كثيراً يا سويلم، ولكن الكلمة الأخيرة التي هز رأسه من أجلها، وكاد أن يضرب البنت؟ قال عبدالله: إنه يتهدد البنت لأنها في زعمه قد تأخرت في رجوعها للبيت، وهو يشك أنها كانت في صحبة شاب غريب، ولذلك تراه يهدر من الغضب، قال سويلم: (انه رجل ذكر والله) قال عبدالله: هذه كانت طريقة العيش في بلادنا من زمان قال سويلم (من زمان...)، والناس ليسوا موجودين... أعني مثل الشايب هذا، والبنت المستورة، وهذه العائلة الطيبة، فانفجر عبدالله ضاحكاً في قهقهة متواصلة، وتابعه القوم، ودارت الدورة مع سويلم، فلفت نفسه عمداً نحو نيلي لكي لا تقوم لورا بالفصل الأخير،

وتمُرِّغ رأسها في حضنه، ولكن نيلي كانت تضحك أيضاً، وراحت تضغط وجه سويلم بيدها، وتَلَفَّتَ سويلم مستنكراً، وعاد إلى نفسه الرعب السابق قد يجوز لعبدالله أن يضحك ، وقد فهم كلامه، ولكن لماذا يضحك هؤلاء؟ لم يفهموا مما قال كلمة واحدة.

فانفجر سويلم في وجه عبدالله مستنكراً لماذا الضحك؟ فسكت الأخير، وقال: إن القصة فكاهية كلها تمثيل في تمثيل يا سويلم لا يستطيع من يسمعها إلا أن يضحك، فقال سويلم مفكرا: (آه. . . كلها تمثيل. .) ونظر إلى عيني عبدالله كانت حمراء كالجمر، فابتسم ليسهل المناقشة، وقال: (زين)، وتابع عبدالله كلامه: (تصور. . . إنه يريد أن يجلد البنت، لأنها تأخرت. . .) فقال سويلم: والله ماله حق. . . قال عبدالله: كانت تلك عادات الناس من القديم. . . فقال سويلم ساخراً: لا النأس بخير خالص هذه الأيام، وتلفت قليلاً نحو المستر وقد كان يهمس همساً يوشك أن يمرغ من أجله رأسه في صدر نيلي. . . وأطلق بصره في الأكوام المكدسة من البشر التي تسهر إلى ساعات الصباح. . وفجأة دوى التصفيق من جديد. . وكانت العائلة المحترمة في نظر سويلم ينحني أفرادها واحد بعد الآخر، ثم يسدل الستار عليهم، وقد بدأت الموسيقى هادئة، تماماً كما بدأت في المرة السابقة، وبدأ أفراد الجمهور يتسللون إلى الساحة ذكراً وأنثى. . . لقد رأى سويلم هذا الدور من قبل، ولكن الذي لم يخطر له على بال أن يقف عبدالله، ويقف المستر ليتوجهوا نحو الساحة مع ماريانا ونيلي. . . وليشاركوا في العمل المخجل. !

(٣٣)

لقد تسللوا: نيلي يتبعها المستر، وماريانا يتبعها عبدالله، وسويلم يتابعهم بنظر مدهوشاً، لم يفطن إلى لورا، وإلى حركات لورا، لقد كان يتطلع إلى عبدالله، وانصرف إلى صديقه وحده. . . وكان سويلم يشك في أن هذا التصرف الذي يقوم به ليس مبعثه عادات قومه، وإنما هذه الأواني الفخارية التي (لمط) منها حتى امتلأ، وحتى احمر وجهه، فهو الآن يتصرف بدون عقل. . لقد أخذ سويلم يعتذر عن صاحبه، ويرى في بهدلة نفسه عبرة، وحمد الله أنه أمسك بوصايا قومه، ولم يشرب غير الماء الطهور، وظل يتابع عبدالله، ها هي ماريانا تقف عيناها في عينيه، وها هو عبدالله يمسك بيدها، وها هو يطوق خصرها باليد الأخرى. . ويشدها إلى صدره، ويمضي مع القوم يحرك نصفه الأسفل ذات اليمين وذات الشمال، وماريانا تحرك جسمها مع حركته، ومد سويلم عنقه يفتش عن وجه عبدالله لعله يراه، ولكن الرجل كان في عالم آخر، فأرخى سويلم نفسه، وأسند رأسه إلى يديه يحاول أن يستعرض الصور التي مرت به منذ أن دخل صندوق العجب هذا، وكان يمكن أن يسبح سويلم بفكره وهو في تمام اليقظة والوعي، كان يمكن أن يسبح به الفكر إلى الوراء أكثر فأكثر، لولا أنه أحس باليد الناعمة تمسك بذراعه، فجفل كأنما لدغته عقرب، وبدون وعي انطلقت منه (ها. . .) كأنما يستنجد، وكانت لورا تزحف بجسمها من فوق الكرسي نحوه. . . وترطن ألفاظاً ناعمة طويلة يكاد سويلم يفهمها، كان في عينيها لهيب أحس سويلم بحريقه على وجهه، وقد أرخت بصرها إلى الأمام، ولكن سويلم لم يستقبل الصدر، وإنما زحف إلى الوراء حتى أصبح نصفه على كرسيه الأصلي، والنصف الآخر على كرسي ماريانا، وكانت رائحة كالخميرة

تخرج من رطن المرأة، وقد مد سويلم يديه كأنما ليدافع عن نفسه، وقد أدرك الرجل أن المرأة معذورة هي الأخرى، ولعن الله الخمر، هي التي ذهبت بعقلها، فما يمكن لامرأة أن تقبل على رجل غريب هذا الإقبال لقد كان سويلم يتصرف معها تماماً كما يتصرف مع المجانين، همه أن يمنع أذاها، وأن يحاول استرضاءها، وحين رد بيديها إلى صدرها، قهقه ضحكة هستيرية، كأنه قد فقد عقله هو الآخر، ثم أخذت جميع الألفاظ الالمانية التي اختزنها في ذاكرته تنطلق منه دون ترتيب، ولا روية، فهو يقول: نهارك سعيد (جودن تاك)، ويقول لها في نفس الوقت: (أفيدا زين): يعني وداعا، وقد أغرقت لورا في الضحك، فأرخت برأسها بين يدي سويلم وهي تردد: (أو. . . .)، وتلفت سويلم يميناً وشمالاً، وألقى ببصره من وراء شعرها الذهبي، لم ير أحداً يهمه أن يتلفت عليهما، اللهم إلا تلك المرأة الضخمة، فقد كانت تتابع الراقصين في الحلبة، وحانت منها التفاتة، وإذا بعينها في عين سويلم، ثم تنقلها إلى لورا التي تمرغ رأسها بين يديه، ثم ترفعها مرة أخرى إلى عين سويلم، وقد انفرجت أساريرها عن ابتسامة عريضة بدت كابتسامة فرس البحر، ثم عادت لتكرع من الإبريق الفخاري أمامها، وقد حمد سويلم ربه أنها ليست في مكان لورا، إذن كانت الأمور قد اختلفت تماماً، لأن سويلم يستطيع الآن أن يجاري وهو بكامل الوعي جنون لورا، ويمكن أن يقف هذا الجنون عند حده عندما يقرب من نقطة الخطر، ولكن هذه (الباهشة) تستطيع أن تدق عظامه، ولو أمسكت به ـ لا سمح الله ـ لما استطاع منها فكاكاً.

وازداد ضغط لورا وزحفها نحوه، وأسرع سويلم في التراجع وقد

تصبب عرقاً، ونسي عبدالله وفعلته الشنعاء، وقد ابتُلي بما هو أعظم، واستقر جسمه على كرسي ماريانا، وظل يزحف لقد كانت المسافة طويلة جداً بين كرسي وآخر، وكانت المسافة طويلة بين سويلم والباب الخارجي، وكانت المسافة أبعد في نظر سويلم بين الباب الخارجي والفندق، وكانت البحار والجبال بينه وبين أم سليمان، ولكنه رجل، وعند ذلك أحس كأنما اكتشف نفسه، وأنه من العيب الهروب على هذه الصورة، بل لماذا يخاف من أنثى كالزبدة؟ أنثى مجنونة يستطيع أن يقيد يديها وقت اللزوم، وعند ذلك زاغ الكرسي من تحت لورا وهي تقهقه وتضحك بدون وعي، فأحس سويلم أن عليه واجباً، وأن القوم تركوها في عهدته، فلا يجوز أن يتركها.. ولم تترك لورا له وقتا للتفكير، بل أطلقت شبه صرخة (اوو..)، فسارع سويلم إلى سحبها، وإلى مساعدتها، وقد أحس أن الأنثى كأنما تثقل بين يديه، وأسبلت عينيها، وجعل الرجل يهزها، وقد ملأه الرعب، وأطلقت ضحكة طويلة، وجلست في رشاقة على كرسيها الأصلي كأنها لم تكن تلك المرأة المتهالكة بعد لحظات تحت الطاولة، وكان سويلم ما يزال يرتجف.. من هول الصدمة، لقد ارتفعت ضربات الموسيقى بشكل أيقظ سويلم مما هو فيه، وازدادت حركة القوم في الساحة يهتزون ويدورون حول بعضهم كالورق في مهب الرياح، وكما حدث أول مرة، وقفت الموسيقى عند ضربة عالية، ووقف الراقصون، ثم أقبلت ماريانا ووراءها عبدالله ومن ورائهم نيلي والمستر، وتفرق الباقون على الموائد، كانت لورا قد شبكت أصابعها فوق المائدة، ونهض سويلم ليفسح المجال للقادمين، وأصر كما يفعل المحلي أن يجلس القوم في الصدر، وبلباقة واعية جلس في مكان

المستر في الطرف البعيد، وأمسك بأكتاف المستر ليجلسه إلى جانبه، وقد استقرت النساء الثلاث في الوسط، وجلس عبدالله في الطرف الآخر بادي الانشراح والسرور.

(٣٤)

لقد أصر سويلم أن يجامل، شأن المحلي على أن يجلس المستر والنساء مكانه في صدر المائدة، وحين استقر في الطرف إلى جانب المستر، أحس بشيء من الحرية، فلا يحرج نفسه، ولا يحرج غيره بالجلوس بين النساء.

وكان عبدالله كما قلنا بادي السرور والانشراح، وبين الحين والحين يربت على خد ماريانا، ويصب للجميع ما بقي في الأواني الفخارية من خمر، فيضحكون ويغرقون في الضحك، وكانت لورا ساهمة تشارك في الابتسامة فقط، لقد لاحظ سويلم، وأخذ يعلل لنفسه ذلك الانكماش هل يكون هو سببه؟ ولكنه لم يفعل شيئاً، لقد ابتعد فقط عن طريق الشيطان في وسط الناس، ولاحظ عبدالله هذا التغير كذلك، فالتفت إلى سويلم، وقال له: ألا تعرف كيف ترقص يا سويلم؟ فضحك هذا، وقال: من أين لي أن أعرف يا عبدالله؟ وأنت على (البير وغطائه)، وأنا أحمد الله أني أجلس على هذه الكراسي، ولا أزلق من فوقها، ألا تذكر كيف نجلس وكيف نأكل هناك؟ فكيف تنتظر مني أن أرقص هكذا.. وهز سويلم جسمه!!

قال عبدالله: تعلمت كثيرا، ونجحت في الحياة المدنية يا سويلم، فها أنت تلبس البدلة، وتفعل ما لم تكن تفعله هناك، فلماذا لم تجرب؟

إن لورا في استطاعتها أن تعلمك والمسألة بسيطة: تحرك قدمك مع دقات الموسيقى.. وأحس سويلم بتوتر في أعصابه، وقد تخيل أنه يمسك بخصر لورا، ويضع صدره على صدرها، ويهتز معها كما يفعل القوم في الساحة، لقد أحس بتوتر شديد، فارتج عليه، ولم يتكلم فالتفت عبدالله إلى لورا، ورطن معها، وردت عليه، واشترك القوم كلهم، وكأنهم يلاحقون لورا على شيء، واستولى على سويلم الرعب أن يكونوا قد قرروا فعلاً أن ترقص معه، وقال في نفسه: لعلها ترفض، وتحولت الأنظار إليه، وأمسكت نيلي بيده، وجعلت تهز نفسها وهي جالسة، وابتسم له عبدالله قائلاً: لماذا رفضت أن ترقص مع لورا؟ إن الأمر بسيط كما قلت لك ما كنت أظن أنك تجرح لورا، تدعوك ولا ترقص معها، واختلط الأمر على سويلم، وجحظت عيناه، ودار رأسه لا يستطيع أن يفهم شيئاً، ونيلي تتحسس يده، وما زالت تهز نفسها، والمستر يرمقه بنظرات لم يستطع تفسيرها أهي سخرية أم عطف؟ أما لورا فما زالت تشبك أصابع يديها، وماريانا تحاول أن تقرب نفسها من عبدالله، وكأنها لا تريد لوصلة الرقص أن تنقطع، وعبدالله ما زال يبتسم، وسويلم يضغط على أعصابه ويحاول أن يبدو طبيعياً، ولكنه تطلع إلى عبدالله بنظرة عاتبة، ويقول له: فهّم الست لورا أنا لا أعرف أرقص، وليس في بلادنا رقص، وربنا ما يسمح إني أغلط عليها، وقال غاضباً: ما أظنك قد أتيت بي للمسخرة، وحتى تضحكون علي، وهنا انسحب عبدالله رأساً وقد تأثر من أن يشك صاحبه بتصرفه، وقد كبر في نظره هذا البدوي الأنوف وقال لا. لا تذهب لا. لا تذهب بعيداً يا صديقي أنت تعرف أن هذه عادات الناس هنا يرقص الشباب مع بعضهم بعضاً، ويرفهون

عن أنفسهم، وقد جئنا هذه الليلة السعيدة مع الأوانس الحلوات الجميلات، وغمز ماريانا، فواجبنا أن نرقص معهن، وما يخفاك، ولوى رأسه، وغمز بعينه إلى سويلم، وقد ابتسم ابتسامة عريضة يحاول بها أن يزيل كل ما علق بنفسه من شك.

واعترى سويلم شيء من الذهول، وقد فتر غضبه، ولقد كان يظن أن عبدالله قد فقد عقله من هذه الأواني الفخارية المملوءة بالشراب الحرام، غير أنه من الواضح أنه يتحدث الآن بكامل قواه العقلية، فهو ذهب ليحك جسمه بجسم ماريانا في الساحة، وهو مدرك لما يفعل، ولا بد أن المستر كذلك، ومن الجائز أيضاً أن الأوانس لا يفقدن عقولهن أيضاً... ووقف سويلم لحظة (عند الأوانس)، فهو يذكر أنها تعني الإناث التي لم تتزوج بعد، فكيف يا ترى تأتي هذه الأوانس لترقص مع الرجال على هذه الصورة، وترقص مع سويلم أيضاً... وحار سويلم في أمر هؤلاء الرجال، هل هذا التصرف من عادات القوم كما يشرب البدو فنجان القهوة؟ هو شيء طبيعي لا يلفت النظر كما هو واضح، فكيف يتزوجون؟ كيف يتزوج الواحد منهم بنتا كهؤلاء الأوانس يعرف أنها حكت جسمها بأجسام الرجال؟ وظلت علامات الاستفهام تتراكم على فكره الساذج، فأحب أن يتخلص مما هو فيه، فقال باسماً؛ أما رقصتك يا عبدالله رقصة عظيمة باين أنك مشتاق على الرقص (جاي مشلهب - يعني شديد اللهفة - على الرقص مع ماريانا)،بلاد العرب ناشفة ليس فيها رقص،قال عبدالله: لا، يوجد في بعضها،كثير من العرب يرقص رقصاً عظيماً، وانتفض سويلم ليرد على هذه الطعنة مستنكراً، لا يا عبدالله نحن ما عندنا رقص قال: أنتم ما عندكم في «العوجا»

«وقمران»، ولكن فيه يا سويلم رقص في المدن من عمان، وبغداد، ودمشق، وبيروت، ا.. يه والقاهرة فيها أكثر، وحتى القدس... يا سويلم... وهنا انكر سويلم هذه التهمة الشنعاء، وقال: والله ما أعرف أن في القدس مثل هذا، غير كان (سواحكم) هم الذين يرقصون.. فضحك عبدالله على غضبة صاحبه، وقال: لا تغضب يا سويلم، أنا أعرف منك بهذه المدن، لاتخف،كل الذي تعلّم منا يرقص مثلنا... وأنت إيش يهمك تعلّم الرقص، ودور مع لورا مرة أو مرتين، أنا واثق أنك ستكون أمهر مني في الرقص، جرب وانت (تنبسط) تماماً... جرّب! وقال سويلم في نفسه: والله هذه آخرها:ارقص يا سويلم، وتذكر سويلم الرقاصين والسفهاء، وتذكر أن مثل هذا العمل لا يمكن أن يقوم به إلا النور في بلادهم... وهنا عاد ليدحض رواية عبدالله... فقال له: أنت تعني النُّور الذين يرقصون في بلادنا؟ قال عبدالله مسكين يا سويلم... لا ليس النُّور وحدهم... فيه نور كثير.. كثير يا سويلم.

(٣٥)

كان سويلم يظن أن عبدالله حين تحدث عن الرقص والراقصين في البلاد العربية، إنما كان يتحدث عن النُّور، ولكن عبدالله خيب ظنه قائلاً: بالتأكيد أن هناك (نور كثير) في البلاد العربية وجعل يروي لسويلم مشاهداته لحفلات الرقص التي تقام أحياناً في المدن الكبيرة التي زارها في الوطن العربي، وقد ألجمت الدهشة لسان سويلم، فلا ينبس ببنت شفة، ولا يستطيع أن يكذبه، ولا أن يؤمن على كلامه، صحيح أن سويلم كان قد رأى من يلبس ملابس هؤلاء الرجال، ولكنه لم ير ولم

يسمع بمثل هذا الذي يحدث الآن، وقال سويلم في نفسه: ربما كان ما يقوله حقاً، ومن يدري ماذا يحدث وراء تلك الأبواب المغلقة والقصور الشامخة؟

ولقد احترمت نيلي صمت سويلم وتجاعيد الهم على وجهه، فسحبت يدها من يده، وكفت عن مداعبته، وتناولت بدلاً عنها جرعة كبيرة من الآنية الفخارية أمامها، وماريانا ما زالت تمد عنقها إلى عبدالله، والمستر ولورا مشغول كل منهما بنفسه. . ولكن المستر انتفض مرة واحدة، ووقف يرطن بضع كلمات، وإذا بنيلي تتحرك إلى جانب سويلم، والمستر يتوسط بينهما وبين لورا، وأخذ يمسح خد الأخيرة، ويبدأ معها رطناً يتخلله الضحك، وقد قربت نيلي إلى سويلم وهي تدندن موسيقى لطيفة، وتهز نفسها، وسويلم يحس بنفسه مفكك الأعضاء والتفكير لكثرة ما تعرض له من مفاجآت. . . . وهم على هذه الصورة ضج الملهى بصوت يشبه الرعد تصفيقاً وصراخاً وآهات، فتطلع سويلم إلى حيث الستارة، فإذا برجل بادي الشيخوخة، وما أن تملى منه عبدالله والجماعة حتى انفجروا في قهقهة متواصلة، وحتى اضطر سويلم أن يهم معهم، ونيلي تميل عليه من شدة الضحك.

لقد كان سويلم يظن أن القوم يضحكون مما أصاب عقولهم من الخمر، ولكنه وبعد محاورة عبدالله العاقلة، وبعدما رأى من لورا كيف جلست متزنة حين أرادت، أدرك أن هذا الخمر لم يؤثر في عقولهم بعد، وأنهم إنما يضحكون الآن من شيء مضحك حقاً. . . وشكل الرجل يدعو إلى الضحك فعلاً ولكنه بمجرد ما ينطق بضع كلمات، وحتى أحياناً قبل أن يفتح فاه ينطلق هؤلاء الناس في الضحك. . وقهقه سويلم

وهو يقول لعبدالله؛ هذا عندكم، وأشار إلى الرجل الواقف (أراجون) قال له: بل هذا أكثر، هذا الرجل شيخ يتحدث عن ذكرياته في باريس أنت في حاجة أن تسمع ما يقول يا سويلم لتعرف أن الرقص ضروري، وأنك يجب أن ترقص، وترفه عن نفسك !

قال سويلم: أنا وحياتك مبسوط جداً يا عبدالله معكم بدون رقص، ولكن ماذا يقول هذا الشيخ بين هؤلاء الشباب الذين يتلهفون على كل كلمة تخرج من فيه؟ قال عبدالله: إنه يتحدث كما قلت لك عن رحلة قام بها إلى باريس، وكيف أن صاحب الفندق الذي نزل فيه سأله إذا كان متزوجاً أو بمفرده، فقال له: بل أنا بمفردي فقال: إذن نرسل لك زوجة هذه الليلة... فقام بعض الحاضرين يسأله أين ذلك الفندق؟ فضحك الشيخ وقال: كان ذلك عندما كنت شاباً أظن أن الفندق أغلق الآن، وحلت محله فنادق أخرى أعظم وأفضل خدمة للزبائن.... قال سويلم؛ عندكم هنا يضحكون على باريس، ويسألون عن ذلك الفندق، ترى كيف باريس؟

قال عبدالله: ذلك ما نرجو أن تراه بنفسك حين تمر بباريس بعد أيام... وهنا ضج الجميع بضحك هستيري، وانطلق عبدالله معهم، ونسي سويلم تماماً والجميع على لسان واحد (آه..).

وأمسك المستر بلورا، وأمسكت ماريانا بعبدالله، وحين انحنت نيلي لتنام في حضن سويلم في غمرة الضحك، قفز هذا فوقع الكرسي، وسقطت هي على الأرض، وتحركت الطاولة، ووقعت الأواني الفخارية، وانطلق المستر يقهقه، ويتأوه، وقد احمرت حدقتاه، وهو يمسك بنيلي من

ساقها ويدها، ويحاول أن يجرها إلى أعلى ويرفعها على الطاولة . . . جرى كل ذلك في لحظات معدودة، لم يدر سويلم كيف بدأت، ولكنه أصبح على مثل اليقين أن الخمر فعلت فعلها الآن، وأن القوم قد فقدوا عقولهم حقاً، وتلفت سويلم مذعوراً تدفعه غريزة الخوف وحب البقاء، تلفت إلى الطريق، وكان قد تحرك إلى زاوية الطاولة بحيث أعطى ظهره للمسرح، ووجهه إلى جماعته، لقد تلفت إلى الطريق التي جاء منها، فوجدها كتلة من البشر الذي فقد عقله تماماً مثل هؤلاء القريبين منه، ولم يكن أحد من هؤلاء جميعاً يدري عن نفسه فضلاً عن أن يعرف ما حل بسويلم، حتى عبدالله انشغل بماريانا يضمها ويضاحكها، والمستر قد أمسك بساق نيلي وبيدها، وقد أخذه الحماس، ونيلي في شبه إغماء من الضحك، ولورا تمسك بالمستر ضاحكة لتمنعه، وقد انحسر ثوب نيلي الضيق، فأشاح سويلم بوجهه، وهو يستغفر الله، ويستعيذ من الشياطين، وقد نسيه القوم تماماً، وأصبحوا يتصرفون وكأنه غير موجود . . . .

(٣٦)

وكان الشيخ الساحر على حاله من المسرح يرقب هذا الجنون في لذة وسرور، ولقد تصور سويلم أنه الوحيد الذي لا يزال يتمتع بقواه العقلية، لأنه لم يكرع كما يكرع هؤلاء من أباريق الخمر، ولكن عقله هذا القوي الرزين الذي أمسك به لكي لا يتردى في هذه الهاوية، يوشك أن يطير من رأسه خوفاً ورعباً مما قد يحل به، وكان سويلم يحفظ في نفسه صوراً مرعبة للناس حين تلعب برؤوسهم الخمر، فهم قد

يرتكبون من الجرائم ما لا يخطر على قلب بشر، ولقد حاول سويلم أن يحتفظ بفكره سليماً كما كان، ولقد حاول فعلاً أن يجد له فرجة من بين الكتل البشرية المكدسة أمامه، وطفق القوم يضربون أكفهم في صوت متناسق، وسويلم كالفأر في المصيدة، ثم أومأ الشيخ بيديه، فسكت الجميع، وكأن على رؤوسهم الطير، وقال بضع كلمات ضج القوم فيها بما لم يحدث من قبل بالضحك والصفير، ولكن سويلم شاهد مع هذه الضجة حركات جديدة، فقد أخذ أفراد كثيرون من الذكور والإناث يقبلون بعضهم بعضاً، هكذا على مرأى من بعضهم البعض، ثم رآهم يقفون، وإذا بالشيخ ينحني، فيحييه الجميع بضربة واحدة، ثم أخذ الناس يقفون متثاقلين كأنهم لا يريدون أن ينهضوا، أو يخرجوا من هذا المكان، ووقف عبدالله وماريانا والمستر ولورا، وكان سويلم أول من نهض منهم، وهو لا يدري كنه هذه الحركة إلا حين بدأ الناس ينتظمون صفوفاً للخروج، فأحس سويلم أن شيئاً ثقيلاً قد بدأ ينزاح عن كاهله، وتقدمت ماريانا الصف، وتبعتها نيلي ولورا، وخلفهن المستر، وجر عبدالله سويلم أمامه، فأصبح بينهما، كان العرق يتصبب من جسم سويلم، وكان عقله من التشويش بحيث لا يتذكر إلا أنه قد آن أوان الخلاص، وحتى تلك اللحظة لم يستطع سويلم أن يحلل كنه الضيق والقلق والخوف الذي انتابه، لا يذكر إلا أنه وُضِعَ في مأزق لم يدر كيف الخلاص منه، ومضى سويلم خطوة خطوة لا يحس بأن قدميه تحملانه، وزحمته امرأة ضخمة الجثة في صف آخر بجواره، ولكنه لم يلق لزحمها بالاً، فقد جرب ما هو أدهى وأمر، ووصل سويلم إلى الساحة يسير مع كتلة واحدة، وقد كاد أن ينسى المعطف لولا عبدالله قد أخذ بيده، وقاده

إلى حيث قدم ورقة إلى تلك المرأة، فأعطته معطفه، وأسرع عبدالله والمستر يلبسان لورا وماريانا معطفيهما، ثم خطف عبدالله معطف نيلي وهي تتلكأ في انتظار من يلبسها المعطف. . .

لقد أحس سويلم بنفسه، واسترجع أنفاسه، واستنشق هواء يختلف عن الهواء في الداخل، وتطلع إلى المرايا كانت على حالها، وإذا (بكشرة) مخيفة على وجهه جعلت أخاديد من التجاعيد على جبهته، فحرك كتفيه، وتنفس نفساً طويلاً، وابتسم قليلاً ليرخي عضلات وجهه، ثم نظر فإذا بعبد الله قد تأبط ذراع ماريانا ولورا معاً، وانضمت نيلي إلى المستر، وبدا وكأن القوم جميعاً قد انشغلوا بأنفسهم، إذ لم يقدموا سويلم، أو يمازحه عبدالله كالعادة، ولكن الرجل لم يشك في صاحبه، لقد رد ذلك إلى ذلك الشراب الدعين ،الخمر، وعند الباب فلت سويلم وهو يشاهد السيارات غادية رائحة، وقد اندس المستر ونيلي هذه المرة في السيارة، وبقيت لورا وماريانا مع عبدالله، واندسوا في سيارة أخرى ثلاثتهم، ودخل سويلم إلى جانب السائق. .

كان ما مر كالحلم المزعج، لقد تطلع سويلم من خلال نوافذ السيارة نحو النجوم ليقدر الوقت، فلم يكن يحتفظ بساعة، فرأى الثريات الكهربائية تشكل نجوماً أخرى لا يستطيع أن يخمن ما مضى من الليل على أساس أماكنها وإشعاعها، وكانت السيارة تمضي مسرعة، تمر بسيارات أخرى، لا يكاد يلوي عنقه ليرى ما يحدث في المقعد الخلفي، حيث يتمركز عبدالله بين الاثنتين، وحين وقفت السيارة قفز سويلم، وحاول مرة أخرى أن يرخي عضلات وجهه، فقد قدر أن (الكشرة) قد عادت إليه، وابتسم، وقد ظن أنه سيودع لورا وماريانا،

ولكنهما نزلتا مع عبدالله، ومضى السائق في طريقه، ووقف خدم الليل في الفندق يمارسون المراسيم العادية: يفتحون الباب، وينحنون كأن الدنيا في عز النهار!

ووقف سويلم لا يدري ماذا يفعل، وصديقه بين الآنستين، وفي سكون ناوله الخادم المفتاح، وبكلمة من عبدالله مشى أمام سويلم، وانتقل سويلم لا يلوي على شيء، لم ينبس ببنت شفة، لم يقل تصبحون، أو تمسون على خير، لقد خيم على عقله غلاف أسود، فنسي هذه المجاملات، ولم يتسرب إلى نفسه الندم إلا حين استلقى على السرير إياه قبل أن يلقي بحذائه إلى الأرض.

لم يغب عن فطنة سويلم لماذا جاؤوا ثلاثة من الرجال مع ثلاث من الإناث، لقد بدأت الأمور تتضح إليه تماماً، ولم يكن سويلم من خريجي الأزهر، أو أولياء الله قراء القرآن الذين لا يقربون بنات الهوى، ولكن سويلم يخاف، كان سويلم يمسك بنفسه من الانزلاق فيما حرم الله خوفاً مما يعرف أنه سيحل به، وما يعرفه سويلم كفيل أن يقشعر البدن، وأن يبخر كل إغراء شهواني يداهمه كان سويلم يتصور أنه لو فعلها، فكأنه ينظر إلى أعضائه ممزقة بين السماء والأرض، وقد تمزقت الطائرة، وكان سويلم يعتقد أنه لو اعتدى على عرض، فإن أحداً سيعتدي على أم سليمان، أو حتى ممكن أن يورث هذه (العملة) لبناته، فيعتدي عليهن المعتدون، أو أنه سيصبح فقيراً، وسويلم لا يحب الفقر، يحب أن يعيش مستوراً، فهو إذن لا يستطيع أن يعتدي على عرض أحد... وتنهد سويلم، وقد تسرب الاطمئنان إلى نفسه وهو يقول: الغريب لازم يكون أديب...

(٣٧)

لقد نام سويلم مطمئناً بعد أن راجع تصرفه مع القوم في تلك الليلة، ولكنه لم يكن يعرف انعكاس تصرفه على السيد عبدالله بعد أن يفيق الأخير مما هو فيه، وحين استيقظ قام نشيطاً، وذهب إلى المرآة، ثم حلق ذقنه، وتمنطق بملابسه الإفرنجية، ووقف مرة أخرى أمام المرآة، فلما رضي عن هندامه أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً في انتظار ذلك الجرس الذي كان عبدالله في العادة ينبهه به إلى الخروج ولكن الجرس لم يرن كان كل شيء هادئاً في ذلك الفندق الفخم، حتى لقد خيل لسويلم أن الدنيا ما زالت ليلاً، وانتظر الرجل فترة أخرى من الوقت، ولكن أحداً لم يفتح عليه الباب أو يزعجه بذلك الجرس الذي يأبى ذلك اليوم أن يتكلم، وبحذر شديد فرك سويلم مقبض الباب الخارجي، وأطل برأسه يمنة ويسرة، فلم ير إلا الأنثى من خادمات الفندق، ورجل خرج من غرفته طويل القامة يمر بسويلم، فلا يرد السلام، وكأن بينه وبين سويلم شيئاً، ولكن سويلم لم يلق بالاً إلى تصرف الرجل غير اللائق، وهما وحدهما في ذلك الممر، بل عمد إلى الدرجات يهبطها بعيداً عن تلك الزنزانة التي تهبط وتصعد في سرعة البرق، لعله أن يقابل عبدالله، أو يجده على الرغم من أنه لا يعرف الآن غرفته، أو المكان الذي يستقر فيه . . .

ووصل سويلم إلى الأرض وهو حيث يقف الخدم ينحنون إلى الزبائن، ولكنه لم ير عبدالله، ودلف إلى الساحة، ثم لحظ قاعة الطعام، فلم يجد فيها صاحبه، لقد بدأ القلق يتسرب إلى نفسه، فهو يذكر أن عليهما أن يسافرا اليوم إلى مكان آخر، فلماذا تأخر عبدالله، وهنا تذكر

سويلم أنه يعرف الألمانية، فاقترب من الأنثى التي تقف وراء الطاولة المستديرة، وتحتفظ بالمفاتيح، وقال لها: (جودن تاك)، فبدأ السرور على وجهها ووجوه من حولها وهي تكرر له الكلمة، وتبتسم، وهنا نسي سويلم هذه اللغة، فقال بالعربية: (عبدالله أين...)، ثم أشار بأصبعه إلى نفسه، كأنما ليقول لها: صاحبي، ولم تكن المرأة تعرف هذا الاسم (عبدالله)، ولكنها فهمت ما يريده الرجل، فأسندت رأسها إلى كفيها وهي تقول، (أخ.. خ)، وقد أسبلت عينيها، فضحك سويلم، وانحنى أمامها كأي زبون مهذب، وقد أدرك أن صديقه ما يزال في سبات عميق، فعاد إلى المصعد والذي يدعوه بـ (الزنزانة)، وهمز ذلك الزر الذي يربطه قريباً من غرفته، وعاد إلى سريره يتمدد عليه في انتظار أن يفيق عبدالله من نومه العميق، وهو يقول في نفسه: (إنه معذور...)

وحين أفاق عبدالله، وطلب فنجان قهوة له ولصديقته ماريانا، أخبر أن صاحبه ذلك الغريب كان يسأل عنه، فانزعج عبدالله، وكان قد نسي سويلم تماماً، فرن الجرس لأول مرة في غرفة سويلم، وحين رفع السماعة كما أخبره عبدالله أن يفعل كان صوت عبدالله يحييه ويسأله عن الصحة، ويطلب إليه أن يهيء نفسه للسفر، فقال سويلم: إنني مستيقظ من ساعات، فقال له عبدالله: وأنا سأكون جاهزاً في خلال ثلث ساعة، ورن الجرس مرة أخرى بعد فترة ليقول لسويلم: أنا أنتظرك تحت، فهبط سويلم بسرعة ليجد نفسه وجهاً لوجه مع عبدالله وماريانا، وأدرك أن الاثنين باتا سويا...

لقد كان سويلم نشيطاً بادي الانشراح، ولكنه كان يحس في أعماق

قلبه بشيء من الأسى والحزن، ذلك أنه لم يقدر أن صديقه عبدالله يمكن أن يكون هكذا، ولكنه كان يراجع نفسه، الرجل ليس من مِلّتِكَ، وما يدريك من عاداتهم يا سويلم . !

صباح الخير، وعبدالله يبادله التحية، كانت عيناه حمراوين، وكانت عضلات وجهه متهدلة، وظهر كأنه شيخ كبير السن، ولقد حيا سويلم ماريانا وهو يغض بصره عنها، ويحس نحوها باحتقار وشفقة معاً لقد كان عبدالله هو الملوم في نظره، أما هي، فإن ما سمعه سويلم عن بنات الهوى لا يستكثر عليها شيئاً.

وعلى الرغم من الإعياء البادي على عبدالله، فقد كان يتصرف تصرفاً طبيعياً، بل كان أكثر تحبباً إلى سويلم، فقد مد يده على كتفه، وأخذ بيده الأخرى بيد ماريانا، وقادهما إلى قاعة الطعام، وهذا التصرف هو الذي لفت نظر سويلم، وأثار استغرابه، ولم يكن تصرف عبدالله وحده الطبيعي، بل كان تصرف الخدم، وتصرف ساعي المطعم، وتصرف ماريانا أيضاً. . .

لقد ارتبك سويلم قليلاً حين واجههما لأول مرة، ارتبك حياء أن رآهما معاً في تلك الليلة، وقد كان يوشك أن يقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يكشف هذا السر، ولقد أمر الله بالستر، لقد كان يوشك أن يقطع وعداً لعبدالله أن يطمئن، وأن السر في بئر، ولكن من الواضح أن عبدالله ليس في حاجة إلى هذا الوعد، وكذلك ماريانا، وها هم خدم الفندق لا يتغامزون، ولم يبد عليهم ما يثير الغرابة والدهشة، وحين اطمأن سويلم على المائدة قبالة عبدالله بدأ الاخير يسأله عن نومه وعن راحته،

ولعله قد سر ليلة أمس، ثم التفت إلى ماريانا، ومد يده يربت على فخذها، فضحكت، ولأول مرة تفرس سويلم في وجه المرأة كانت هي الأخرى مهدلة الخدود والعينين، منفوشة الشعر، ولكنها ابتسمت في وجهه تماماً كما فعلت عندما رآها لأول مرة لم يبد عليها ما يدل على أنها فعلت أمراً إذاً . . وجاء الطعام، وتناوله الجميع بشهية، وقد انشغل سويلم بمحاولة تفسير هذه الظواهر، يا سبحان الله . . . . أليس لهذه المرأة رجل، ثم ألا يستنكر هذا العمل هؤلاء الناس، أم إنها يا ترى زوجة عبدالله، وإن الأخير قد أخفى عنه هذه الحقيقة، ليفاجئه فيما بعد بها، ولكن لا، أين لورا، وأين نيلي التي ذهبت مع المستر؟ من المؤكد أنه لو رضي لكانت لورا تفهم الآن إن شيئاً غريباً في عادات القوم لا يستطيع سويلم له فهماً، ولم يجد له تفسيراً، ولكنه بدوره بدأ يبادل عبدالله الأسئلة، لقد كانت ليلة طيبة عساكم ارتحتم في النوم، فضحك عبدالله وهو يترجم إلى ماريانا، ويقول لعبدالله: لقد كانت ليلة عظيمة حقاً بوجود الست، وأشار إلى ماريانا . . .

وحين خرجوا من قاعة الطعام، وجدوا حقائبهم كلها قد جمعت قريباً من باب الفندق، وكان واضحاً أنهم سيسافرون حالاً .

لقد أحس سويلم بميل شديد إلى خدم الفندق، كانوا أناسا في غاية الظرف والأدب، فودعهم واحداً واحداً، ثم انزلق إلى السيارة، وقد انحنى عبدالله يقبل في خشوع يد ماريانا، فأدرك سويلم أنها ستفارقهم، وأن عليه أن يودعها هو الآخر، فقفز من السيارة، وصافحها، ومضت إلى حيث لا يدري في سيارة أخرى، وقد انطلقت

سيارتهم إلى المطار. . . . .

(٣٨)

لقد أرخى سويلم نفسه في المقعد لم يتحدث إلى عبدالله، أو يتطلع في وجهه، وحتى غريزة حب الاستطلاع، والتفرج على المناظر من نافذة السيارة قد همدت في نفس سويلم، لقد كان مشغولاً بنفسه كثيراً، فلم يفطن إلا وعبدالله يهزه ليخرج، وتعاون الاثنان في حمل الحقائب، وسلموها إلى عمال المطار.

كان المستر بقامته المديدة يبتسم مرحباً بهما في قاعة المطار، ومن الواضح أنه جاء مودعاً، وكان يتأبط أوراقاً، وقد جلس هو وعبدالله يقلبانها، ويرطنان طويلاً، لقد كانت الإجراءات بسيطة، لم يحس سويلم بشيء غير عادي كما يحدث في بلاده كالتفتيش، أو الأسئلة، بل لم يستطع أن يفرق في المطار بين الموظفين والمسافرين إلا حين تجمعوا على باب بناية المطار، ليدلفوا إلى ساحة الطائرات... وعندها التفت سويلم ليشكر المستر بشكل روتيني، وقال لعبدالله: إن شاء الله نشوف المستر في بلادنا، فسر الرجل كثيراً بشكل أدهش سويلم، وقد قال عبدالله: ترجمة عنه إنه يرجو أن يلبي هذه الدعوة، ولقد ظل واقفاً يلوح بيده إلى أن اختفى سويلم وعبدالله في جوف الطائرة.

كان كل شيء كما ألفه سويلم في السفرة الأولى: المقاعد، وتلك الأنثى التي تروح وتغدو لخدمة الركاب كان كل شيء كما رآه لأول مرة في الطائرة التي جاء بها من بلاده بفرق واحد، وهو زحمة الركاب كان كل شيء طبيعياً، ولقد تفرس سويلم في الركاب كانوا شيباً، وشباناً ونساء، ورجالاً، منهم ضخم الجثة، ومنهم الرشيق النحيف والأنثى المضيفة

فارعة الطول تعاون آباء الأطفال، فقد كان مع بعض الركاب أطفالهم أيضاً وتدللهم، وقد بدأ صدر الطائرة يهدر، ومد الركاب أيديهم إلى ذلك الحزام الذي يشدون به أنفسهم إلى المقعد، وتناوله سويلم كما تناوله عبدالله في صمت، وسحلت الطائرة في سهولة ويسر، غير أنه خيل لسويلم أن مفاصل الطائرة تئن تحت ثقل حمولتها، ولقد هم سويلم أن يحدث عبدالله، وأن يعترض على حمولة الطائرة، ولكنه كظم ما في نفسه وهو يلحظ بطرف عينيه أرض المطار، والطائرة تمر من فوق الأشجار مر السحاب، ثم تختفي الأرض والأشجار والأبنية، وتمضي الطائرة على بساط الريح كأنها جاثمة على الأرض، وقد شرعت المضيفة في تقديم المرطبات للزبائن، ولأول مرة التفت سويلم إلى عبدالله، فكان الأخير يغط في نوم عميق . . .

لم يحاول سويلم إزعاجه، وأخذ في رشف فنجان الشاي الذي قدم إليه في صمت، وكان الركاب منهمكين في ما يأكلون لا يحدث أحدٌ أحداً، وكانت المضيفة قليلة الكلام، ليست كتلك التي التقى بها في الطائرة الأولى، فآثر أن يتلهى بالتطلع من النافذة إلى الأفق البعيد، لقد كانت السماء تصفو أحياناً فتنجاب القطع السوداء عن الأرض، فيظهر المخلوقات وما صنعت، أو ما زرعت أيديهم خطوطاً سوداء لا يكاد سويلم أن يفرق بينها، ولقد أحس سويلم بانشراح وطمأنينة أين منها قلقه وخوفه حين اعتلى متن الطائرة للمرة الأولى؟ إن الحصان يجمح، وإن الجمل يخون، وإن الحمار (إذا جد قمص)، ولكن هذه المركبة الهوائية تسير كأن المرء يمتطي فيها سريراً (هزاز) وتنفس سويلم طويلاً وهو يقول: يا سبحان الله!

ولكنه لم يدر بخلد سويلم أن جماح الحصان، وخونة الجمل، وقماص الحمار، وحتى خراب السيارة لا يمكن أن يقارن بهذه الآلة حين تصارع الرياح، أو حين يكف واحد من أمعائها عن توصيل طعامها من البنزين، أو دمائها من الكهرباء، وعلى حين فجأة وسويلم مسترسل في أفكاره يستعرض ذكرياته في تلك الليلة، وبين الحين والحين تطل عليه أم سليمان بنقابها فجأة مالت الطائرة ذات اليمين وذات الشمال، ووقع طفل في حضن أمه، وسقطت حقيبة من فوق رأسه، وأحس سويلم أنه يهبط من جرف لا نهاية له، ولأعماقه، وتطلع في عيون الناس كان الرعب قد رسم فيها علامات مميزة، وبدون تروي لكز سويلم عبدالله الذي هيأته حركة الطائرة لليقظة التامة، ودخلت المضيفة بسرعة في باب بصدر القاعة، وبعد لحظات رطنت بعض الكلمات، فتلفت الركاب بوجوه بعضهم بعضاً، ولكن الطائرة لم تمهلهم ليكملوا هذه النظرات الهادئة وإنما مالت مرة أخرى ذات اليمين وذات الشمال مع طقطقة في مفاصلها، مما أدخل الرعب في مفاصل سويلم، وبدأت الطائرة ترتفع إلى أعلى، ثم تهبط، وكأنها تقوم بحركات رياضية، وحين كانت تهوي وترتفع كأن شيئاً يشد مهجة سويلم إلى أسفل لقد كان الموت، ترى أهذا عقاب الذي يقعد تلك الجلسة الملعونة مع بنات الهوى، ويتفرج على شاربي الخمر؟ لا إله إلا الله، قالها سويلم وهو يتمتم بأدعية، وقد صغرت الدنيا عنده، وكأنه يقابل يوم الحساب، وقد ذهل عن حركة الناس داخل هذه الآلة التي جنت، فأصبحت تفعل فعل الحمير والخيل والجمال حين تفقد عقلها، تفعل ذلك ليس على الأرض، ولكن في كبد السماء.. وحمد سويلم ربه أن جريمته لم تتعد الجلوس، وحمد الله مرة

أخرى أنه لم يطاوع إغراء الشيطان، إذن لقابل ربه الآن خزيان أسفاً.

(٣٩)

لقد أخذ سويلم يستعد في أعماق نفسه إلى لقاء الله، وقد تصبب جسمه عرقاً والطائرة تعلو وتهبط، وتميل شمالاً ويميناً، وحتى عبدالله الذي كان ينظر إلى الأمر بغير اكتراث بدأ يتململ قلقاً، وفي غمرة الخوف والرعب من المصير المجهول تذكر سويلم ذلك النذر الذي وعد به أن يقدمه لله عند رجوعه سالماً، وبدون روية بدأ يعيد ذاكرته، ويتمتم دعوات، فأحس بالطمأنينة تهبط إلى نفسه، وأحس كأن يداً عظيمة تمسك بيده تحميه وتهديه، فالتفت إلى عبدالله باسماً وكأن الأمر لايعنيه ما الذي حدث إلى راحلتنا... حتى بدأت تقمز هذا القماز الذي يوشك أن ينزع أرواحنا لقد عارت (يعني جمحت) يا عبدالله الظاهر أن خيالها قد نخزها بالمهماز فأوجعها، فضحك عبدالله في غير موضع للضحك، والتفت الركاب في عجب إلى هؤلاء الذين يستقبلون الموت بهذه السخرية قال عبدالله: ولكنها ليست فرساً يا سويلم إنها آلة لو فلت منها (برغي) لضعنا مزعاً بين السماء والأرض، فضحك سويلم، وقال: (المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين) يا عبدالله، سلمها لله، وابتسم عبدالله وهو يتفرس في وجه هذا الأعرابي السليم الفطرة، الذي يصل به الاطمئنان إلى القضاء والقدر، إلى هذاالحد، ولقد قرأ عبدالله كثيراً عن اتكالية الشرق، وعن إيمانهم بالقضاء والقدر، وعرف كيف أن هذا الإيمان قد أصبح من عيوبهم المزمنة التي لا يرجى نهوضهم بسببها، ولكنه وفي هذه اللحظة أحس أنه في حاجة إلى مثل هذا الإيمان الذي يتسلح به سويلم، والذي يجعله في مثل هذا الموقف المخيف هادئاً مطمئناً،

وأخذ عبدالله يحلل هذه الظاهرة في سويلم، ويذهب إلى الأسباب البعيدةوالقريبة، وإلى جذور الأشياء التي نمت وترعرعت، فجعلت مثل هذا البدوي على مثل هذه الصلابة في اعتقاده دون أن يدرك كيف كان ذلك، أو من أين جاءت هذه الصلابة في الاعتقاد، وعبدالله يقلب الأمر على وجوهه، وقد شعر من جديد بأن الشرق هو أبو الأسرار فعلاً، وسويلم يسأله : قل ما الذي حدث؟ قال عبدالله: إن الطيار يقول: إن عاصفة ثلجية تجتاح المنطقة، وهذه من شأنها أن تفعل مثل ما ترى في السطائرة، ومن شأنها أيضاً أن تمنع الطائرة من الهبوط في أي مطارتظلله، ومن المحتمل جداً أن لا نصل اليوم إلى همبورغ، والطيار الآن يحوم يفتش عن مطار ينزل فيه، ومن الجائز جداً أن يرى أنه لا بد من العودة إلى المطار الذي أقلعنا منه اليوم.. أنت تعرف أن هذه البلاد هي بلاد العواصف والضباب، إن الشمس التي تشكون حرها في بلادكم يتمناها الناس كما تتمنون سقوط المطر عندكم....

وأطلت المضيفة صفراء الوجه على الرغم من أنها تحاول أن تطمئن الركاب، ولكنها قالت: كما ترجم عبدالله لسويلم إن ما في الطائرة من زاد البنزين لا يكفيها لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة، وأطلق أحد الركاب صفيراً جنائزياً كأنما يحتفل بنقل جثمان نفسه سلفاً، ودارت الطائرة دورة طويلة، قال عبدالله: ليس أمامنا إلا مطار واحد لننزل فيه.. لقد كان الأمر خطيراً ودارت همهمة بين الركاب، وصرخت امرأة وهي تضم طفلها إلى صدرها كأنما لتخنقه، ووقف عبدالله ليمسك بالمرأة من الواضح أنها فقدت عقلها رعباً، وقد تكتل الركاب من حولها حتى خيل لسويلم أن الطائرة بدأت تفقد توازنها مع حركة الركاب، وهو على مكانه

لا يريم، وخرجت المضيفة مرة أخرى، ورطنت غاضبة على الركاب، وكان واضحاً أنها قد طلبت منهم أن يجلس كل واحد مكانه، فتفرق الجميع في لحظات عن المرأة، وجاءتها المضيفة تلاطفها، وتحاول أن تسحب الطفل من بين يديها الذي بدأ بدوره يصرخ صراخاً أنسى الناس ما هم فيه من بلاء، وفجأة بدأت الطائرة تهبط، وقد ظن سويلم أنها النهاية، ولكنه لاحظ أن الناس بدؤوا يتنفسون الصعداء، قال عبدالله: لقد استطاع الطيار أن يهبط يا سويلم في مطار فرانكفورت، وها نحن في طريقنا إليه، قال عبدالله: إنها بعيدة جداً، ولكن لئن نتأخر أفضل إلينا من أن نموت، وفعلاً هبطت الطائرة، وكانت صفارات الإنذار تدوي، وكان حراس المطار يتوقعون أن يحدث شيء بالطائرة.

كانت المرأة قد أصابها شبه إغماء، ولكن الركاب اندفعوا إلى الباب لا يلتفتون إليها، ودس سويلم نفسه في المعطف، وخرج وراء عبدالله وهو يهنئه بالسلامة، ويقول له: كل (تأخيرة وفيها خيرة) نستطيع أن نرى هنا بلاداً جديدة أهذه أيضاً من بلادكم يا عبدالله؟ قال: نعم، قال: سبحان الله أنتم كثيرون، قال عبدالله: مثل العرب تماماً، قال سويلم: هذا إذن سبب صداقتهم؛ لأن عندنا يقولون: الألمان أصدقاء العرب، فسكت عبدالله، ولم يجب، ولكنه نزل درجات سلم الطائرة وقد وقفت سيارة لنقل الركاب إلى بناية المطار، وكان المفروض أن ينتظر عبدالله وسويلم صفاء الجو ليعتليا متن الطائرة مرة أخرى، ولكن عبدالله آثر أن يمر بمدينة أخرى ليتفقد فرعاً آخر لشركته في تلك المنطقة، وقال لسويلم: إننا إذا لم نجد طائرة تقلنا، فسنرحل بالقطار، ولم يطل بهم الانتظار، فقد صمم عبدالله فعلاً أن يسافر بالطريق البرية، وكانت

فرصة لأن يرى سويلم من المناظر ما لا يزال محفوراً في ذاكرته إلى اليوم.

(٤٠)

كانت العاصفة قد أسقطت بعض حملها خارج بناية المطار، وكان الريح عاصفاً، وحمل سويلم وعبدالله الحقائب إلى سيارة حملتهم بدورها إلى محطة القطار.

لقد كانت تلك المحطة دنيا قائمة بذاتها: بسمائها، وأرضها وأناسها، وكان سقف السماء بعيداً لم يستطع سويلم أن يتابع الأعمدة التي يستند إليها، وكانت القطارات يتعالى صفيرها وتغدو وتروح كل لحظة، وعند بوابة معينة وقف سويلم وعبدالله، وتناول الأخير تذاكر، ثم تركا حقائبهما، ودخلا تلك البوابة إلى رصيف طويل.

لقد كان سويلم مهدود القوى، تعباً من تلك المحنة التي مر بها بتلك الطائرة المنكودة، وقد كان حرياً أن يسأل عبدالله عن الناس المتجمعين على رصيفهم، والأرصفة المتقابلة، وكان حرياً أن يسأله عن الحوانيت المحيطة داخل هذه المحطة، أو المدينة التي تموج بالناس كالنمل، وكان يود سويلم أن يستفسر عن هذه السماء التي يزوغ البصر بالنظر إليها، ولكن سويلم لم يفعل لقد كان مكدود الذهن، مهدم الجسم كما قلنا، فتهالك على أول مقعد وصل إليه، وظل عبدالله يروح ويغدو واضعاً يده في جيبه، والناس كلهم يروحون ويغدون على ذلك الرصيف كأن بهم مساً من الجنون إلا مجموعة صغيرة من الشباب السمر، يبدو أنهم من البلاد الحارة شمسها وأرخى سويلم أذنيه لعله أن

يسمعهم يتحدثون العربية، ولكنه لم يفهم مما يقولون شيئاً، فقال سويلم في نفسه: سبحان الله، وتطلع إلى صديقه وهو يروح ويغدو، وقد عجب من تصرفه، فناداه: مالك تتعب رجليك؟ تعال ارتاح يا رجل. . . وأفسح له المكان، وعندها انثنى إليه عبدالله وقد ملأه الرعب قم يا سويلم قم يا سويلم، وأخذ بيديه وسويلم لا يستطيع أن يفقه لهذه الحركة سبباً، فأطاع عبدالله، وأخذ يهرول معه ذهاباً وإياباً، ولكنه التفت إليه ما الذي أصابك يا رجل، وقد خيل لسويلم أنه لا يزال لحادث الطائرة تأثيره على عقل صاحبه، فتابع حديثه، ما بالكم تمشون هكذا (كالملموسين) الذين أصابهم الجن؟ ـ وعبدالله يشده وقد وضع يده تحت إبطه دون أن يلقي بالاً إلى حديثه، وبعد برهة قال له: يا صديقي لقد نسيت أن أنبهك إلى هذه النقطة المهمة في بلادنا، وهي: الحرارة الآن قد وصلت إلى الصفر، أو بالأحرى أن الدنيا عندنا متجمدة الآن، وحين يكون المرء في مثل هذا المكان الذي لا توجد فيه دفايات لتلطيف الجو البارد، يتجمد الناس أحياناً وهم قعود، وقد يكف قلب الإنسان عن الحركة دون أن يشعر ودون أن يحس لذلك مقدمات، لقد كان خطأ كبيراً في حقك، لقد نسيت. . .

ولم يكمل عبدالله حديثه، فقد تحسس سويلم قلبه لئلا يكف عن الحركة دون مقدمات، ولم تكن خطوات عبدالله كافية لاقناعه بأنه ما يزال يتحرك، وأن قلبه لم يتوقف لقد أخذ سويلم يقفز كالجندب من آخر الرصيف من الشرق إلى آخره من الغرب، وكان وهو يقفز على هذه الصورة يحس أن هناك تيبساً بأصابعه وساقيه، وظل سويلم يمارس هذه الرياضة القسرية، إلى أن تلاحقت أنفاسه، وأحس بالدماء تجري في

يديه ورجليه، فخفف من قفزه، ولكنه لم يكن في موقف يستطيع معه أن يتبادل الحديث مع عبدالله.

كان من جملة الغادين والرائحين اثنان يتأبط أحدهما ذراع الآخر لم يستطع سويلم أن يميزهما ذكوراً أم إناثاً، ولكنه قدر أنهما ذكر وأنثى، لأنهما كانا يتبادلان قبلة مسموعة الجرس في الذهاب والإياب، وقد كان تصرفاً حرياً أن يلفت نظر سويلم، وأن يطيل فيه التفكير، وأن يشاور عبدالله عن أسبابه، فلقد رأى هذا التصرف في المسرح، والناس كلهم في هرج ومرج، ولكنه لم يره هكذا في هذه المحطة الواسعة والناس يهرولون خشية التجمد على الرصيف، لقد كان سويلم حرياً أن يطيل التفكير في هذه الظاهرة، ولكن سويلم لم يكن يفكر إلا في قلبه، لم يفكر إلا في هذه الداهية التي كادت أن تتسلل إليه هنا على الارض وهو مرتاح على المقعد الخشبي، وليس في تلك الطائرة التي تئن مفاصلها من العواصف، وثقل الركاب،ترى لو انتظر عبدالله دقائق أخرى أين أنت يا سويلم، كتلة متجمدة من اللحم بعيداً وراء البحار، لا يعرف أهلك قبرك، فلا يستطيع أولادك أن يزوروك هنا في هذه البلاد البعيدة ماذا يفعلون بلحمك المتجمد؟ وهنا تذكر سويلم أن الناس كانوا يتحدثون في بلاده عن شحم الإنسان، وأن هناك آلات لا تدور إلا به، وتذكر أيضاً أن الناس في بلاد بعيدة (لا يعرفها سويلم) يحرقون موتاهم كما يحرقون الروث، أو الحطب، ومن يدري أن هؤلاء سيحرقون جثته أيضاً؟... وتنفس سويلم نفساً قوياً، فأحس أن صقيعاً يدخل إلى صدره، فقطع نفسه، وغطى خياشيمه بردن معطفه، والواقع أن سويلم كان مرتبكاً لا يدري ماذا يفعل إزاء هذه الطامة التي تجمد الناس

أحياء ، فمال على صديقه، وقد تأبط ذراعه كما يفعل هو معه، وقال له: عجيب أن يتجمد الناس في بلادكم هكذا، ولكن أفهمني يا عبدالله، أليس الصقيع هو الصقيع؟ فكيف لا يجمد الإنسان وهو يمشي أيضاً، فأخذ عبدالله يشرح لسويلم الدورة الدموية وعملها، وأثر الحركة عليها، وتوقف عن الشرح حين أقبل صفير القطار من بعيد..

وحين جلس عبدالله وسويلم في مقعدين متجاورين داخل القطار أحس بالدفء يذيب رأسه الذي أوشك أن يجمد، وأحس بالارتخاء في مفاصله، فراح في سبات عميق....

(٤١)

لقد كانت رحلة طويلة امتدت ساعات، انساب القطار خلالها، لم يقف إلا مرة واحدة في منتصف الطريق، فتح سويلم عينيه عندها، ثم عاد فأغمضهما حتى وقف في المكان الذي قرر عبدالله أن يقفوا عنده.

كانت المحطة قريبة الشبه بتلك التي تركها القطار وراءه، وكان الليل قد أرخى سدوله، بل إن عبدالله يقول: إننا الآن في منتصف الليل! وقد نزل سويلم درجات القطار، وفي رأسه رياح تدور، وحين استرجع وعيه تحسس صدره بسرعة كالملسوع! ولكنه سخر من نفسه، فهو حي يتحرك، وها هو يحمل حقيبته، وهذا هو عبدالله يمشي أمامه... وها هنا رجل طويل القامة، يصافح عبدالله بحرارة، ثم يلتفت إليه ويصافحه بحرارة أيضاً، كأنه صديقه منذ قديم الزمان، ثم يقول له: (أهلا وسخلاً) بالعربية، ولكنه لم ينطق غيرها ـ وكانت تحية

ـ كأنما قطعت لتوها السهول والنجود، والبحار والقفار، لتلقاه في هذه المدينة . . . ! ما أجمل أن يسمع الإنسان لسان قومه في الغربة، وفي غير ميعاد، و(أهلاً وسخلاً) كانت كافية لأنْ تنبه أعصاب سويلم، وتشد تفكيره، وو. . . تؤكد في النهاية أن قلبه لم يقف، رغم الضباب الكثيف الذي يتساقط على يديه ندى غزيراً، ويوشك أن يلبس رأسه طاقية من الصقيع!

ولم يكن عبدالله على عادته المرحة، لقد كان يوماً متعباً أرهقه، فلم يتكلم أكثر من تقديم هذا الرجل الذي وقف في هذا الجو الرطب ينتظرهم، قائلاً: صديقنا (فون . . . !)، ولم يذكر سويلم، بل لم يستطع أن يكرر مجموعة (الشين)، و (الخاء) التي تلت كلمة (فون)، واكتفى بها، ينادي هذا الرجل الطيب، أو حين يأتي ذكره على لسانه، ولم يدر بخلده بالطبع رغم عراقته في معرفة مجموعة من الكلمات الألمانية أن كلمة فون ليست الاسم، وإنما هي لقب يلحق به، وعلى أي الأحوال، فقد كانت هذه الكلمة خفيفة على لسان سويلم، ظل يرددها، ويعرف صاحبها بها، حتى بعد عودته سالماً إلى «خربة قمران» . . . . !!

كانت السيارة تنتظرهما مع الـ (فون)، وحالما وضعوا الحقائب في مؤخرتها اندسوا فيها، ومضت السيارة يسوقها (فون)، والأنوار عليها خيام من الضباب، والناس يتحركون كالفراش تحتها، يا سبحان الله، هؤلاء لا ينامون حتى في منتصف الليل، كثير من الحوانيت عامرة، والسيارات غادية رائحة، ولقد كانت السيارة دافئة كالعادة، فتبخرت من رأس سويلم طاقية الصقيع، وأحس مرة أخرى بخدر في مفاصله، ولكنه غالب النعاس، وهز جسمه، وحك رأسه، وفرك عينيه، وبحلق

من جديد في مؤخرة رأس «الفون»، وعبدالله إلى جانبه، وأرخى أذنيه إلى رطنهما، ولكنه لم يستطع أن يفقه شيئاً، فشغل نفسه بالتطلع عبر نافذة السيارة وتحت أعمدة الكهرباء، ومن خلال النوافذ المثبتة في بنايات شامخة كالجبال، ولكنه عاد مرة أخرى يتابع رطن عبد الله والـ(فون) يسأل نفسه: كيف تأتي لهذا الرجل أن يحضر لمقابلتنا في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل..!؟ ومتى استطاع عبدالله أن يخبره؟ عجيب أمر هؤلاء الناس يشمون الخبر شماً، هل كان له علم بما حدث لتلك الطائرة؟ فقدر أن عبدالله سيمر في هذا القطار؟ وهل في هذا القطار آلة تخبر بالتلفون أيضاً!؟ مهما يكن من أمر، فقد أدرك سويلم قدرة هؤلاء الناس على شم أخبار بعضهم بعضاً في السماء أو على الأرض، أو حتى في القطار الذي ينساب على قضبان الحديد!

.... (أهلا وسخلا) كررها الفون من جديد!، فرد عليه سويلم: (المهلي ما يولي!)، وتعبيراً عن سرور سويلم لهذه التحية، أحب أن يلقي تحية المساء على الفون بالألمانية، فقال له: (جودن آربنت)! فقهقه الفون وهو يعيد هذه التحية، ولأول مرة نطق السيد عبدالله، فقال: إن «الفون» كان قد زار البلاد العربية، وله أصدقاء في العراق والشام وبيروت، لقد كان «الفون» ضابطاً كبيراً في الجيش الألماني!. وسويلم يحب العسكريين الألمان، لما يسمع عن رجولتهم وشجاعتهم، وهنا رد هذه الطيبة التي فاحت من هذا الرجل إلى هذا الخلق العسكري الألماني، فزاد ميله للرجل، ولكنه لا يستطيع أن يشبك معه بالحديث، فاكتفى بأن قال: (تشرفنا)، (باين) ان الفون راجل ابن ناس..!

ودارت السيارة في ساحة كبيرة، ثم دخلت بوابة واسعة، ثم مرت بها يشبه الحدائق، واستقرت أمام بناء عظيم به الأشجار والأزهار كالعروس تحف به في ثوب مخملي، وترجل سويلم، وخرج من ذلك البناء رجل ساعد في إدخال الحقائب إلى الداخل، ودلف وراء عبدالله داخل الباب، وإذا ـ التفصيلة ـ التي تركها في ميونيخ نفس البناء تقريباً، إنه فندق، وقد أصيب بخيبة أمل!، ذلك لأنه كان يظن أنهم ذاهبون إلى بيت (الفون)، لقد ازداد عجب سويلم كيف يكون هؤلاء على مثل هذه الصداقة والشراكة في العمل، ولا يستقبل الواحد منهم صاحبه، أو شريكه في بيته؟ بل يقوده رأساً إلى النوم بالأجرة، والأكل من جيبه، وربما يتناول على حساب الضيف في نفس الفندق الطعام والشراب، حتى هذا الرجل الطيب الضابط الكبير، مثله مثل المستر الذي خلفوه وراءهم، وتلفت سويلم حواليه، فرأى النمارق مصفوفة عليها رجال ونساء متقدمون في السن يتهامسون، لا تكاد تسمع لهم صوتاً في أقصى القاعة، بالإضافة إلى مجموعة أخرى يتحلقون على مائدة كبيرة، وعليها صفوف كثيرة من الكؤوس والزجاجات، وهم يميلون على بعضهم بعضاً، ولا يسمع سويلم إلا رنين الكأس عجباً، أبَعْدَ منتصف الليل يسهر هؤلاء الناس على تناول ما حرم الله. . . .؟!

(٤٢)

لقد أشار الخادم إلى سويلم أن يتبعه، وكذلك إلى عبدالله، وقد تلكأ عبدالله قليلاً مع (الفون)، ومد هذا يده إلى سويلم، مكرراً العبارة التقليدية في ود زائد (أهلاً وسخلاً)، فودعه سويلم، ومد وراء الخادم!

كان السلم متعرجاً يلتقي مع سلم آخر، ثم يفترقان، ليشكلا شبه صليب في وسط هذه البناية الفخمة، وكان سويلم يخطو على الدرجات المغطاة ببسط كالوبر لا تسمح للصوت أن يخرج منها، وكان الشيء الذي فقده سويلم لأول وهلة، هو تلك الزنزانة التي تهمز على زر معين فيها، فتشيل بصاحبها إلى أي غرفة أراد!

وعند ملتقى السلّمين، كان شخص يقف لينحني إليه، فطأطأ سويلم رأسه للتحية، وحين انحرف الخادم بالحقيبة، إلى اليمين، لم يتجاوز أكثر من درجات معدودة، ثم وقف عند باب معين، وجاءت أنثى تلبس كالممرضات في المستشفى، ناهدة الصدر، تنحني هي بدورها، والرجل يدير المفتاح في الباب، وسويلم يخفض رأسه قليلاً علامة التحية، ويحرك شفتيه كأنما يقول شيئاً للتحية، ودخل الرجل ليضع الحقيبة على خشبة في الغرفة...!

كانت الغرفة شيئاً آخر غير تلك التي أقام فيها سويلم الأيام الأولى من زيارته، كانت واسعة ضافية الستائر، وحين أغلق الرجل الباب وراءه، تطلع سويلم حواليه، وإذا بالتلفون في مكانه، وأزرار إلى جانب التلفون على كل منها صورة خاصة، زر عليه امرأة تحمل طعاماً، والثاني عليه أنثى تحمل مكنسة، والثالث لم يستطع سويلم أن يميزه، وحين تلفت سويلم في جدران الغرفة، وجد أن صورته تواجهه في كل جهة تلفت إليها، لقد كانت معظم جدران الغرفة مطلية بالزجاج، وتفرس سويلم جيداً في مظهره، كان كما عهد نفسه، باستثناء ذقنه التي بدأ شعرها يتمطى إلى الخارج، وبعد أن خلع سويلم لباسه ألبسه إلى كرسي بجانبه، ثم خرج لقضاء حاجته، وإذا برأسه يصطدم بمرآة من هذه

المرايا ظنها باباً، فعرج إلى دهليز مقابل، فوجد مجموعة من المناشف لف نفسه ببعضها، ثم بدا له أن يغتسل لراحة بدنه، فعمد إلى مفتاح الحنفية المعلم بالأحمر، وحين بدأ الماء ينزل عليه مدراراً، سمع نقرات على الباب الخارجي، ثم سمع الباب يفتح، ولم يكن سويلم في مركز يسمح له بالخروج، فآثر أن يتنحنح بصورة مستمرة، ليشعر القادم أنه في الحمام، حتى إذا استكفى من سيل الماء الدافىء عاد إلى سريره، فوجد صينية عليها ثلاث قطع من البسكوت، وأباريق صغيرة من الصيني، وقليل من السكر، فشمها جميعاً، فعرف أنها مملوءة بالشاي، والحليب، والماء الساخن، فجعل يخلطها ويمتصها، ويمتص معها قطع البسكوت إلى آخر قطرة في الأباريق الصغيرة كلها، وكأنما هذه الوجبة قد نبهت أمعاء السيد سويلم، وفتحت شهيتها للأكل، فأحس بجوع لا مثيل له، وأحس أن أمعاءه تموج بعضها في بعض، فتطلع إلى البكارج، وإلى الازرار، ولكنه خشي أن يكون الناس قد ناموا، ثم ليس من الأدب أن يطلب هو طعاماً بعد منتصف الليل، إن عليه أن يقبل جوعاً استمر أكثر الأيام التي قدم فيها من بلاده، وسويلم يغطي نفسه، ويتمطى على السرير، يحاول النوم، فلا يجد إليه سبيلاً، ونظر من قرب إلى سريره، فوجد أنه عريض جداً، بل حين أعاد النظر فيه، وجد أنه ليس سريراً واحداً، بل إنه سريران متجاوران . . . وبدأ سويلم يسائل نفسه، لم هذا السرير المجاور؟ هل يا ترى وضع زيادة في الاحترام والإكرام، أم وضع من قبيل الاحتياط لئلا يتحطم السرير الذي نام عليه؟ وأخذ سويلم يرخي بثقله على السرير الذي تمدد عليه أول مرة، فوجد أنه لم يتأثر، وهنا طرأ على بال سويلم خاطر مزعج لا شك، ولكن سويلم لم يفقد الأمل،

لقد كان على يقين من الفرج فهو قد سمع أن بعض الفنادق تضع في الغرف أسرة مزدوجة لمبيت ذكر وأنثى، وفي بلاده كانوا يتناقلون مثل هذه الإشاعات، فكيف لا تكون حقيقة في هذه البلاد التي رأى فيها ما رأى؟ ثم كيف يستبعد سويلم أن تدخل عليه الآن من تؤنس وحشته، وتنسيه غربته؟ وتذكر سويلم جناح الطائرة، والساعات الرهيبة التي أمضاها في الجو، وتذكر وعد الله الحق لمن يستبيح أعراض الناس، وتذكر أن قلبه كان مقدراً له أن يتجمد ويقف بدون مقدمات، ولكن الله تجاوز عن كل ذلك، وها هو سويلم يتمدد على السرير حياً يرزق، ينتظر العودة بعد، هذه «الضيفة»، التي لا يدري سويلم آخرها، والتي لا ينجي منها إلا الله، لقد تذكر سويلم كل هذا، وتذكر أن كل ما حدث معه حتى الآن، لم يكن إلا مجرد مداعبة إلهية ليتنبه إلى ما ينتظره إذا ما زلت أقدامه في الجحيم، وهنا أحس سويلم برعشة غير عادية، وبخوف مفاجىء، وأحس كأن الباب يوشك أن يفتح، وتدخل منه الكارثة، فقفز كالظليم، وتحسس قفل الباب، فلم يجد المفتاح.... كان سويلم لم يلبس بيجامته المعهودة، لقد نسي هذا الواجب في غمرة رؤيته للشاي وقطع البسكوت، ونسي بعدها أن يلبسها عند هيجان أمعائه، ولم يتذكر أن عليه أن يستر نفسه إلا حين رأى خياله يهرع إلى الباب في المرايا، وكان أقرب إلى صور المتشردين منه إلى أولئك الرجال الذين يبيتون في هذه الأمكنة، وحين تحسس قفل الباب من الداخل، لم يجد المفتاح، فخشي حين يفتح الباب أن يراه أحد الناس على هذه الصورة، فتكون الفضيحة التي يتجنبها سويلم في حياته، ولذلك فقد اختبأ بجسده وراء الباب، وأدار اليد النحاسية بحذر شديد، ثم أخرج يده بحذر شديد أيضاً

ليتحسس القفل من الخارج، وحين سحب المفتاح من الخارج كان كأنما وجد حصناً يلجأ إليه من هجوم الأعداء. . . . !

وحين عاد سويلم إلى السرير مطمئناً، عاد إليه قرص الأمعاء، وتلفت الرجل حوله يتعجب في هذه الفخامة، وهذه الأسرة الوثيرة، وهذه البسط الوبرية، كيف ينام مثله في مثلها لا يمسك نفسه من الجوع! وسرح سويلم بخياله إلى بلاده، إلى صحرائه، حيث لا أسرة مفردة، أو مزدوجة، ولا مرايا تغطي الجدران، ولا تلفون، ولا هذه الأزرار، وهذه الأشياء الثمينة جداً، التي قد تساوي مئات الجنيهات، بل ألوفها، وإنما هناك الفضاء الواسع، قد يجد الرجل غطاء، وقد يتغطى بعباءته، ولكنه حين يجوع، وحين تهيج عليه أمعاءه، لا يتلوى هكذا، وإنما يتناول وعاء، ويعجن، ويضع أعوادا قليلة على النار، وبعد لحظات يكون (قرص الملّة) بين يديه، فيكسره قطعاً صغيرة في الوعاء، أو على ضمة من أعشاب، حتى إذا خفت حرارته التهمه، وغطى نفسه بعباءته. . . وسرق النعاس اليقظة من عيني سويلم مع رائحة قرص الملة، فلم ينتبه إلا على طرقات خفيفة على الباب. . . !

(٤٣)

حين أفاق سويلم على الطرقات الخفيفة، أدرك أنه الصباح، وأنه ربما تأخر في النوم، ولم يجد بداً من أن يجيب الطارق بأن يلبس بيجامته ليظهر أمامه بالمظهر اللائق!

وحين فتح الباب كان عبدالله واقفاً والبسمة تملأ وجهه، كيف حالك؟ كيف نمت؟، ولم يكن لدى سويلم إلا الحمد والثناء، ورغم ما

أصابه من جوع، ورغم ما انتابه من قلق من وجود السرير الثاني، ولكن على الرغم من هذا، فقد أحس سويلم بانتعاش، وبنشاط شديد، وأن جسمه خفيف كالفراشة، وهو يعد نفسه للخروج مع عبدالله الذي جلس ينتظره على كرسي بجانب السرير. . .

وفي لحظات نظف سويلم وجهه من الشعر، وغسل رأسه، وأطرافه، وعاد ليرتدي حلته، وما كان لسويلم أن يخلع بيجامته والرجل ينظر إلى عورته، فلبس القميص وشد الربطة كأي رجل شب على لبسها، ثم أخذ البنطلون، وزاغ في الدهليز، وحين شده في ساقيه، عاد إلى عبدالله يحدثه عن طراوة المدينة، وخشونة البادية، وعبدالله يتابعه، والعجب يملأ نفسه، كيف يلبس هذا البدوي الملابس الإفرنجية بهذه الخفة وقد كان قبل أيام يتمنطق بالثوب والعباءة، دون أن يؤثر هذا المظهر على جوهر نفسه؟ وأصبح يستخدم الشفرة والحمام، كأنه قد ألفهما طوال حياته، قال عبدالله: لا تحدثني عن حياة البادية يا سويلم، فأنا أعرفها، ولكنك تستطيع أن تحدثني عن حياة المدينة كيف وجدتها؟ قال سويلم: والله المدينة«زينة»من الذي يكره الحمام الساخن، والمرايا التي تقلب الإنسان ظهرا وبطناً؟ من الذي يكره المشي على بسط الوبر يا عبدالله؟ من يكره هذه الأزرار، وهذه الحنفيات النظيفة في لون الفضة، التي تستجيب إليك بمجرد همزها؟. . . . المدينة زينة يا عبدالله، بس الناس يكونوا زينين، لكن أنا اقول لك، أنا لي كم يوم في هذه البلاد، لا تعجل عليّ واسألني عندما أعود «لخربة قمران»، وعندما نلتقي عند الخرايب، والآثار القديمة، والدنيا فيها خير كثير يا عبدالله، «وزلمتك» هذا الذي لقيته البارحة راجل طيب. . . . . !

« ها هو ينتظرنا يا سويلم تحت في مطعم الفندق لنتناول طعام الفطار سوياً . . »وأكمل سويلم لبس حذائه، ومسحه بفرشاة كان قد تسلح بها من القدس، ثم تبع عبدالله إلى الخارج، كانت الإناث اللواتي يعملن خارج الغرف في مسح البسط، ينحنين بأدب، وكن جميعاً مملوءات الوجوه بالدم صحة وشباباً، وكان سويلم قد أتقن من التصنع في الرد على هذه الحركات، بل وتمرن على أن يبتسم مع طأطأة الرأس، وكان الرجل الجالس على مفترق طريق السلم على حاله، يقف منحنياً أيضاً، وكان كل عمال الفندق يعاملون سويلم بأدب جم، وكذلك الزبائن في ذلك الفندق العجيب، ولا شك أن الجميع كانوا ينظرون إلى لون سويلم الذي لوحته الشمس، وإلى تقاطيع وجهه، فيحكمون أنه أحد أمراء الشرق الأثرياء، وأن عبدالله وغيره إنما يعملون معه مجرد تراجمة، أو أمناء سر . . . . !

كان «الفون» في القاعة يقف والبسمة تملأ وجهه، وحين أخذ عبدالله وسويلم مقعديهما، التفت في وجه سويلم ليكرر (أهلاً وسخلاً)، وسويلم يقول له: (حياك الله . .)، فيحاول أن يكرر الكلمة، ولكنه لا يستطيع، فيترجمها له عبدالله . . . كانت جلسة لذت لسويلم تماماً، كان كل شيء من حوله رائعاً، يحس أن نفسه تتفاعل معه، على يمينه، ومن خلف الزجاج كان الضباب قد شمر ذيله، فبدا من تحته نهر عظيم تسير فيه المراكب، ولأول مرة يملأ سويلم نظره من قريب على هذه العمارات الكبيرة، تسبح في الماء، وعن يمينه في نفس القاعة مجموعات من الزهور، يجلس حولها عدد من الفتيات والفتيان يتجاذبون أطراف الأحاديث، وهم يرشفون القهوة، كان منظرهم قد

أصبح مألوفاً وحتى منظر الفتيات، وهن عاريات كاسيات، يلبسن ملابس بيضاء تميل إلى الحمرة، لا تختلف عن لون أجسادهن في شيء . . . .

قال سويلم ؛ وهل هذه بلدة كبيرة يا عبدالله؟ قال عبدالله : وأكبر من القدس مثلاً! فتخيلها سويلم بلدة هائلة، لأنه لا يعرف بلداً أكبر من القدس،«هنا فيه دورالحكومة هذه هي العاصمة يا سويلم، هذه سرة بلدنا، وهنا «الفون» هو ممثلنا في الشركة، وسنذهب إلى مكتبنا، ونسلم على الناس الذين يعملون فيه، ثم نتناول الغداء عند «الفون»، ومن بعدها نزور صديقاً لنا مجاوراً جنب المطار، ومن بعدها نذهب إلى المطار، حيث نسافر إلى همبورغ إن شاء الله،»وضحك عبدالله ضحكة طويلة، وهو يقول إن شاء الله، واستفسر الفون عن سبب الضحك، فرطن معه قليلاً، وبدأ يرفع حواجبه وهو يستمع إلى عبدالله الذي التفت إلى سويلم قائلاً : إننا مجبرون الآن على أن نقول : إن شاء الله خشية أن نعود ثانية يا سويلم، فابتسم سويلم راضياً، وقد ظن أن صاحبه قد اهتدى إلى طريق الصواب . . . . !

وخادمتان تضعان البيض، والجبن، والمربى، وقطعاً من الخبز الأسود، ويضعن أدوات الشاي، والسكاكين، والشوكات، فيمسك سويلم بسلاحه شأن المجربين، وقد أحس أن أمعاءه بدأت تتنبه إلى الطعام، وتنهض من نومها، فالتهم قطع الخبز الأسود اللذيذ، وأوفى على كل ما قدم له، ثم مص فنجان الشاي في تؤدة ، وقد لاحظ سويلم أن القوم لا يتكلمون عندما يأكلون إلا نادراً، بخلاف عادات بلاده، فقال

في نفسه؛ نعْمَ ما يفعلون، فخير للإنسان أن ينشغل بطعامه، ويترك الحديث لأوقات الحديث، كانت السيارة تنتظرهم خارج الفندق، فجلس سويلم إلى جانب عبدالله في المقعد الخلفي، وجلس الفون إلى جانب السائق، وأطلق سويلم لبصره العنان عبر نوافذ السيارة ليتفرج على هذه الأبنية الفخمة التي يسابق بعضها بعضاً في الفخامة، وفي الارتفاع، ولم يمض كبير وقت حتى ترجل الركب على باب قاعة بسيطة فيها مجموعة من الكراسي، ثم دخلوا غرفة فخمة بها مكتب كان مكتب الرئيس (الفون)، وبعد لحظات دخل رجل حيا عبدالله بحرارة، وأمسك بيديه طويلاً..!

(٤٤)

كان الرجل لا يزال ممسكاً بيدي عبدالله، مما يدل على أنه وثيق الصلة به، وحين قدمه إلى سويلم، قال: إنه ابن أخي، وقد فرح سويلم به، وهز يده على أساس هذه القرابة لصديقه ومضيفه، ثم دخلت مجموعة من الفتيات لم يصافحن سويلم، وإنما تبادل سويلم معهن المجاملة بالابتسام، أما عبدالله، فكان يقرص خد هذه، ويربت على كتف تلك، ثم انصرفن كالطابور بعد لحظات، وتبعهن ابن أخ عبدالله...!

وجلس سويلم يحتسي فنجان القهوة التي قدمها له الفون، جلس وهو مرتاح لما رأى، فقد كان الفون لا يتمركز في صدر القاعة، وأمامه الفتيات يعملن وهو وحده كالكبش في وسط النعاج، أما هنا، فالوضع يختلف تماماً، فغرفة الفون مغلقة، لا يدخلها أحد إلا بإذن، ولكن

سويلم قدر أن ابن أخ عبدالله، لا بد أنه هو الذي يمثل دور «المستر» مع هؤلاء الإناث، وعلى أي الأحوال، فإن سويلم لم يسرح فكره وراء الباب المغلق، ليرى ما تفعل الإناث، ويفعل قريب عبدالله، أو كيف يجلس هو، ويجلسن هن على مكاتبهن، وإن بعض الظن إثم، فلربما لكل فتاة أو فتاتين مكتبها، لقد ألف سويلم رؤية الإناث يعملن مع الذكور خادمات، أو عاملات، أو طابعات، هكذا دون أن يكن زوجات لهم، لقد ألف ذلك، حتى إنه لم يجد غرابة في وجود هذا السرب من الإناث عند الرجل الطيب (الفون)، ولكن الغرابة بدأت تظلل تفكير سويلم من موضوع لا يمت إلى الإناث بسبب، فقد عجب سويلم كيف أن عبدالله لم يعانق ابن أخيه، وأن ذلك الفتى ترك عمه حالاً، وأكبر الظن أنه لم يسأله عن حاله بعد هذا السفر الطويل وراء البحار، كما أن هذا الفتى لم يحضر لملاقاة عمه على المحطة، ولم يرافق الفون في الوقوف عليها لاستقبال عمه وضيفه منتصف الليل.. ولكن سويلم قال في نفسه: لعل عبدالله لم يخبره، وأخبر صاحبه هذا، ولكن أليس ذلك عيباً؟.. ! اما كان الاجدر بعبدالله ان يتصل بابن أخيه؛ أم إن كل هذا مجرد رسميات والمصلحة المشتركة وحدها هي التي تسيطر عليها، وإن القرابة تأتي في المرتبات السفلى؟ وأياً ما كان السبب، فإن الفتى لم يقابل عمه في المحطة، وإنه كذلك لم يقف طويلاً يحدثه عن شؤونه... ومن يدري، فربما كان نفس والد الفتى أخي عبدالله على قيد الحياة، ولم يقابل أخاه، ولم يسأل عنه، وهنا قفز في ذهن سويلم ما يروى عن بلاد الفرنج والإنجليز بوجه خاص: أن الولد لا يشعر بمسؤولية تجاه الوالد، وقيل: إن الوالد يحاسب ولده على ما خسر عليه من يوم ولادته إلى اليوم

الـذي يستـطيع فيه العمـل، وقيل: إن أحـدهم قدم لوالـده قوائم بمصاريف إقامته عنده، وكان ضابطاً في فلسطين، وجاء من وراء البحار يزوره... ولكن لا.. وعبدالله شخص آخر!

وكان عبدالله منهمكاً في رطن طويل مع زميله الفون، لا يدري مما يدور في فكر صديقه البدوي شيئاً، وكان يفعل مع الفون تماماً مثلما فعل مع المستر، يقلب الأوراق والملفات، ويقف عند خطوط معينة، ثم خرجوا سوياً مع نفس الباب الذي وصل منه قريب عبدالله والفتيات، وغابا مدة ليست قصيرة، وبقي سويلم وحده، كان المكتب لامعاً نظيفاً، وكانت نافذة واسعة إلى اليمين عليها ستارة فاخرة، وقد هم سويلم أن يقف ويزيح الستارة ليرى ما وراء النافذة، ولكنه آثر أن يلزم مكانه خشية سوء الظنة، حين يفاجأ واقفاً مثل هذه الوقفة... وحين دخل الفون ووراءه عبدالله، وأخذ يتكلم في التلفون، ثم ناول عبدالله التلفون، ثم عادا إلى ملفاتهما، يفحصانها، فلما آن أوان الغداء نظر كل منهما إلى ساعته، وعندها تذكر سويلم، وقال له عبدالله: لقد أثقلنا عليك يا سويلم!، إن علينا واجباً لا بد من عمله، ما دمنا قد مررنا من هنا، قال سويلم: استغفر الله، أنا مرتاح تماماً ما دمتم مرتاحين، فاشتغلوا في عملكم، الله يعطيكم العافية، قال عبدالله: لا.... لقد آن أوان الغداء، ورطن على الفون، فهب واقفاً، ومضوا إلى السيارة الواقفة على مكانها.!

لم تسر السيارة بهم طويلاً، وإنما تركتهم أمام بوابة واسعة، ومضى بها سائقها، ودخل سويلم البوابة بين عبدالله والفون، وكان شابان يقفان على البوابة المزينة بالأعلام والستائر، ويلبسان بدلات مخططة

ينحنيان احتراماً، عادة ما أخطأها سويلم في الفنادق والمطاعم، وحيثما يلتقي الزبائن في محل يدفعون فيه الدراهم. . . ونزل سويلم مع رفيقيه درجات ليدخل إلى ساحة واسعة الناس فيها كالنمل. . . وأمسك بهم واحد عند آخر الدرجات، وظل يقودهم إلى أن استقر بهم المقام في شبه غرفة صغيرة، ونظر سويلم إلى الناس، فذكر ذلك المسرح اللعين، لولا أن الناس هنا يقدمون الطعام، ولا يرقصون. . . . !

وجاءت خادمة بكتل كبيرة من اللحم مشوية جاهزة، وبقطع بسيطة من الخبز، ووعاء من الخضار، ولقد كان سويلم يحب أن يتطلع في الناس، ولكنه رأى الناس يبادلونه نظرات شرسة، فآثر أن ينكب على قطعة اللحم أمامه، غير أنه لم يمسك نفسه من الحديث عن الطعام، زعم أنه لاحظ أن القوم لا يتكلمون حين يأكلون، ذلك لأنه استغرب كيف أن ابن أخي عبدالله لم يحضر غداءهم. . قال عجيب يا عبدالله، كيف تفلت من ابن أخيك. . . . ما يغديك ولا يعشيك؟ وأنت أيضاً ما تحدثت معه، هل بينكم زعل؟!

قال عبدالله: في هذه البلاد يا سويلم، العمل عمل، لا يجوز فيه أن نتحدث عن سوالف كما تفعلون، إن الدقائق التي رأيتها كانت على حساب الشركة، ما يجوز لنا أن نضيعها، قال سويلم: يا خسارة، ولكن لماذا لم يأت معك على الغداء؟ قال عبدالله: أنا أولاً: لست الداعي، وثانياً: يجوز أن يكون ابن أخي مرتبطاً. . . ! قال سويلم مكرراً: آه مرتبط!، قال عبدالله: إن الأمور هنا تختلف عما هي عندكم يا سويلم قال سويلم، وقد آثر أن يقطع الحديث، وأن لا يسأله عما بينه وبين أخيه. . . . قال مؤمناً: اختلاف كبير. . . . !

(٤٥)

لقد مسح سويلم أصابعه في الوريقات الموضوعة أمامه، وأسند ظهره إلى الكرسي، فقال له عبدالله، بناء على طلب (الفون) عما إذا كان يريد طعاماً أكثر، فقال سويلم: أخلف الله عليكم، إن شاء الله ما يقدم (هالصفرة) بالدّين، وحين ترجم عبدالله دعوات سويلم إلى الفون، هز الأخير كتفيه في شبه لا مبالاة... وهو يكرع آخر قطرة في كأسه!

لقد أخذ عبدالله بيد سويلم حين خرجوا كأنما ليحميه من تيار الناس، ثم مشوا قليلاً، وأشار إلى السيارة التي كانت تنتظرهم في مكان قريب مقابل، وأدرك سويلم أن السيارات هناك لا تقف في كل مكان، وإلا لكانت وقفت قبالة المطعم، ودخل سويلم وعبدالله والفون متجراً كبيراً للألبسة، فقال عبدالله لسويلم: ليأخذ هذا الرجل مقاسك، ففوجىء سويلم، لماذا. فقال عبدالله، لا بأس، حتى لربما اشتريت لنفسك ملابس، فيكون مقاسك معروفاً، كان الرجل يقيس ذراع سويلم بشريط معه، ثم يمد الشريط من قدمه إلى وسطه، ثم أحاط الشريط بصدره، وبعنقه، وهو يسجل كل شيء، ثم مضى عبدالله والفون إلى الداخل، في حنايا المتجر، وحين طال الانتظار بسويلم، عاد إلى الباب الخارجي ليشاهد القادمين والرائحين، وكانت الأرصفة غاصة بهم في ذلك النهار الذي خلا من الضباب، وحمل معه قليلاً من الحرارة نسبياً، وكان الناس يسيرون فرادى، أو أزواجاً، وكانوا يسرعون أحياناً إلى حد الهرولة، وأحيانا يتسكعون على أبواب المتاجر، أو يقفون يتابعون مسيرة بعضهم بعضاً، . . . والسيارات رائحة غادية لا حصر لها، تتحرك

لا تكاد تسمع لها صوتاً . . . وتقف دون أن يشير إليها شرطي، وإنما تأتمر بأمر فانوس سحري يعطيها إشارة فتمضي، ويلمح لها بإشارة أخرى فتقف، لا تتحرك إلى الأمام قيد أنملة!

وانزاح سويلم إلى اليمين عن باب المتجر، وتلفت يسرة فرأى عجوزاً تهرول، وتحمل حقيبة كبيرة لم يمنعها الشيب والتقدم في العمر من أن تمشي هذه المشية المسرعة . . ورأى وراءها أنثى تشد نفسها في ثوب يبرز كل عضو من أعضائها تجر كلباً يقفز مرحاً، وحملق في سويلم بعيون حمراء، ارتعشت لها فرائص سويلم، وهو يقول في نفسه؛ قاتل الله الكلاب، ما أشد قدرتها على معرفة الناس، لقد أدرك هذا الكلب أن سويلم قادم من بلاد بعيدة لم يخدعه رأسه المكشوف، ولباسه الذي لا يختلف عن ألبسة الناس، لقد عرف الكلب هذه الحقائق التي قد لا يعرفها البشر، ولولا أن (المزمازيه) كانت تمسك بحبله لكان له مع سويلم شأن آخر . . وتلفت سويلم عن يمينه، فتسمرت عيناه على منظر واحد من بين القادمين والرائحين المهرولين منهم والمتسكعين . . !

كان شاباً طويل القامة، عريض المنكبين، وشعره الأصفر يتهدل على عينيه، وكان واقفاً في تراخ بليد مسنداً ظهره على الحائط، وقد شبك يديه أمامه كأنما يستسلم للقضاء، وكانت أنثى أكثر منه طولاً، تلف الجزء الأعلى من رأسها بطاقية صوفية، وقد انساب شعرها الذهبي تحت المعطف، وكانت صورة من تلك الصور التي رآها سويلم عند الحلاقين في بلاده وكانت عيناها واسعة برمش طويل أسود، وكانت عيناها الواسعة ورموشها الطويلة مسمرة لا تتحرك يميناً وشمالاً، وكانت مسمرة على وجه ذلك الشاب، تفتش عن عينيه التي أرخاهما إلى الأرض في هروب،

كانت تمسك ذراعيه بيديها، وكانت ترفع يدها اليمنى واليسرى ثم تداعب شحمة أذنه، ثم تدس أصابع كالخيزران في شعره المتهدل تمسحه وتلهو به، وقليلاً قليلاً تزحف بجسدها نحوه، وتمد عنقها ليوازي عنقه ووجهه، وتداعب شعره، وتمسك بذراعه، وجسدها يزحف إلى جسده، وفي لمحة حدث ما هز سويلم، وتلفت كأنما ليطلب النجدة، والاختفاء من هذه الفضيحة، لقد هبطت اليد التي تداعب الشعر، لتلاقي اليد التي تمسك بالذراع، لتشدان معا ذلك الفتى المستسلم، وفجأة أطبقت الفتاة على الفتى تلصق شفتيها بخده، ثم تنقلها إلى شفتيه.!

كان سويلم هو المتفرج الوحيد على هذا الفلم الذي لم ير مثله في حياته، لقد رأى شيئاً من هذا القبيل في المسرح، ورأى شبيهاً له في تلك المحطة التي كاد قلبه أن يقف فيها بدون مقدمات.! ولكنه لم ير في حياته مثل هذا العمل المخجل، ويتابعه بهذه العناية، وعلى قارعة الطريق، بل على تقاطع الطرق كما رأى هذا الذي يحدث بين الفتاة والفتى!

وتلفت سويلم... كالمستنجد يا للفضيحة!، كان الناس على حالهم يغدون ويروحون، وكانوا يمرون بجانب الفتى والفتاة لا ينظرون إليهما، وكأن الذي يحدث بينهما لا يلفت النظر، وخرج عبدالله والفون من داخل المتجر، وقد لاحظا ما لاحظه سويلم، فقد كانت الفتاة حتى تلك اللحظة تمسك شفتاها بشفتي الفتى، ولكن ذلك لم يمسكهما لحظة لإعادة النظر، ولا عن متابعة السير إلى السيارة التي تنتظر في الساحة المقابلة...!

ومضى سويلم لا يعيد الالتفات إلى ذلك المنظر، وهو يكرر في نفسه: (عجيب.. أمر هؤلاء الناس....)، ومضى وراء عبدالله، والفون يقف حيث يقفان، ويمضي حيث يمضيان، لأن السيارات حين تمر كانت تقطع مسيرتهما، واندس ثلاثتهم في السيارة.... وبعد دقائق كانوا في الفندق!

ودخل عبدالله، وكان يحمل لفة كبيرة لم يرها سويلم حين خرج من المتجر وهو تحت سيطرة ذلك المنظر العجيب، وصعد عبدالله مع سويلم إلى غرفته، وبقي الفون ينتظر، ثم فض عبدالله تلك اللفة، كانت تحوي بدلة رائعة اللون، وثلاثة قمصان، ورباطين للعنق، وكانت تحوي أيضاً ثلاثة جرابات.!

ما هذا يا صديقي..؟ قالها سويلم بدهشة!، قال عبدالله: هذه بعض الملابس، رأيت أن أشتريها وأهديها لك يا سويلم....! واحتد سويلم، وهو يقول: ولكن أنا لست في حاجة يا صديقي إلى هذه الألبسة، كلها أسبوع، أو أسبوعان نرجع بعدها، وهذه الملابس تكفيني، قال عبدالله وهو يلاطفه: لا عليك يا سويلم، حين ترجع نأخذ ملابسنا الإفرنجية منك جميعها، وحتى التي عليك.. وأخذ يرتب الملابس الجديدة في حقيبة سويلم، ثم مضى قائلاً لسويلم: جهز نفسك فسنمضي الآن إلى «كولون»، حيث نمر كما قلت لك بصديق هناك، ثم نسافر بمشيئة الله إلى هامبورغ.. وخرج!

ونظر سويلم إلى الملابس، وإلى هذا الكرم الذي يحيطه به هذا الرجل، ثم تذكر كيف أن ابن أخيه لم يحضر الغداء، وكيف اتهم

عبدالله والفون وابن أخي عبدالله بالبخل المتبادل، وكيف أن عبدالله يدس الآن في حقيبته ما هو أثمن من الغداء أياما. . . . !

(٤٦)

كان سويلم متأثراً جدا بتصرف عبدالله حين اشترى له تلك الملابس، ولكن عبدالله لم يترك له وقتاً للتحليل والمراجعة، فقد ناداه ومعه الخادم ليحمل الحقيبة إلى السيارة، وكان رجال الفندق ونساؤه كالعادة يحيون ويودعون، والحق أن سويلم كان يتأثر من هذا الشعور الذي يتبين فيه كثيراً من التصرف الإنساني المخلص، وأخذ مكانه إلى جانب عبدالله، «والفون» كالعادة إلى جانب السائق، ومضت السيارة في طريق طويلة، ابتعدت معها عن البنايات، ورأى سويلم الفضاء، رأى الأشجار والأعشاب والأكشاك والبيوت الخلوية، كانت جناناً تموج بالخضرة، وتنضح بالماء الزلال، ولقد عجب سويلم كيف يسجن الناس أنفسهم في تلك القواقع الكبيرة، ويتركون الفضاء الواسع حيث يتنفسون الهواء النقي بحرية تامة، وقد سأل سويلم عبدالله حين لم ير أناساً ظاهرين في الحقول التي تعلق بصره بها، سأله: إن هذه الحقول خالية، لا من يحرث، ولا من يزرع، وليس فيها حتى النواطير، فقال عبدالله: إن أكثر هذه الحقول يُزْرَعُ آليا، وقليلون هم الذين يعملون في الزراعة يا سويلم، وسكت سويلم وهو يعجب كيف يكون المزارعون هم القلائل!

ووصلت السيارة إلى العمارات والشوارع والميادين، وعند زاوية على تقاطع الشوارع نزل عبدالله والفون، ونزل سويلم، ولكن سويلم عاد

يعتذر ، ويسأل عبدالله إذا كان سيسمح له أن يسير بالسيارة ليتفرج على الشوارع . . ثم يعود مع السائق إليهما، قال عبدالله : لا بأس . . ورطن مع السائق بضع كلمات، ثم قفز سويلم إلى جانب السائق . . !

كان في الجهة المقابلة بناية داكنة لا حد لضخامتها وكانت لها أبراج برؤوس تضرب في الجو، ذكرت سويلم بالمآذن في بلاده، وكان الصليب مرسوماً على كل زاوية من زواياها، ولقد أدرك سويلم من بعيد أنها معبد، وقد دارت السيارة به دورة واسعة، ومرت في الجهة المقابلة، فأوقف السيارة في موقف محاذ للطريق، ومشى مع سويلم إلى باب البناية الكبيرة، كان حولها حجارة تشبه الخرائب التي ألفها سويلم في حياته، ونظر سويلم إلى بابها، فوجد أنه من الخشب القديم جداً، ولقد تردد سويلم في الدخول، وقد شغل نفسه بالتطلع إلى جدران البناية الخارجية، ولكنه ومن قبيل الاستطلاع دخل وراء عدد من الناس، ومعه السائق، وقد ظل السائق يرطن لسويلم، والأخير يهز برأسه، ويحاول أن يستجمع كل قاموسه من اللغة الألمانية التي سمعها في المناطق الأثرية، فعرف من مجموع رطن صاحبه، أن هذه كنيسة أثرية كبيرة، ومن أقدم الكنائس في أوروبا . . . . فانشرح صدر سويلم، وهو يخطو إلى الداخل، إذن فهذه بيت من بيوت الله!

وكان راهب واقفاً داخل الباب، كأنما يراقب الناس، ومجموعة من الأصنام هنا وهناك، وأطلق سويلم لبصره العنان في أرجاء البناية المذهلة لم ير سويلم في مثل سعتها، وبعد سقفها، ولا يكاد يرى جدارها المقابل، فمضى مع السائق، وهو يخشى أن يضل طريق العودة!

ولقد تخيل سويلم أن هذا المكان سيعج بالمصلين والعابدين، ولكنه لم ير أحداً اللهم إلا ثلاثة من رجال الدين، ومجموعة من الأطفال يتحدثون، فيتجاوب حديثهم في الأبراج، فيصبح الهمس فيها نداءاً عالياً، لقد أصيب بخيبة أمل كبيرة، فقد كان سويلم يأنس بالمحافظين على الدين، حتى ولو من غير أهل دينه، لقد رد هذا الفراغ في هذا البيت الواسع إلى أن الناس هنا لا يعرفون الله، وتذكر القبلات في الشوارع، والأماكن العامة، فقال في نفسه؛ كيف يمكن أن يرود مثل هؤلاء الناس الكنائس أو المساجد؟!!

لقد خرج سويلم من الكنيسة منقبض النفس بعد جولة طويلة في أرجائها، وقد خيل إليه أن عبدالله والفون يفتشان الآن عنه، وعندما وصل إلى السيارة لم يجدهما، فظل يرقب الباب في الجهة المقابلة. . . وطال به الانتظار. . وهنا حدث ما حدث، كان سويلم يرى الناس يمرون سن أمامه يقطعون الطريق للجهة المقابلة. . . ، ويرى السيارات تقف عندها تماما عندما يمرون، وقد سر جداً لهذا الأدب من أصحاب السيارات حين يقفون عندما يمر الناس، وتذكر أن ذلك لا يحدث في بلاده، بل إن الناس هناك يفتشون عن فرصة ليقطعوا الطريق عدواً، ولم يطرأ على باله قط أن هذا الوقوف، ومرور السيارات يخضع لتعليمات، وتنظيمات يخضع لها الراجلة، والسيارات على السواء!

وحين مل سويلم من انتظار صاحبه، وعيناه مسمرتان على الباب، وكانت السيارات وقوفاً كالطابور، وكان الناس قد تجمعوا، ثم أوشكوا أن يقطعوا في الجهة المقابلة، عندها تبعهم سويلم في خطوات ثابتة،

ودون تسرع، وحين أوشك أن يقطع منتصف الطريق هجمت السيارات عليه!

وكان رجل يعوي في الجهة المقابلة، وكان السائق يصرخ من ورائه، و(التخَم) سويلم، وأحس بغمامة تغشى على عينيه، ورأى وكأن هذه السيارات قد انطلقت خصيصاً لقتله، هو ـ على وجه الخصوص ـ وكانت السيارة تمر فتميل عنه، فتكاد التي تتبعها أن ترميه أرضاً، وقد أسلم سويلم أمره لله، ومن بين السيارات جميعاً لم يشعر إلا برجل ضخم يجره جراً، وفي لمحة كان على الرصيف المقابل. . . . !

كان الرجل محمر الوجه، ويهدر غضباً، وكان سويلم في لحظات لا يستطيع فيها فهم العربية فضلاً عن الألمانية في تلك اللحظات رأى سويلم عبدالله يخرج من ذلك الباب ووراءه الفون، فأسرعوا إليه . . . وتبادلوا مع الرجل رطناً غاضباً، فتناول ورقة، وأخذ يسجل الاسم، قال عبدالله: ما الذي حدث معك يا سويلم؟!

قال سويلم: لست أدري، أذكر أنني جئت لأنضم إليكم، فلم أر إلا والسيارات تهاجمني على هذه الصورة التي يريدون بها قتلي قال ـ عبدالله، الخطأ خطأ السائق الذي تركك تمشي وحدك، فها هنا علامات وأشار إلى صورة رجل يهم أن يمشي ـ تضيء أحياناً ثم تنطفىء، إن هذه الصورة عندما تظهر عندها يأتي دور من يمشي على قدمه، لكي يقطع الطريق، وحين تختفي يكون دور السيارات. . . . !

فارتبك سويلم، وأحس بالخجل الشديد. . . إذن لقد أخطأ هو، لا حول ولا قوة إلا بالله. . . ! واستطرد عبدالله؛ وهذا الرجل هو

شرطي، وقد خالفك، وسندفع الغرامة التي تفرض عليك، لأنك خالفت قوانين المرور، قال سويلم: والله إني استحق، لأني تركتكم... قال عبدالله، وهو يحاول أن يسري عنه: الحمد لله على السلامة، على كل حال، لقد كانت مخالفة خطرة!

(٤٧)

كان العرق يتصبب من جسم سويلم وهو في طريقه مع عبدالله والفون إلى المطار، وكان كأنما جاء من الآخرة، وهو يسترجع ما حدث معه قبل لحظات، لقد تخيل هذه الغيلان الكبيرة والصغيرة من السيارات، تطحنه، وقد أصبح لحمه ودمه وعظمه، وكل شيء في جسمه رقائق صغيرة في عجلاتها!

ما أشد ميتة الغربة على النفس، وهي على سويلم أشد وأنكى، ولقد مات سويلم، ثم بعث مرة أخرى، فما كان يمكن أن ينجو من تلك الجبال التي تزحف إلا بمعجزة، فحمداً لك اللهم، وتذكر سويلم النذر الذي قطعه على نفسه حين يعود سالماً إلى بلاده وأهله تذكره، فأعاد التأكيد على الوفاء به، وأحس بأنه في يد العناية الإلهية، تحوطه وتحرسه، وتفتح له طريق السلامة من بين الدواهي الفظيعة المتربصة في هذه البلاد العجيبة.

وكان عبدالله قد احترم صمت صاحبه، وكان هو الآخر في وضع نفسي لا يحسد عليه، فما كان يخطر على باله أنه سيأتي بسويلم إلى بلاده، ليسري عنه، ويرد إليه بعض جميله ليقتله هذه القتلة الشنيعة، وكان عبدالله يلوم نفسه لوماً شديدا أن ترك الرجل ابن البراري والقفار يمشي

في هذه الدنيا الآلية وحده! لقد كان قصد هذا الألماني المثالي إنسانياً شريفاً، ولكن من الذي يستطيع إقناع زوجة هذا البدوي وأولاده وأهله بشرف قصده، وسلامة نيته، وكيف يستطيع أن ينهي إليهم مثل هذا الخبر المؤسف؟ ولأول مرة أحس عبدالله بشيء من الأسف أن جاء بسويلم معه إلى هذه الديار، وعاهد نفسه أن يكون في المستقبل أشد حرصاً على سلامته.. لقد لام السائق، ولكن ماذا ينفع اللوم، ولكنه في النهاية لام نفسه، وهو يردد على كل حال ذلك المثل الألماني الذي يقول: (كل مصيبة لا تقتلني هي نصرلي)!

وتلفت عبدالله إلى صاحبه البدوي، حين تناول«محرمة»من جيبه ليجفف العرق من جبهته، التفت إليه باسماً، وكأنه يلقاه لأول مرة وهو يقول؛ أرجوك أن لا تكون هذه الحادثة قد كرهتك في بلادنا.... وسكت سويلم، وهو لا يدري ماذا يقول، وأطلق نفساً طويلاً، ويقول: الدنيا حر أليس كذلك؟!

ولم تكن (الدنيا حر) كما يقول سويلم، وحري به أن لا يحس بالحر مهما زاد في أواسط أوروبا التي لا تعرف الشمس إلا لماماً، ولكن الحر لم يكن في الطقس بقدر ما كان في جوف سويلم... وقد أدرك عبدالله هذه الحقيقة.. فقال لسويلم: هل تحس بتعب؟ قال سويلم وقد شد على أعصابه ليتجلد، أبداً... أنا بخير جداً، ثم أردف مازحاً، أنت عارف أن (حناتيركم) قد (خرعتني)، فقال الأخير: تعني أنها أرهبتك يا سويلم؟ قال سويلم: نعم!. قال عبدالله وهو يحاول أن يشد عزيمة صاحبه؛ أؤكد لك أن الذي حدث معك لو حدث لواحد منا لمات رعباً، ولكنك لم تهتز كثيراً يا سويلم... فأحس هذا بشيء من الاعتبار والثقة،

وهو يقول: أنتم لا يمكن أن تقعوا في مثل هذا الفخ... دخلك كيف تتجنبون هذه «النعاهة»؟ قال عبدالله: كما قلت لك، إن للسيارات لحظات تسير فيها بصورة مستمرة، حتى إذا آن الأوان، وقفت هي ليأتي دور من يمشي على الأرض... ولم يكن سويلم بقادر على فهم ما يلقي إليه من حديث، وقد ملأه العجب من هؤلاء الناس الذين ينظمون كل شيء، حتى سيرهم على الارض، لا بد للواحد منهم أن يقف، وأن يمشي بمقدار، مثل مأكلهم، فالواحد منهم لا يضع في «صحنه» إلا ما يأكله، حتى ولو كان ضيفاً.. ليس كما يحدث في بلاده، يذبح شاة لشخص بمفرده... ثم هم يتحكمون في «حناتيرهم»، وفي وقتهم، وفي حرارة وبرودة بلادهم، يا سبحان الله، الشيء الوحيد الذي تركوه وأطلقوا حريّة الانسان فيه، وهدم السدود والحصون من حوله... هو الحرام!

يا سبحان الله، يكررها سويلم مرة أخرى في نفسه، هؤلاء الناس الذين يعملون كل هذه العمارات، ويصنعون كل هذه السيارات، «ويقبّنوا» الفار من ذيله، يشربون الخمر، ولا يعرفون العيب فيما بين الذكر والأنثى!

ووقفت السيارة، ووقفت معها صفوف من السيارات، فاغتنمها عبدالله فرصة ليفهم صاحبه، وأشار إلى عمود قصير فيه فوانيس تلمع كعيون الجن... أرأيت يا سويلم؟ الآن أضاء الفانوس الأحمر، هذا أمر للسيارات بالوقوف... انظر هؤلاء هم الراجلة يمرون من هذا الجانب، وذلك التيار من السيارات يمر مع وقوف سياراتنا، هناك هل ترى صورة الرجل يحاول أن يمر عليها اللون الاخضر؟ وذلك هو اللون

الـذي يأمر الراجلة بالمسير، انظر ذلك النور الأحمر قد انطفأ، وأضاء النور الأصفر، هذا يأمر سياراتنا الواقفة بالاستعداد، والآن أضاء النور الأخضر، وها هي سياراتنا تسير!

كان الشرح واضحـاً على الـطبيعـة، هز سويلم رأسه، الآن قد فهمت، ولكنه في أعماق نفسه كان يقول: إنني لن أكررها وحدي، مهما أضاء الأخضر، أو الأصفر. . . . (عمر عوّاد ما يعودها)!!

ووقفت السيارة، ومـا كاد سويلم يحمل حقيبته، فلقد كان حتى تلك اللحظة، تحت تأثير الخضة، ومشى إلى قاعة الانتظار في المطار، وقد لصق به الفون، يربت على كتفه بين الحين والحين، وعبدالله يحاول أن يعلمه تحية الوداع بالعربية بعد أن ختم «أهلا وسهلاً»، فأخذ يكررها مراراً لسـويلم (مع السلامة)، وسويلم مأخوذ بإنسانية ذلك الرجل، وحسن استقباله، فقال لعبدالله؛ قل للفون: إني أشكره، وحياه الله في بلادنا، واحنا ما عندنا شيء نقدمه، ولكن قل لصاحبك: احنا نفرش له قلوبنـا. . . . (نفـرش له قلوبنا) جملة من صميم الشرق، يقولها البدوي فتهز ذلك الجندي هزاً. . . فتنطلق فيه كلمات المحبة والشكر بالألمانية، ووجهه يحمل لوني الصدق والإخلاص!

ومضى عبدالله وسويلم، إلى الطائرة بعد أن ودعهم الفون، وهو يهز سويلم منفعلاً مودعاً، وكان الرجل على حاله واقفاً يلوح بيده قبل أن تتوجه الطائرة إلى هامبورغ، وهو لا يزال تحت سحر تلك الكلمة الشرقية (نفرش له قلوبنا)!!

(٤٨)

لقد أرخى سويلم نفسه في الكرسي، ولكنه عاد واعتدل، وفرك رأسه بيده، وما زال القلق والانفعال بادياً على وجهه، وقال له عبدالله؛ هل تشعر بألم؟ قال سويلم: (بس أحسّ بقليل من الألم في رأسي)، وتناول عبدالله حبتين من الأسبرين ازدردها سويلم مع قليل من الماء.

كانت المضيفة ذات جبين وضاح يشرق من تحت قبعتها الزرقاء، وكانت تقدم للركاب حبيبات من (الحلو)، وحين أخذت الطائرة طريقها نحو همبورغ، قدمت لضيوفها طعاماً مختصراً محشواً في قليل من الخبز. . . . ولقد حاول سويلم أن يأكل، ولكنه لم يستطع، فقد كان على حالته المتوترة، ولكن بعد دقائق، أحس بأثر الاسبرين، فخدرت أعصابه، وراح في سبات عميق، كأي رجل ألف السفر بالطائرة، فلا يتسرب إليه داخل هيكلها الخوف، ولم يفق سويلم إلا بعد أن وضعت الطائرة عجلاتها على الأرض. . !

لقد كان المطار محاطاً بالغابات الكثيفة التي لا يستطيع سويلم معرفة ما وراءها، ونزل وراء عبدالله، وكان عبدالله قد غير هيأته تماما، ولقد اعتمر بالحطة والعقال، ولا يدري سويلم إلا أن ذلك يمكن أن يكون قد تم وهو نائم، وقد أدهش سويلم هذا الزي يلبسه عبدالله في هذا البلد أكثر مما أدهش المجموعة الكبيرة التي كانت تلوح بأيديها في انتظار الغائب. . !

لقد استيقظ سويلم من غفوته في الطائرة نشيطاً، وحين وضع قدميه على أرض المطار نسي تماماً ما حل به قبل ساعتين، أو أقل حين داهمته

السيارات، نسي هذه الكارثة، وما تزرع في النفس من التردد والخوف، وانطلق وراء صاحبه خفيفاً، ولا يذكر سويلم على وجه الدقة كيف كان اللقاء،ولكن الذي يذكره أن عبدالله تقدم بحطته وعقاله، وتقدم هو وراءه عاري الرأس أسود الشعر، وحين التقيا بالمجموعة، أخذ أكثرهم يعانق عبدالله عناقاً حاراً، ويصافحون سويلم بتحفظ هو للتفحص، والتحقيق،أكثر منه للمحبة والاحترام، إلا أن واحداً من المجموعة أمسك بسويلم من كتفيه يهزه، ويطلق بلغته لا بد من عبارات الترحيب، وتفرس سويلم في وجهه جيداً، كان واحداً من الرجال الذين كانوا يرافقون عبدالله حين وصل إلى «خربة قمران» قرب البحر الميت، والذين أولم لهم سويلم تلك الوليمة في خيمته. . . والرجل يهز سويلم، ويكرر اسمه في محبة وترحيب، ويجمع مفرداته من العربية مرة واحدة: (أهلا وسخلا). (السلام عليكم. . . كيف خالك)، وسويلم يرد عليه بحرارة أيضاً، بكل ما أسعفته الذاكرة من الألمانية، ووقف الرجل يعرف المجموعة على سويلم، ويروي لهم قصة تلك الوليمة، وهم في طريقهم للسيارات المنتظرة، وكان الجميع يرددون بصوت واجد (أو. .)، وقد أدرك سويلم أن (او. . .) هذه هي للإعجاب أكثر منها للاستغراب أو الاستهجان!!

كانت المجموعة التي قابلت عبدالله مؤلفة من ذكور، وهم الأكثرية، ومن ثلاث نساء، الرجال لا يذكر سويلم أسماءهم على وجه التحديد، وإن يكن ما يزال يذكر اسم صاحبه الذي قابله في قمران، وهو (شمايخر)، وشاب آخر طويل القامة يحمل عوينات على أنفه، لقد عجب سويلم من هيئته، ومن نحافته، وشد على يد سويلم بشدة، وقال

بعربية فهمها سويلم تمام الفهم (أين الحطة والعكال. . .)، وقد فوجىء سويلم بهذا السؤال، وكانت المفاجأة أشد أن يكون السؤال، بالعربية الفصحى، إذن فها هنا أناس يفهمون لغة سويلم غير عبدالله، قال له سويلم؛ لقد رأينا أن نتبادل الزي مع (المحليّ)، هو يلبس حطتي، وأنا أكشف رأسي مثلكم! فضحك الجميع على هذا الجواب. . . وقال الشاب الغريب بلغة سليمة: (أهلا. . وسهلاً)، وقال سويلم: إن شاء الله يكثّر من (الصاحب) ـ وأشار إلى الشاب ـ ومن (رفيقي) ـ وأشار إلى عبدالله ـ الذين يتكلمون لساننا، . . . فتقدمت شابة من بين النساء تحمل هي الأخرى عوينات على أنفها، وكانت الأنثى طويلة القامة، عريضة الكتفين بارزة الصدر، تقدمت دون أن تتكلم، فقال عبدالله: وهذه ماريتا، فهزت الأنثى رأسها، وهي تقول: (مريم)، واتسعت ابتسامة سويلم، وانشرح صدره، وهو يحس أنه ليس غريباً عن هؤلاء الناس. . . وقال: حياكم الله، ولكني مع الأسف عاجز عن التحدث بالألمانية مثلكم، إنني فقط أحفظ كلمات لا أعرف بالضبط معانيها. . . ودار الحديث حول الرحلة. . . . والطقس. . . . وأسباب التأخير، وقد لزم سويلم الصمت، وقد تراءت له كتل السيارات تتحرك نحوه، وتراءى له الشرطي يجره جراً إلى الرصيف، لقد تسمر فكر سويلم عند تلك اللحظة، ونسي كل الجوانب الزاهية الأخرى، فأحس بالخجل والارتباك دون أن يعرف أحد من دخيلة نفسه شيئاً! . . . .

قال الشاب الطويل ـ وهو يقف مع سويلم، ويحرص أن يجلس بجانبه في السيارة ـ: نرجو أن تكون بلادنا قد أعجبتك!؟ فقال سويلم: ومن الذي لا تعجبه بلادكم؟ بلادكم جنة، وأنا مع هذا (الخَيِّس)، ـ

وأشار إلى عبدالله ـ ما أحسست إلا وكأني بين أهلي . . . . وفي لمحة تذكر سويلم أهله، وتذكر أنه لا يمكن أن يكون بينهم بهذا الزي، وبين مثل هذه المجموعة، واستقرت الفتاة الأخرى إلى يسار سويلم، وقال سويلم في نفسه: ما الذي جاء بها؟ . . . وضحك عبدالله . . . وقال لسويلم: أنت الآن بين أصدقاء يفهمون عليك يا سويلم . . وقال سويلم: كثر خيرك، لقد «غَلَّبتك» يا عبدالله، وأنت تترجم لي طول المدة، الحمد لله الذي رزقني بهؤلاء الأصدقاء، يفهمون عني، وأفهم عنهم، فقال عبدالله مازحاً . . . إذن تريد أن تستغني عني يا سويلم، فقال الأخير . وكيف أستغني عنك، والضيف كما يقال (أسير المحلي)؟ ولاحظ سويلم أن الشاب والفتاة كانا يتابعان حديثه في لهفة يحاولان أن لا تفوتهما كلمة مما يقول!

(٤٩)

كان الجو صحواً، استطاع سويلم أن يرى معه تجليات الطبيعة في تلك المنطقة البعيدة، كانت المدينة كغيرها من المدن التي رآها سويلم، ضخمة في أبنيتها تشقها المياه من منتصفها، وقد تجاوز سويلم جسراً، ورأى الناس كالنمل يهرولون، ومضى رتل السيارات إلى أن استقر أمام بيت خلوي، وقفت السيارات عنده، وترجل عبدالله، وترجل سويلم، ونزلت الفتاة والشاب، ولكن القوم لم يدخلوا داخل البيت، وإنما ودعوا ومضوا بسياراتهم، وتركوا سويلم وعبدالله وحدهما . . . !

وتناول عبدالله الحقائب حقيبة حقيبة، وأخرج من جيبه مفتاحاً صغيراً غرزه في صدر الباب فانفتح، وأشار إلى سويلم أن تفضل . . . . ! وتفضل سويلم، وحقيبته معه، وكان عبدالله قد غمز زر الكهرباء،

فأنار البيت من الداخل، وأخذ عبدالله سويلم من يده، وقاده إلى غرفة معينة بها سرير واحد، وقريب الشبه من تلك الغرف التي سكنها في الفنادق التي مر بها منذ دخل البلاد، وكانت محكمة الستائر، ولها رائحة قريبة من العفن، مما يدل على أنها كانت مهجورة، أو شبه مهجورة، وقال عبدالله: تفضل، وهذه غرفتك، وضع حقيبتك ـ وأشار إلى الخزانة ـ ثم أخذه إلى صالة واسعة، كان بها مجموعة كبيرة من النمارق، ثم أخذه إلى غرفة أخرى، مشابهة للغرفة التي ترك سويلم فيها حقيبته، وقال عبدالله: إنها ستكون غرفته، ثم دار به في حنايا ذلك البيت الواسع.. إلى أن وصل إلى الكراج، فوجد فيه سيارة لامعة، كأنها خرجت من مصنعها في التو واللحظة... وقال عبدالله: والآن يا صاحبي نحن هنا «عزآبية» ـ أنا وأنت ـ نحن علينا أن نخدم أنفسنا، وأحيانا أرسل من يساعدنا حين نضطر إلى ذلك!

كان البيت بارداً يجمد الأطراف حين دخله سويلم لأول مرة، وكان ما يزال يتمنطق مثل عبدالله بمعطفه، ولكن بعد لحظات بدأت الحرارة ترتفع بشكل ملحوظ، وقال عبدالله: الآن تستطيع أن تخلع معطفك، لقد شغلنا جهاز التدفئة، وخلع عبدالله كل ما عليه، لم يترك إلا القميص.. وسويلم ما يزال محتفظاً بوقاره داخل البدلة، ولكن عبدالله لم يترك له الفرصة، فأمره أن يخلع ملابسه، وأن يغتسل، وأن يرتاح قليلاً، لأنه علينا أن نستعد إلى حفلة عشاء يقيمها أصدقاء الخيول العربية!

لم تكن عند سويلم رغبة في الغُسل، ولكن مجاراة لعبدالله آثر أن

يخلع ملابسه، وأن يذهب إلى الحمام، وخرج بعد قليل بعد أن بلل جسمه بالماء، ودخل عبدالله، ومكث أكثر من ساعة ونصف الساعة، وسويلم يتقلب على الفراش وهو يستعرض في ذاكرته هذه الأمور الغريبة!

المستقبلون وصلوا إلى هذا البيت البعيد، وتركوا الضيوف يدخلونه ليخدموا أنفسهم فيه، وهكذا دون أنيس، أو رفيق، والبيت المهجور تعشش فيه الكآبة والملل، أين الاطفال يلعبون؟ يا سبحان الله! هل هذا البيت هو بيت عبدالله وحده!؟ كيف يعيش الرجل فيه؟ يا للسجن الفظيع! ولو تخيل سويلم سجناً يربط فيه عدوه لما وجد أفضل من أن يحجزه في هذا البيت البعيد، لينام كالعفريت وحده، لا من يسليه أو يواسيه، لا من يضحك معه، أو يضحك عليه، ولا يحزن لحزنه، أو يتألم لألمه. . . . ومرة أخرى يكرر سويلم؛ عجيب أمر هؤلاء الناس!!

كيف يتحمل عبدالله هذه الحياة، وهو رجل تقدمت به السن، ورجل أعطاه الله من فضله، وما قيمة المال، وما قيمة الحياة، وما قيمة الكنوز كلها، إذا قذفت بالإنسان بعيداً في بيت خلوي، يخدم نفسه، يطبخ طعامه ويغسل ملابسه؟. . . ومشى سويلم قليلاً، كان عبدالله ما يزال يصب الماء على نفسه يسمع له هسيساً من الخارج، كان الصوت الوحيد الذي سمعه سويلم في هذا البيت، وتلفت سويلم متمعناً في البيت، كانت صور كثيرة معلقة في الحائط، وكانت خزانات مملوءة بالزجاج، وتحيط بتلك الصالة التي استعرضها قبل قليل مع عبدالله، وكانت هناك أكثر من غرفة مغلقة لم يفتحها عبدالله، ولقد هم سويلم أن يدير مقابض أبوابها، ولكنه آثر أن لا يمسها لئلا يرى فيها ما يكره،

من يدري! فربما كان وراءها أشياء لا يحب أن يراها، أشياء يحب عبدالله أن تبقى سراً بينه وبين نفسه، وعلى ذكر الأسرار. . . إن هذه البلاد مملوءة بها، إن أشياء غامضة لا يستطيع لها فهماً، ولا يجد سويلم لها تفسيراً. . . تبدو في داخل ذلك البيت!

لقد استعرض سويلم مكانه هذا مع عبدالله في هذا السجن ـ كما يسميه ـ ومكانه حين كان يعمل مع عبدالله في تلك الهضبة العالية في «عوجا حفير»، كان بيتهم على تلك الهضبة يتألف من خيمة صغيرة تضم بساطاً تافهاً، وليس مثل هذا القصر الفخم، ولكن النجوم والهواء والفئران والعصافير وطوارق الليل، كانوا يشاركونهم ذلك البيت، كانوا يملؤون صمته صخباً، ووحشته أنساً، فلم يكونوا يشعرون فيه بالوحدة، بل كانوا لا يأوون إليه إلا حين يطبق عليهم النور إطباقاً، لا يستطيعون منه فكاكاً، وتنفس سويلم نفساً طويلاً، وكأنه يعب الهواء النقي في تلك الخيمة على هضبة «عوجا حفير». . . ولكن ضربة الباب أيقظته من أفكاره، فعاد إلى الستائر المحكمة، وإلى الجدران السميكة ينظر إليها من جديد. . وإلى عبدالله الذي خرج من الحمام عارياً يحمل منشفته على أكتافه، فأغضى سويلم حياء، وحاول أن يشغل نفسه بالنظر إلى أشياء أخرى، وهو يحاول أن يختلق الأعذار لصاحبه: (الرجل لا يستحي من الرجل)، ولكنه يعود، فيتذكر اللعنة التي تصيب الناظر والمنظور. . . ودخل عبدالله غرفته، وأمر سويلم أن يستعد. . . . !

(٥٠)

كان عبدالله في أجمل حلة حين خرج يحرك السيارة الرابضة في البيت من مكـانها، وكـان سويلم قد تمنطق بالبدلة الجديدة التي اشتراها له عبدالله أمس، وكانت البدلة (مُزيّقه) عليه بشكل بدأ فيه سويلم كأحد أرباب العائلات الأرستقراطية التي تهتم بالملبس قبل أي شيء غيره. . ونظر عبدالله إلى صديقه البدوي نظرة عميقة، وهو يتفرس في مظهره، وكيف أنه تواءم مع بقية الناس في أيام، ومن يرى سويلم بهذه الصورة لا يمكن أن يربط بينه وبين ذلك الذي يعيش في بيت الشعر، ويتربع على الرمل، ويتمنطق في ثوب فريد فضفاض، وكان عبدالله يستخلص من هذا نظرية عامة، وهو أن التحول الظاهري، والمظاهر المادية يمكن أن يتم بسهولة كهذا الذي يراه يتم مع سويلم، ولكن الذي يحتاج إلى الزمن، ويحتاج إلى الوقت الطويل، هو التحول الداخلي، أو التحول النفسي، إنسويلم حتى هذه اللحظة لم يذق طعم الخمر، ولم يقرب امرأة على كثرة المعروض، ولكن من يدري؟ ربما خضع هذا البدوي للغريزة يوماً ما، وتحطمت هذه القواقع الجامدة التي تراكمت على نفسية سويلم مع السنين، ولكن عبدالله أخذ يسائل نفسه، هل يحيط بنفسية سويلم قواقـع. . . . ؟ أم هي أصنـاف من المطاط تتسع، وتنكمش على قدر امتداد النفس البشرية، فلا يستطيع الإنسان منها فكاكاً. . . هكذا كان عبدالله يحلل تصرفات صديقه البدوي، وقد أحس أنه في حاجة إلى فهم هذا الإنسـان أكثـر من أي يوم مضى، فقد كانت معرفته به شاملة، ولكنها كانت معرفة تتلخص في أن سويلم وقومه أناس بسطاء، يعيشون على الفطرة بعيدون عن تطور الحضارة، ولكنه اليوم في حاجة أن يسبر

أغـوار سويلم حين اصـطدم بهذه المـدنية . . . نعم لقد كان عبدالله مشغـولاً بانعكـاس الحضارة في أعلى مراحلها على تصرفات صديقه، ولكن سويلم كان مشغولاً بأشياء أخرى، كان مشغولاً بعزوبية صاحبه، وكـان مشغـولاً بهذه المناظر التي يتابعها عبر نافذة السيارة التي يسوقها عبدالله، وكان مشغولاً بهذه الحفلة التي قال عبدالله إن نادي أصدقاء الخيول العربية سيقيمها لهم، كيف تكون الحفلة؟ وكيف يجلس بها، ومـاذا يريد هؤلاء النـاس من سويلم؟! وحامت في ذهنه صورة الفتاة الشقـراء النحيفـة التي تتكلم العربية، وذلك الشاب الطويل في لون الشمـع. إنـك يا سويلم بين أنـاس غربـاء، غربـاء جداً، الله يسـتر. . . . ، وأحس بالحـرج في بلاد الغـربـة، وعـلى عادة الشيوخ وحكـمائهم، أخـذ سويلم يستعـرض النصائح المتوارثة عن الغريب، وكيف يجب أن يتصرف، كيف يتكلم، وكيف يلقى الناس، ولكن هناك أشياء لايقدر عليها سويلم، وهناك أشياء لا يعرفها، فسويلم ما يزال يجهل كيف يتصرف القوم حين يجتمعون في هذه الحفلات، وهو حين يتحدث مع عبدالله، أو يسكن معه، لا يجد فواصل بعيدة بينه وبينه، فقد خبر الرجل، وعاش معه طويلاً، وهو يعرف سويلم، وسيغفر له كل هفوة، وقد ينصحه إذا أخطأ، وخيل لسويلم أن مثل هذه الحفلة لا تختلف عن المسرح الـذي رآه قبـل مدة، وارتجفت فرائصه قليلاً. . . ودخلت السيارة قلب المـدينـة. . . ورأى سويلم الكهرباء تتشكل في صورة كؤوس الجن أحياناً، وفي صور آدمية أحياناً أخرى، ورأى الناس على حالهم يهرولون كأنهم لا يكفون عن المشي، أو أن البلدة توشك أن ترحل، وقال عبدالله: هذه مدينتنا يا سويلم، هذه بالنسبة إلي «كالعوجا

حفير» بالنسبة إليك. . . !! وأحس سويلم بالنسيم يهف على قلبه، وكأنه على ربوة «العوجا حفير»، ثم أحس بالألم يعتصره عصراً، وأحس كأن الدموع توشك أن تسيل على خديه، فأشاح قليلاً، وتنحنح وتحرك في مقعده، وقال: . . . أين نحن من «العوجا حفير»، وأين «العوجا حفير» منا يا عبدالله؟ لكأنك تذكرني بأنا هربنا، وأن العدو يحكمها الآن رغما عنا. . . ! لا بأس، يا عبدالله إنها أيام. . . ! وإني لأرجو أن تدوسني سياراتكم إن لم أعد إلى بلادي، يا عبدالله إن الدم لا يبلى، بل تزيد قوته كلما تقدم الوقت. . . ولكن الحق معك، ما كان لي أن أتفرج هكذا على الدنيا، وأسوح معك في بلاد الله الواسعة، وأترك بلادي أسيرة في يد الأعداء!!؟

وشعر عبدالله كأنه أحيط به، ووقع في حفرة دون أن يدري، فلقد قال تلك الكلمة العابرة دون أن يتصور مضاعفاتها، وأحس فعلاً بالحرج الشديد أمام هذا البدوي الذي يوشك أن يندم على ضيافته بمجرد تذكيره ببلدته. . . ونظر إلى سويلم، وقال في صوت متهدج:

لم أكن أقصد يا صديقي. . ! فقاطعه سويلم: أنا أعرف أنك لا تقصد أن تعيرني. . كلا والله، ولكن ألا ترى معي أن الكلام الذي أقوله حق؟ ألا ترى أنه كان علي قبل أن أسوح في الدنيا أن أعود إلى الوطن (وطني) أموت فيه، بدل أن تدهسني السيارات كما أوشكت أن تفعل أمس؟. . . ! وأحس عبدالله بحرج جديد بحيث أرتج عليه! فلا يستطيع أن يستمر في الحديث مع هذا البدوي، وآثر أن يغير الحديث، فأطلق يده من المقود، وربت على كتف سويلم: أنت هنا ضيف، ولازم

(تفـرفش)، وسيأتي يوم تعود فيه إلى «العوجا حفير»، وسأضيفك المرة القادمة هناك، ولا تنسَ أن تنصب الخيمة، حيث نقيم سوياً في ذلك المكان، فتنهد سويلم... وهو يقول لصاحبه في عزم وتصميم: ... إن شاء الله!

ووقفت السيارة في ساحة صغيرة مملوءة بالسيارات الأخرى من شتى الأصناف والألوان، وترجل عبدالله وسويلم، وحرك سويلم كتفيه، وهو يحاول أن يتـأقلم داخل الجاكيتة، وكان المعطف ملقى على الكرسي، فأشار عبدالله له أن يأخذه، فحدجه على ذراعه تماماً كما فعل عبدالله، وتقدم بخطوات ثابتة إلى الأمام!

كانت الأنـوار تحيط ببـوابة واسعة، وكان رجل طويل له شوارب طويلة أيضـاً، يقبل فاتحاً ذراعيه، وآخر بلحية كثة صفراء قد خالطها الشيب يقبـل وراءه، وقـد انطلق «الرطن» من فيه دون حساب... وسلم عبدالله، وسلم الاثنان على سويلم بحرارة، ثم تقدم صاحب الذقن، وصاحب الشوارب ما يزال ممسكاً بيد سويلم، وذراعه الأخرى تحيط بكتفي سويلم، وأطلق سويلم لنظره العنان....!

(٥١)

كانت صالة واسعة جدا تلك التي دخلها عبدالله وسويلم يقودهما إليهـا صاحب الشـوارب، وصاحب اللحية الصفراء، وكانت مرصعة بالثريات، وكان على النمارق المصفوفة ثريات أخرى تتلألأ على صدر الغواني الجالسات بين الرجال!

وهب الرجال وقوفاً، وبقيت النساء على جلستهن الوادعة المرخية، وأقبلوا يسلمون ويرحبون بالعضو الرئيسي في ناديهم؛ السيد عبدالله، ثم أقبلوا على ضيفه يزيدون في التأهيل والترحيب، وقد تقدمت الآنسة (مريم)، أو «ماريتا» تترجم له!

وكان سويلم قد شد أعصابه، وتحكم في نفسه في كلامه، وفي خطوه، وفي ابتسامه، كان يحرك شفتيه للترحيب لا يدري بماذا يرد، وكان يكرر: (الله يحفظكم)، وحين وصل عبدالله إلى كراسي الإناث أحنى رأسه، وخفض قامته، وأخذ يقبل أيديهن واحدة واحدة، كان سويلم وراءه خطوة واحدة، ولكنه لم يجسر على تقبيل الأيدي، كان يحني رأسه فقط، ويمد يده متعالياً.. يا للفضيحة!، يقبل يدها وكأنها والدته، أو أبوه!، ثم لا يرسل نظرة لصاحبة الذراع الممدودة التي ترخيها لينة طيعة للتقبيل، وكن جميعاً ينظرن في وجهه الأسمر الذي لوحته الشمس، وكانت مريم تذكر أسماءهن، ولكن اسما واحداً لم يعلق بذاكرة سويلم، وكان كل همه أن ينتهي من هذه المحنة!

لقد كان سويلم يحاول أن لا ينتقده أحد، وكان يفضل أن يقلد عبدالله في تصرفاته، لكي لا يكون نشازاً بين الناس، ولكنه لا يستطيع أن يتابع عبدالله في تقبيل أيدي النساء، وكان يقول في نفسه: (والله إنها ثقيلة)! ومضى إلى مكانه المخصص، وهو يدرك أنه قد فعل أمراً لا يرضي النساء على الأقل... وجلس عبدالله، بينه وبين صديقه جلست تلك الفتاة (مريم)، وتحلق القوم حولهما... وجاء الساقي: ماذا

تشرب؟ قالتها مريم، والتفت سويلم إلى عبدالله يسأله بعينه، ويقول له، وقد تجاوز عن جواب الأنثى التي لصقت بجانبه: أشرب كل شيء ما عدا (القزاين)، ولم تفهم (مريم)، ولكن عبدالله كان يفهم، فطلب لصاحبه كأساً من الليمون، وطلب لنفسه شراباً زيتياً ذا رائحة نفاذة، ولكن الغريب أن (مريم) طلبت هي الأخرى (ليموناً) تماماً مثل سويلم.. وكذلك طلب ذلك الشاب الذي يفهم العربية، وصاحب الوجه الشمعي مثلهما، ورفع الجميع أيديهم بكؤوسهم، ورددوا عبارة واحدة. ثم بدؤوا يمتصونها وهم يتبادلون الرطن والابتسام!

وأقبل صاحب اللحية الصفراء، وصاحب الشوارب على عبدالله، ويبدو أنهما (وجه) القوم في النادي، أقبلا عليه، وكانا يناديانه باسم آخر غير الذي يناديه به سويلم، اسم لم يستطع سويلم أن يكرر لفظه فضلاً عن أن يتذكره، وحين كان يكلم عبدالله كان يرفع صوته باسمه، حتى اضطر القوم أن ينادوه به، وهم يضحكون... (أبد الله)، نقول: أقبل الرجلان على عبدالله يهمسان في أذنه... وقد فوجىء سويلم بعد الهمس أن يتوجه عبدالله ليطلب منه أن يحدث القوم عن الخيول العربية...!

ماذا يقول سويلم عن الخيول العربية؟.. وأين الخيول العربية من هذه الديرة التي تركب السيارات والطائرات؟ ولكنه فكر وقدر، وتنحنح، ثم أسند ظهره للكرسي، وقال لعبدالله: ماذا يريدون من الخيول العربية؟

فترجمت الفتاة (مريم) كلامه إلى الناس، فتلفتوا في وجوه بعضهم،

ولكن عبدالله قال يريدون أن تحدثهم عن أنواعها، وعن تربيتها، وعن... وسكت، وهز سويلم رأسه (أنواعها)، الخيول منوعة، صحيح...!

وحين ترجم كلامه، تلفت الناس في وجوه بعضهم، وبدأ عليهم الاستخفاف بسويلم، لكن عبدالله عاد ينقذ الموقف، ويقول: نعم أنواعها يا سويلم، يعني (صقلاوي...)!

وحرك سويلم كتفيه، وتنحنح مرة أخرى، وتلفت في وجوه القوم، وقد بدأ الجد على وجهه، وكأنه يوشك أن يدلي بمعلومات خطيرة، وقال: (آه... صقلاوي)، الصقلاوي يا جماعة، نوع من الخيول العربية، ولكنه ليس نوعاً أصيلاً، وهو كبير الجثة، ويكثر في شمال العراق... وسكت سويلم، وبدأت مريم تترجم... فأطلق القوم تصفيقاً حاداً.

وهنا وقفت أنثى ثانية، ورطنت كلاماً ترجمته مريم، وفيه تستفهم من السيد سويلم؛ ما معنى أن لا يكون أصيلاً؟ قال سويلم ببساطة؛ هناك أنواع أهم منه بكثير، وسكت القوم، واستمر سويلم، هناك مثلاً المخلدية، وهي سلالة خيل خالد بن الوليد، وصفق القوم مرة أخرى، وأين يعيش هذا النوع؟ وهنا تململ سويلم شأن من يقدر خطورة الكلام الذي يقوله، إنه يعيش في فلسطين، والأردن، وجنوب سوريا، ثم تابع كلامه... وهناك الكبيشة، وأخذ سويلم يروي للقوم قصة أصل خيل الكبيشة، وكانت القصة تتحدث عن رجل حاول أن يلقح أربع أفراس من حصان مشهور، ولكن الحصان لم يستطع التلقيح

للفرس الرابعة، كفبش الرجل مما تساقط من مادة اللقاح في الأرض، ودسها في رحم الفرس، فكانت كبيشة!

كان الرجال يتلفتون في وجوه بعضهم بعضاً، وقد اكتست وجوه النساء حمرة أصيلة، وسويلم غارق في رواية القصة وتصوير حواشيها، ثم تحدث عن «العبيّة»، وكيف ظهر بيتها إلى حيز الوجود، واستمر سويلم يتحدث عن الخيل والقوم كأن على رؤوسهم الطير، وقد أحس أنه وحده فارس الحلبة، وأن أحداً لا يستطيع أن ينازله في هذا الميدان، ثم سكت وفرك يديه... وتلفت يستعرض الوجوه، فانطلق القوم في شوط جديد من التصفيق، وقد اكتسى وجه عبدالله بابتسامة عريضة، وكانت (مريم) تتطلع إليه بتقدير واحترام كبير...!

(٥٢)

فقد كانت مريم الجالسة لصق سويلم هي أكثر الحضور اهتماماً بما يقول، وفي رسم الظلال حوله، وعلى الرغم من أن سويلم كان يتجاوزها بنظره وحديثه إلى عبدالله، فقد كانت تشد عنقها نحوه حتى ليوشك أن يلتقي وجهها بوجهه في بعض الأحيان، وحين أزف موعد تناول الطعام، تقدم الجميع نحو بهو آخر، كانت تتوسطه مائدة طويلة جداً، عليها صحاف لا حصر لها، ومن فوقها أوعية مملوءة طعاماً!

وتقدم رجل وسحب كرسياً متوسطاً، وأومأ إلى سويلم، ودار عبدالله ليجلس قبالته، وفوجيء سويلم بالآنسة مريم تجلس إلى يمينه، وبأنثى أخرى تجلس إلى يساره....!

وتلفت سويلم في شيء من الذعر ذات اليمين وذات الشمال، ثم صوب نظره نحو صديقه، وكومة الصحاف بيضاء مرصوصة فوق بعضها بعضاً لا يدري لرصها على هذه الصورة سبباً. . . .

وحين تحلق القوم ذكراً وأنثى حول المائدة، ابتسم عبدالله وهو يقول لصاحبه؛ إننا هنا وفي ألمانيا نصنع (المنسف)، لقد صنعت لك الأكلة خصيصاً، وأشار عبدالله إلى وعاء واسع كانت عليه بطة أو حبشي فوق طعام في شبه الثريد، وقد حرك سويلم يده وأصابعه آلياً وهمَّ فعلاً أن يقبل عليه، لولا أن تذكر فعلاً هذه الصحاف المرصوصة، ودار الساقي يملأ الكؤوس الفارغة على الطاولة، ويتابع مهمته التي بدأها في المجلس الأول، وتخطى سويلم، والشاب الشمعي اللون ومريم، تخطاهم، فلم يصب في كؤوسهم من الزجاجة التي يحملها، ولم تفت سويلم هذه الملاحظة، لماذا يا ترى لا يشارك هؤلاء إخوانهم الشرب من مادة الخمر!

وعلى الرغم من أن سويلم يؤمن بأن الخمر ستفقد هؤلاء عقولهم في النهاية، إلا أن الجميع كانوا يتكلمون بوقار، اللهم إلا ضحكات صاخبات تخرج بين الحين والحين، وكان سويلم من أشدهم وقاراً، وكانت الأنظار مصوبة جميعها عليه، حتى بدأ يرتبك أمام هذه العيون، وخيل إليه أنه سيخطىء في الأكل، أو أن الشوكة ستنزلق من يده، فتسقط الطعام على الأرض، وماذا يفعل في هذه الصحاف المرصوصة؟ وتقدم الطاهي ليصب إلى سويلم الحساء الذي يقدمونه أمام الأكل الغليظ، ولكن سويلم تلكأ قليلاً، ثم فكر وقدر، وآثر أن يكتفي بصنف واحد من هذه الأصناف كلها، ويأخذ منه كفايته لئلا يخطىء في تناول أحد هذه الأصناف، فيصبح مضحكة لهؤلاء الغرباء، لذلك فقد أعطى

كتفه للطاهي الذي جعل قدر الحساء في إبطه، وأشار إلى المنسف الذي تحدث عنه عبدالله، وقال: أنا آكل من هذاك، وتلفت الجميع في وجوه بعضهم بعضاً، ورطن عبدالله مع الرجل الذي يوزع الحساء، فطفق يصبه في الصحن العلوي أمام كل ذكر وأنثى، حتى إذا انتهى ترك قدره جانباً، ثم ملأ صحن سويلم من الصينية الكبيرة التي قالوا إنها منسف، ووضع عليه قطعاً من لحم الطير، وقد لاحظ سويلم أن الذي يفرق الطعام لا يلمس شيئاً بيده، حتى هذا الطير الكبير يمزقه بشوكة مناسبة!

كان الطعام شهياً حقاً، فقد كان من القمح المجروش، وكان لحم الطير لذيذاً كذلك، وقد أكل سويلم والناس يحتسون الشوربة، وقد أوشك أن ينتهي صحنه حين سحب موزع الطعام صحون الحساء ليضع في صحن تحتها لوناً آخر، وقد ظل سويلم يتلهى بحبيبات البر أمامه، وعبدالله يطلب منه أن يجرب أو أن يملأ صحنه مرة أخرى وهو يرفض، وكان يوشك أن يكتفي من الطعام فعلاً، ومريم تلحظه، وكان القوم قد دخلوا في مناقشة طويلة عن الغذاء ومقدار الكفاية منه، وقال بعضهم: إن سويلم بأكله القليل من صنف واحد، هو أصح جسماً، وقال آخرون: إن للجو أثره في كمية الطعام التي يجب أن يلتهمها الإنسان، وإن سويلم قد أخذ كفايته على أساس عيشه في بلاده، في حين أن الضرورة تقضي بأن يضاعف من طعامه، وأن يعمد إلى الدسم في هذه البلاد الباردة... وقد سأل الشاب الشمعي اللون سويلم. لماذا لا يأكل أكثر.. هل السبب لأن الطعام لايلائمه؟ فقال سويلم: «أخلف الله عليكم»، أخذت كفايتي، والله ما دبرته، ولقد وقف الشاب يحك رأسه ليعرف ما يقصد سويلم بكلمة (ما دبرته)، فتطوع

عبدالله ليقول له: إن سويلم يقول: إنه لم يوفر الطعام، ثم أخذ يشرح للقوم في رطن طويل عادات البدو في تقديم الطعام، وكيف يمزق الواحد منهم اللحم بيده للضيف، فاهتزت إحدى الاناث اشمئزازاً، ولكنها عادت إلى صحنها تتابع التهام طعامها لكي لا تواجه نظرات الاستهجان من أكثر الحضور، ومن مريم، والفتى الشمعي على وجه الخصوص. . . . !

كان القوم كلهم في وداع سويلم وعبدالله، وسلم عليهم سويلم جميعاً شاكراً لهم هذا الكرم، وودعته مريم والفتى الشمعي، وقالوا له: إننا نرجو أن تزورنا في مركزنا. . فتلفت سويلم في وجه عبدالله، فقال لهم هذا بالعربية طبعاً، إن سويلم سيزوركم غداً، أنا سأمر به عليكم!

كان الناس على حالهم يهرولون، وكانت المدينة قد أصبحت شعلة حمراء من كثرة النور الملون المثبت على أبواب عماراتها وشرفاتها، وكان نصف الليل قد أوشك أن ينتهي، وقد أحس سويلم بالتعب، أحس بدوخان في رأسه، وحين فتح عبدالله ذلك البيت المهجور، كان سويلم يود أن يرقد في السرير حالاً، وحين همز عبدالله زر الكهرباء، وجد ورقات بيضاء على الباب قال: إنها من أختيه، لقد جاءتا لزيارته في غيابه!

وقف سويلم قليلاً: أخوات لعبدالله؟ والتفت إلى صديقه، لا بد أنهن يزرنك بأبنائهن وبناتهن، يا سبحان الله، الأخت هي الحبيبة، جاءتك قبل جميع الأقارب! أنت لا شك عزهن. . ولكن عبدالله قطع عليه كلامه ليقول: إنهن لم يتزوجن، وما أعتقد أنهن سيتزوجن في

المستقبل بعد! ، لماذا؟ وكيف؟ ولكن عبدالله لم يتزوج هو الآخر، ومضى إلى فراشه ليحلم بهؤلاء الناس الذين لا يتزوجون!

(٥٣)

كانت الأختان مع أخيهما على مائدة الإفطار، وقد بكرت امرأة متوسطة العمر إلى بيت عبدالله، لتصنع له الطعام وتقدم الفطور، وقد كرر سويلم: (جودن مورجن)، صباح الخير، أكثر من مرة إلى أختي عبدالله، ولقد كانت أسئلة كثيرة تدور في رأس سويلم حول هاتين اللتين تقدم بهما العمر، ولم تجد واحدة منهن ابن الحلال الذي يسترها ويحميها، وكانت أسئلة كثيرة تدور في رأسه: كيف تقضي الواحدة منهما وقتها؟ وكيف تعيش؟ كيف تمشي هكذا تختلط بالرجال، دون أن يمسها الرجال؟ ولكن سويلم لا يجرؤ على مجرد الاستفسار البعيد، فضلاً عن السؤال المباشر، كانت لعبدالله عنده حرمة لا يستطيع معها أن ينظر إلى الواحدة منهما نظرة فاحصة، ونظرة خبيثة، وكان لا يستطيع أن يتملى بدقة من صدورهن المفتوحة، وأجسادهن التي تعرضها ملابسهن في أوضح صورة، وكانت أجساماً وافية مغرية على الرغم من أن السنين قد تقدمت بصاحبتيهما... وكان سويلم يشيح بوجهه ذات اليمين وذات الشمال يحدث عبدالله حيناً، وينظر إلى باب المطبخ حيناً آخر، والآنستان الكبيرتان تضحكان، وتتحركان في ميوعة ظاهرة....!

وخرجت الأختان على بوق سيارة كان يصرخ في الخارج، وكانت كل واحدة منهما تلوح بيدها إلى سويلم في حركة هزته من أقطاره، وعبدالله ينظر إليه مسروراً، وكأن الأمر لا يعنيه من بعيد أو قريب أو كأنه مسرور بميوعة أخواته اللواتي تهز الواحدة جسمها للغريب على هذه

الصورة، لقد رأى سويلم مثل هذه الحركات من قبل، ولكن الأمر لا يعنيه أما اليوم، فإن الأمر يخص صديقه ومضيفه، فكان يغار على أخواته، وكأنهن شقيقات سويلم، ولقد تمنى سويلم أن يكسر خيزرانته على جسم كل واحدة تهتز على تلك الصورة للغريب!

ولم يكن ما يدور في رأس سويلم يلمس - ولو من بعيد - تفكير عبدالله، لقد كان هذا مسروراً بزيارة أخواته، وكان سروره سيزيد أضعافاً لو تمكن من تسلية هذا البدوي، وتسلية أنفسهن معه، وكان يشعر وكأنه يقدم هدية لا تقدر بمال لأخواته في شخص هذا الأعرابي، وكان يشعر بسعادة غامرة حين يجد صاحبه ما يشتهي من تسلية وأنس مع أخواته، لذلك فقد كان حريصاً كل الحرص أن يترك لهن وله المجال ليستعمل كل فريق سلاحه في جذب الآخر، والحديث معه، وعلى الرغم من أن تصرف سويلم لا يدل على قرب استسلامه، فإن الأختين لم تيأسا من خضوعه نهائياً، مسكين هذا الشرقي، إنه لا يعرف الحياة، ولا يعرف كيف يستمتع بها، فلا بد إذن من تطويعه وتدريبه، حتى إذا ذاق لذتها ونعيمها، انطلق يعب من معينها دون توقف!

كانت تلك نظرة عبدالله على الرغم من المدة التي قضاها في البادية، وكانت تلك نظرة أختيه على الرغم مما لمسته كل واحدة على حدة من تصرف سويلم الجلف الغليظ الذي تنعقد جبهته، ولا يكاد يمد بصره إلى الوجه الصبوح!

لقد خرجت الأختان، وتنفس سويلم الصعداء، وجاء عبدالله ليتحدث عن أخواته، وعن الصغيرة (الملعونة)، وما كان سويلم ليعرف

الصغيرة من الكبيرة، ولم يكن ليذكر الفروق في ملامح الأختين، ولكن عبدالله استمر يتحدث عنهما، وعن مكان عمل كل واحدة . . . وسويلم يبحلق في صديقه كأنه لا يعرفه، أيتحدث عن أخواته على هذه الصورة، وكأنه يعرض بضاعة كاسدة؟ . . . إن سويلم لو قبل هذا التصرف من جميع الناس، فإنه لا يقبله من صاحبه، ولذلك فقد انتفض متغير الوجه وهـو يأخذ مكانه في السيارة إلى جانب عبدالله انتفض يقول: (أنت تعرف أننا في بلادنا لا نتحدث عن النساء، ونتحدث عن أخواتنا وبناتنا، وبنات العائلات معروفة بدون كلام . . فرق كبير بين عاداتنا وعاداتكم يا عبدالله، والله إن أخواتك (زينات)، وما أدري ليش ربنا ما قسم لهن بابن الحلال؟) قال عبدالله: ونحن هنا نختلف عنكم، الواحدة هنا هي التي تختار ابن الحلال، هي التي تختبره، وهي التي تعجم عوده، وتعيش معه مدة قبل أن ترتبط معه بالزواج، وفتح سويلم عينيه على سعتهما، وهـو يقول تعيش معه، وهما لم يتزوجا، وكيف ذلك؟ وبالله عليك يا عبـدالله، هل تظن أن الأنثى الغريرة بنت الثامنة عشرة، أو التاسعة عشرة، التي لم تجرب الحياة تقدر أن تختار لنفسها، هل تظن أن هؤلاء الأولاد والبنات يعرفون صالحهم؟ هل تظن أن الأنثى في مثل هذا العمر تختار الأفضل؟ وهل تكون أقدر على معرفته من أبيها، أو أمها؟ لا . . . يا عبدالله!، نحن مختلفون حقاً، عاداتكم بعيدة عنا . . . ونحن نعرف الـذي يريد أن يتزوج، من الذي يحب أن يلعب فقط، ونحن نعرف الذي يستر البنت من الذي يفضحها . . . !

وعبدالله يقود السيارة، ينصت في ترو لحديث هذا الرجل الفطري المخلص، ينصت إليه، ويقلبه على وجوهه، ثم يحاول أن يخلص منه إلى

آفـاق أوسـع وأبعد، يخلص منه إلى المعضلات التي يواجهها المجتمع المتمـدن، معضلة الـزواج، وبوار الأنثى، وضياع النسل، وكيف أن المجتمعات التي تخرج منها أمثال سويلم، إن كانت تشكو الجوع والفقر، فإنها لا تعاني من أزمة الزواج، وهذه العلاقات بين الرجل والمرأة التي لا تعرف الحدود والسدود!

ودخلت السيارة المدينة، وعاد سويلم يبحلق في الجماهير التي تهرول لاهثـة مع الأرصفـة، وأوقف عبدالله السيارة، وقفز أمام سويلم على درجات في عمارة ضخمة، ويهمز زراً على الباب، فيجد سويلم نفسه حين فتح الباب وجهاً لوجه أمام (مريم)!

(٥٤)

وانتفضت تحيي: (أهـلاً وسهـلاً)! ولقـد تبـادل عبـدالله معها بضع كلمات، ثم اعتذر لسويلم لارتباطه بعمل آخر، ومضى على أن يتصل بسويلم فيما بعد، ولقد أحس سويلم بانقباض في أول الأمر حين وجد نفسه يمشي وحده مع هذه الأنثى في ممرات طويلة، ولكنه مع ذلك كان يشعـر بشيء من الأنس في وجـودها، لأنها أولاً تحسن العربية، ولأنها ليست من صنف الإناث اللواتي رآهن في أكثر من مناسبة في هذه البلاد، كانت محتشمة نسبياً، وكانت تتكلم حين تتكلم في هدوء، وكانت لا تكثر الضحك كبقية بنات جنسها، وكانت تمشي أمامه وقد قصر خطوه وراءها، فالتفتت تقول له: تفضل!

وتفضـل سويلم في داخل غرفة كبيرة، يحتلها ثلاثة شبان، اثنان وراء

مكاتبهم، أحدهم ذلك الشاب الشمعي اللون، والثالث يجلس على كرسي في ناحية، ولقد هب الجميع وقوفاً لتحية سويلم، وصافحه الشاب الثالث وهو يسلم عليه بلهجة عربية، ويقول: أنا أحمد رمضان من الأردن...!

وفوجيء سويلم، وما كاد يصدق أن هذا الذي يمسك بيده هو من الأردن حقاً، فقد كان سويلم يظن أنه وحده من العرب الذي وصل إلى هذه البلاد البعيدة، وما كاد يستقر به المقعد حتى سأله: من أي بلد في الأردن؟

وتمتم الشاب قليلاً، وقال: أنا من الأرض المحتلة.. أنا من فلسطين، واهتزت أعصاب سويلم، ومن أي البلدان يابني؟ قال أنا من الفالوجة!

يا سبحان الله، وماذا تفعل يا أحمد في هذه البلاد؟ قال الشاب: إنني أتعلم، إنني أدرس الطب، وفكر سويلم قليلاً، وهل أنت وحدك؟ قال الشاب: إن شباباً كثيرين من العرب يدرسون هنا، شباباً من جميع الأقطار العربية!

ونسي سويلم ما جاء من أجله، ونسي مريم، ونسي أنه من بلاد غريبة، ها هنا شاب من بلاده، وهناك شباب آخرون، إذن فهو ليس وحده في الديار هذه... وانتبه سويلم على صوت مريم تستفسر منه قهوة أم شاي!

وابتسم سويلم: قهوة (مبهرة)! إذا كان ذلك كذلك، فنحن نشرب

قهـوتكم، وضحكت الفتـاة وهي تكـرر في لكنـة أجنبية: أهـلاً وسهـلاً...! وكـذلـك كررهـا ذلك الشاب الشمعي اللون، وقالت مريم: نحن يا سويلم ألمـان.. وابتسم سويلم، فما كان يشـك في (ألمانيتهم)، ثم أردفت، ونحن مسلمون، واتسعت حدقتا سويلم، مسلمون....!!

وتطوع أحمد رمضان ليشرح لسويلم ما استعصى عليه فهمه، هؤلاء كثـيراً ما قرأوا، ووجـدوا أن الإسـلام هو الـعقيدة الصحيحـة، فاتبعـوه....! بعـد أن قرأوا.. في هذا المجال، (وهز رأسه في شبه تسليم، وهو يقول: الله قادر على هداية عباده، والحمد لله على دين الإسـلام! وطفق الجميع يذكرون لسويلم محاسن الإسلام، ومزاياه، وتحدثوا وأطالوا الحديث، مما أثار الملل في نفس سويلم، فما كان يشك في دينـه حتى يتأكد بمثل هذا الكلام من صلاحيته، وكان كل ما يقوله سويلم تعليقاً على هذا الحديث والنقاش الدائر بين الثلاثة أن يكرر: (الحمد لله على نعمة الاسلام)!!

وتلفت أحمد رمضان إلى سويلم يسأله، الأستاذ من أي البلاد؟ قال سويلم: أنـا من «الـترابـين»، وبـلادي «العوجا حفير»، طردونا عنها اليهود، والحين نعيش جوار «خربة قمران»..: وتعجب الشاب، فهو يذكـر أن «خـربـة قمران» ليست بلداً.. كيف تعيشون قرب «خربة قمـران» يا أستاذ؟ فقال سويلم: نحن نعيش في بيوت الشّعر، وتنهد الشاب، وقد ازداد عجبه، وما الذي جاء بهذا الذي يعيش في بيوت الشعـر إلى هنـا...!؟ ولكنـه آثـر أن تحين فرصـة يكشف فيها هذه الأسرار، فقال معقباً؛ إن شاء الله سررت بزيارتك لهذه البلاد!؟

قال سويلم: والله ياابن أخي رأيت أشياء كثيرة، ولكن عادات القوم تختلف عن عاداتنا.. فسكت الشاب، وتناولت مريم سويلم بالسؤال: أي عادات تعني؟

قال سويلم: في كل شيء، وكانت مريم مقتنعة، فلم تحاول أن تطيل الشرح، ثم قالت: هل تسكن أنت بنفسك بيت الشَّعر؟ قال سويلم: نعم. أنا، وأقاربي، وأولادي، وزوجتي.. ودارت مناقشة طويلة عن مزايا بيت الشَّعْر ومساوئه، وسويلم يؤكد أن العيش في المدينة، حيث (الحنفيات) والحمام والمدافىء.... يا سبحان الله، أين الراحة، من العيش تحت خيام الخيش، وكانت مريم وصاحباها من ذلك الطراز من الناس الذي يفتش عن الغريب، كانوا من أولئك الذين يرون أن الحياة في البادية هي جنة الحرية، وموطن الحضارة، ومهبط الإلهام، وهم من أجل هذا يضعون سويلم تحت المجهر، يرون في كل ما يقول، وما يفعل،ترجمان الفطرة الإنسانية، ومعبراً عن التقاليد التي أرساها الإسلام في هذه الفطرة السليمة!

فكانت حفاوتهم بسويلم، حفاوة صادقة، ولقد أثقلوا على سويلم في تتبع حياته، وحياة قومه، وطرائق عيشهم، ثم جاؤا إلى موضوع الغداء، فأصر أحمد رمضان، وقد كان مأخوذاً باحترام هؤلاء الناس لسويلم أكثر من احترامه هو له، نقول: لقد أصر أحمد رمضان على أن يكون سويلم ضيف الطلبة العرب.... لكي يروه ويراهم... ووافق القوم على أن يكون سويلم ضيف مريم في العشاء....!

(٥٥)

لم يكن سويلم يدرك أن عليه تبعة إخبار عبدالله بتحركاته، ولقد مشى مع الطالب أحمد دون أن يتصل، أو يطلب الاتصال بمضيفه الأصلي عبدالله، ولقد ذهل الأخير حين مر بالمركز الإسلامي في همبورغ، ولم يجد صاحبه، ولكن مريم طمأنته كما وعدت بأن تتولى إخبار عبدالله حين ينتهي سويلم من العشاء ليتولى بدوره نقله إلى البيت. . . . !

ومشى سويلم مع الطالب العربي، وقد أحس بالطمأنينة تغمره، ها هو يسأل عن (المومديلات) التي تشبه النساء الجميلات، ويسأل عن أمواج الناس الغادية والرائحة أين يذهبون، وانتقل من شارع إلى شارع، وفي الطريق لقيهم طالب عربي آخر، وتفرس في وجه سويلم، وقد ضمن رأساً أنه من أثرياء منطقة الخليج، وأن زميله أحمد يعمل ـ كما يفعل بعض الطلاب أحياناً ـ ترجماناً له، فسلم وغمز إلى أحمد قائلاً: يظهر أن دعوتك قد استجيب لها. . كيف حال. . ووقف لا يدري، أيقول أستاذ أم شيخ أم ماذا؟ . . . وانتشله أحمد من هذه الحيرة قائلاً: السيد سويلم من الأردن!

وتنهد الشاب، وبحلق في أحمد بنظرة استنكار، ثم إلى سويلم: (أهلا يا سويلم، شرفت يا سويلم، منوره همبورغ يا سويلم. . ! أظن أنك جاي تشتغل. . . هنا لا يوجد شغل لمن لم يتعاقد سلفاً. . . ! واستمر الشاب في كلامه وقد ازداد سويلم سروراً بلقياه، ونظر إلى الشاب الثرثار قائلاً: فضل الله أكثر يا ابن أخي، هل يوجد شغل لأمثالي؟ قال الشاب: نعم. . . . . ولكن كما قلت لك، لا بد أن

تتعاقد سلفاً قال: سويلم؛ وفيه إذن شغيلة عرب في هذه البلاد؟ قال: هنا أكثر من عشرين ألف عامل، وذهل سويلم، عشرون ألفا!؟ إذن فسويلم يزور بلاداً قد ملأها العرب، وخيل لسويلم وهو يسير أن جميع هؤلاء الـذين يلقـاهم من العرب، ولكنه نظر إلى عيونهم، وإلى لون بشراتهم، فشك في أمره. . . !

كان هذا الحديث دون أن يتعارف سويلم والشاب، وحين همس الشاب قليلاً مع أحمد التفت إلى سويلم مرحباً في ثرثرة أطفال، وقال أحمد لسويلم: هذا أيضاً وأشار إلى الشاب من بلادنا، وقال سويلم: إذن أنتم هنـا عصبة، ربنا ما يقـطع منكم. . . ووقف الثـلاثة قليلاً ليتجـاوزوا إلى رصيف مقـابل، فأمسك سويلم بهم وقد ملأه الرعب ليتأكد من تلك العلامة اللعينة التي تضيء للسيارات، وتسمح للراجلين بالمرور، وقد تركز ما حدث معه سابقاً، وفعل سويلم فعل المسؤول عن رفيقيه لصغر سنهما، ثم أمسك بيديهما وانطلق في عجلة ظاهرة، حتى استقـر على الرصيف ومضوا، وقد طال بهم المسير يزحمون الناس زحماً ليجـدوا طريقهم، واصـطدمت امرأة ضخمة الجثة بسويلم، فالتفت نحوها وكان الشرر يتطاير من عينيها، ولكن الشاب ضحك وأسرع في مشيه، ولقـد رمقـه سويلم مؤنبـاً، ولكنـه رد هذا التصرف إلى طيش الشباب، وفي عمارة ضخمة دخل الشابان أمام سويلم، وفتحا باباً رأى سويلم داخله شاباً في ملابس النوم، يشرع في تنظيف لحيته، ورأى شاباً آخر يسرح شعره، ودون أن يترك الذي يحلق لحيته ما هو فيه، أخذ يردد أهلاً أحمد، يا مرحب يا عيسى يا نور العين، أين كنت يا عيسى؟ اترك البنت يا ولد، وشوف دروسك، واهتز الذي يسرح شعره ليقول: أما

الأستاذ أحمد . . . كان يصلي . . . ! تقبل الله، كان يصلي عند مريم . . يا سلام على الزمخشري ! !

حدث هذا دون أن يتكلم أحمد رمضان وصاحبه . ودون أن يلتفت الشابان إلى سويلم، فزمجر أحمد رمضان قائلاً : وضرب من يدعى بعيسى بكفيه، وقال يا جماعة معنا ضيف . . يا حسن، وأنت يا سيد رشدي، وتلفت الاثنان في حركة مسرحية بعد أن تفرسا في وجه سويلم، وقد ظنا به ما تخيله من قبل عيسى . . . يا مرحب . الشيخ . . الأستاذ . . . فنظر إليهما أحمد مؤنباً، هذا هو السيد سويلم، وهو من بدو بلادنا، وسيشرفنا اليوم على الغداء، ودخلوا إلى غرفة أخرى، كان فيها شاب مكباً على الدرس، وقد وقف مرحباً، وحين عرف سويلم زاد في الترحيب (بريحة البلاد)، كان هذا أيضاً من الأردن واسمه سليم من قرى نابلس . . ! وكان سويلم يقلب فكره عجباً . . . هؤلاء كلهم من بلاده . . . لا بد أنهم يتعلمون، وقال سويلم في نفسه : العلم يرفع بيوتاً لا عماد لها، وقد صمم أن يعلم سليمان على الأقل، ويلحقه آخر أهدافه في العلم . . !

قال سويلم : والله يا شباب كنت أظن أني وحدي في هذه البلاد، ولكن الحمد لله ها أنتم، ربنا ينجح مقاصدكم، ويردكم إلى بلادكم سالمين غانمين . . . وأخذ الشباب يسألونه عن الوطن وأخباره، وعن السياسة . . ولكن سويلم لم يكن ليروي غلتهم، فكان يكرر أمام كل سؤال : (كل شيء بخير والحمد لله . . .)!

لم يدر سويلم كيف جلب هؤلاء الشياطين الطعام، لم يرهم

يحضرونه، ولم يشاهدهم يأمرون أحداً بإحضاره، ومع ذلك دخل معهم إلى غرفة صغيرة، تتوسطها طاولة جلس الخمسة من حول سويلم، وقد أعطى نفسه حرية التصرف، فتناول الرغيف بيده، وتحرر من تلك المسامير والسكاكين التي يكدسها القوم على مائدة الطعام، وأعطى الشباب أنفسهم حرية الكلام مع سويلم على الطبيعة، هذا يغمز له على ذاك، وذاك يحدثه عن مغامرات زميله، ويطالبه بإخبار أهله أنه فسد، ويعترف أحدهم بأن بنات هذه البلاد لا مثيل لهن يا سويلم، وينطلق في استعراض بعض ما مر به من حوادث، وكان أغرب حدث سمعه سويلم، ووقف له شعر رأسه، ما قصه رشدي على القوم!

(٥٦)

كانت حادثة غريبة حقاً لا يمكن أن يصدقها عقل سويلم، وكان أكثر ما أدخل العجب والاستغراب في نفس سويلم أن رشدي كان يتحدث وكأن هذا الذي حدث معه يحدث كل يوم...!

كان رشدي قد قرر أن يزور صديقاً له يدرس في مدينة مجاورة، فأخذ القطار الموصل إلى تلك المدينة، ويروي رشدي أنه كان مشغولاً بالمطالعة في كتابه عندما نبهه شيخ مهيب الطلعة عريض المنكبين، ورجاه أن يأتي معه، لقد تردد رشدي بادىء الأمر؛ لأنه لا يعرف الرجل، ولأنه لا يدري ماذا يريد بسحبه وراءه، ولكنه ـ وبدافع من النخوة ـ قام وراءه وقد خيل له أن الرجل يحتاج إلى مساعدة عاجلة، وقطع رشدي مع الرجل بضع مقصورات، والقطار يدوي، ووقف مع هذا الرجل الغريب أمام مقصورة معينة، ودفعها الرجل، وفتح رشدي عينيه دهشةً وعجباً..!

كان في داخل المقصورة أنثى في ريعان الشباب، تلبس ملابس تخبر عما تحتها، وقد تمطت في المقصورة في ارتخاء، وانتفضت واقفة، وأخذ رشدي يصور للقوم طولها، وعرضها وعينيها، وصدرها، كانت ـ كما يروي رشدي ـ مخلوقاً جميلاً يعجز هو عن وصف جماله... وفي غمرة الوصف تذكر سويلم، وتذكر أفضل مثل للجمال عنده، فقال له منفعلاً؛ إنها كالغزال يا سويلم، وهز سويلم رأسه، وماذا بعد ذلك!؟

واستطرد رشدي.. كان ما بيني وبينهم مختصراً جداً، لقد قدمها لي الرجل على أنها ابنته، وأنها تشعر بوحدة قاتلة، فقد مضى أكثر من خمسة عشر يوما دون أن ترقص، أو تتسلى، أو تخرج مع صديق، إنها تشعر وكأنها في سجن،«وقد خشيت أن يؤثر ذلك في صحتها، فاخترناك ـ إذا لم يكن لديك اعتراض ـ لكي تتحدث معها، وتؤنس وحشتها، وأحنى الرجل رأسه في حركة مسرحية ومضى»...!

يقول رشدي: إنه لم يستطع مجرد الوقوف أمام هذه الأنثى، فولى حالاً إلى مكانه الأول، ليتابع مطالعة كتابه، والأنثى تحاول أن تستبقيه في رجاء حار ذليل... ونظر سويلم إلى حركات رشدي، وإلى شبابه المتفجر، وعينيه الواسعة، وجسمه الممتلىء... فشك في المقطع الأخير من روايته، وهو يهز رأسه مؤمناً، ويردد بكلام مسموع: (يا ساتر يا رب)!!

وأخذ عيسى يروي من ناحية قصصاً مشابهة، وإن تكن أقل تأثيراً في نفس سويلم، وأخذ الثلاثة: رشدي وعيسى وحسن يتناوبون الحديث في هذا الموضوع، حادثة ورواية تذكر بأخرى، وكان هؤلاء

الشباب حين يعودون إلى وطنهم أحياناً في العطلة المدرسية يمرون بجميع البلدان الأوروبية؛ يمرون بالنمسا، وإيطاليا، ويوغوسلافيا، فأخذوا يتنقلون بهذه القصص المتشابهة من بلد إلى بلد، وكان أكثر ما هز سويلم وملأ نفسه اشمئزازاً، ما رواه هؤلاء الشباب عن باريس. . . وكان أكثر ما هزه، وما جعله يراجع محدثيه: (هذا كذب)! حين أخذوا يتحدثون عن العري في بعض الغابات المجاورة، وعن تعري النساء في بعض الدهاليز الليلية. . . كانت أحاديث ما طرأت يوماً على فكر سويلم، ولكن رشدي ضرب المائدة بيده وقال قم يا سويلم، وأنا أريك كل هذا. . . ! وسكت الشباب عن الحديث، وكانت أصابع سويلم قد كفت عن تمزيق الخبز، وكان يشعر وكأنه قد امتلأ شبعاً. . . ونظر أحمد رمضان إلى سويلم، فرأى الرجل قد تغير لونه نوعاً ما، وسكت. . سكوتاً طويلاً، فقال له أحمد: يا شيخ سويلم. . . لقد جئنا هنا لنتعلم العلم الذي ينفعنا، وينفع بلادنا، ولكنك ترى هؤلاء الشباب. . . إياك يا سويلم أن ترسل أولادك إلى أوروبا. إنهم يفقدون دينهم وشرفهم. . . . إياك يا سويلم!!

ولم يكن سويلم في حاجة إلى توصية، وقد امتلأت نفسه رثاء لآباء هؤلاء الشباب وأمهاتهم. . . إنهم هناك وراء البحار لا يدرون أنهم يرسلونهم هنا ليتعلموا الرقص، وتسلية الإناث يا خسارة. .

وخرجت (يا خسارة. . .) من فم سويلم مع زفرة عالية، فضحك الشباب الثلاثة أبطال القصص التي سمعها سويلم، أنت لن تأتي إلى هنا كل يوم. . شوف (هالحاجات عمر جدك ما رآها يا سويلم. .) وقرب عيسى رأسه إلى سويلم، وهو يقول له: أشياء زي البالوظة يا

سويلم، ولا يهمك..!!

كان سويلم يوشك أن ينفجر غضباً، وكاد أن يعطي نفسه الحرية لمحاسبة هؤلاء الشباب على هذا الانفلات، على أساس أنه أكبرهم، وأنه من بلادهم، وأنه أولى بهم، وقد سره جداً سلوك أحمد رمضان، وكذلك سلوك نعيم، لأنهما لم يشاركا في الحديث، وفي رواية تلك القصص المخجلة، بل كانوا بين الحين والحين، يغمزون زملاءهم ليسكتوا... فنظر سويلم إليهم في إعجاب، وقال: أنت يا أحمد! قال أحمد: والله أنا صفر اليدين يا عم سويلم!!. وهز يده مؤنباً: لا تنس أن تخبر آباء هؤلاء الفاسدين الذين يصرفون عليهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.. فضحك الثلاثة سخرية به، وقالوا.. نعم يا سيدنا الشيخ... وتطوع رشدي: والله لا بد أن أري الشيخ سويلم ذلك المكان، وليحكم هو بعد ذلك!

وقامت ملاحاة بين الشباب، هل يذهب سويلم او لا يذهب، وأخيراًوافق الجميع كل على أساس إثبات نظريته، وقال أحمد رمضان: على أي الأحوال أنا أوافق أن يذهب سويلم هناك ليرى هذه المدنية على حقيقتها... وقال رشدي: ليرى أننا معذورون يا سيدنا الشيخ، الله ينفعنا ببركاتك، يا سيد أحمد وضحك الجميع وهم ينهضون ليغسلوا أصابعهم، وسويلم يضرب أخماساً في أسداس عن ماهية ذلك المكان

(٥٧)

كان سويلم قد انساق مع خيالاته عن طبيعة ذلك المكان الذي قرر الشباب أن يزوره سويلم، ليعلم حقيقة الحياة المدنية في رأي أحمد رمضان، وليرى الدنيا ويشوف (البالوظة) على رأي رشدي وأصحابه!

وكان سويلم مشوش التفكير فعلاً، فقد عصفت به القصص التي رواها الطلاب قبل قليل، وكان يسأل نفسه مرة بعد مرة؛ ماذا يتعلم هؤلاء الشباب العرب هنا؟ ثم ماذا يفعلون بعد هذا التعليم في بلادهم؟ أهذا هو العلم الذي يرفع بيوتاً لا عماد لها!؟ وكانت ردة الفعل، ومبعث التشويش يأتيان من الإيمان الراسخ في رأس سويلم عن جزاء الزناة، وعن الحدود، والقوانين التي تحكم تصرفات الرجل والمرأة لا ضابط ولا رابط، ولا من يستحي... يا سبحان الله! كيف يصبر عليهم الله؟ كيف لم يحرقهم حرقاً، ويصبحوا كهشيم تذروه الرياح!؟ ولكن سويلم يراجع نفسه، لعل لله حكمة في ذلك، إن الله يمهل ولا يهمل، إن الله يمد لهم الحبل إلى أن يمكنهم من الدرك الأسفل في النار... وتنهد سويلم وهو يكرر عبارته التقليدية: وليس بعد الكفر ذنب!

ووضع رشدي يده تحت إبط سويلم، وخرجا بعد أن ودع الطلاب إلى لقاء، ولم يفت سويلم أن يلاحظ غمزات الشباب عليه، وهم يرددون في صوت واحد: مع السلامة يا سويلم!

وكان رشدي يمشي بجانبه وكأنما يجره جراً، فقد كان سويلم مهموماً جداً، كان كالغلطة المطبعية في القصيدة الرائعة في ذلك العالم المطلي

بالأنوار الزاهية، والمزركش.. بالضحك والابتسام واللامبالاة!

وما كان سويلم يهتم هذا الاهتمام لولا أن في هذا العالم شباباً من العرب، من بلاده البعيدة عبر البحار، يعيشون نفس العيش، ويمارسون نفس العادات، لقد أصبح هؤلاء الشباب (منهم... يا خسارة)!.

ومضى سويلم مع رشدي، وهذا يضاحكه، انظر يا سويلم كيف مشية تلك.. يا سلام على (الكسم) يا سويلم..! هل ترى تلك الأنوار التي تلمع في النهار... في هذا المكان يا سويلم يسهر الناس حتى صلاة الفجر... تصور أنهم يصلون..! ولكن بطريقة أخرى، أليس كذلك؟ وتمتم سويلم مستعيذاً بالله... وقد ملء حذراً وريبة من رشدي، وخشي أن يدسه في أحد تلك الأمكنة التي كانوا يتحدثون عنها، وقال: .. وماذا يفعلون حتى الفجر؟ قال: النساء تخلع ملابسها على الفترات، والرجال يصفقون، والخمر يشربونها بدون حساب.. وبعدها يرحلون يا سويلم!

وتذكر سويلم تحذير أم سليمان أن الخمر حين تلعب برأس شاربها لا يفرق بين أخته وزوجته، واعترت الرجل رعدة، ثم فكر قليلاً، وسأل رشدي بخبث أظنكم تسهرون معهم أحياناً يا رشدي...! فقال الأخير: قليلاً جداً، إلا حين يأتي الضيف، أي مثلك يا سويلم، نسهر معه مضطرين إلى ذلك اضطراراً، لأنك تعرف أن العربي ابن بلادنا لا يعرف هذه المنطقة، وخشية أن يضحكوا عليه، أو يبتزوا نقوده نذهب معه...!

قال سويلم: وابن بلادكم يأتي رأساً ليسهر مع العريانات إلى الفجر، يأتي مخصوصاً يا رشدي! قال رشدي: إنهم غالباً يأتون للسّهر، ما أنت عارف هناك (ناشفة) يا سويلم، والواحد عندما يأتي إلى هذه البلاد يتمتع قليلاً، هناك في بلادنا محافظون جداً يا سويلم، لا يتركون للبنت حرية الخروج مع أصدقائها، ولا توجد أماكن ينفس الشباب عن كبتهم، أنت فاهم بلادنا لا تزال متأخرة، وهذه بلاد راقية، فهز سويلم رأسه وهو يقول: . . . نعم فاهم!، يعني في بلادنا لا يسهر الشباب مع الشابات إلى صلاة الفجر، وعريانات كمان. . . الحقيقة بلادنا متأخرة يا ولدي. . . ثم ابتسم في سخرية، وقال لكن بهمتكم يمكن نترقى، ونسهر للفجر!!

ومضى سويلم مع صاحبه من رصيف إلى رصيف، ومن شارع إلى آخر، وقد ملأت الغيوم كبد السماء، وانتشرت الأنوار الملونة على واجهات العمارات. . . ورشدي ينتقل بسويلم من منظر إلى منظر، ويشير إليه إلى كل ما يستحق الالتفات إلى أن دخلوا فجأة. . . . !

كان الشارع ضيقاً شبه مغلق، تمر إلى داخله من بوابة كبيرة، وعلى البوابة سيارة قال رشدي: إنها سيارة للشرطة، كانت واجهة الشارع عن اليمين والشمال من الزجاج، بل كانت متاجر متلاصقة شبه أكشاك من هذا الزجاج، وكانت بضاعة هذه المتاجر الوحيدة الإناث. . . !!

مهما تقلبت على سويلم المناظر، وداهمته الفواجع، وتقلبت عليه الغرائب، فلن ينسى تلك الأنثى التي وقع عليها نظره أول مرة في ذلك الشارع البائس. كانت تجلس من وراء الزجاج على كرسي صغير عال

ومتحـرك. كانت عارية تماماً، إلا من ريش يسـتر العورة والثديين، وكـانت تضع على رأسها ريشاً عجيباً، كانت طاووساً منتوف الذيل، وحـين أقبل رشدي وقد بدأ يغازلها بحركات من عينيه ويده، فتقلبت المسكينـة أمـام سويلم ذات اليمـين، وذات الشـمال، ثم دارت دورة لتعرض بقية جسمها، ثم عادت، وفي عينيها استجداء ما رأى سويلم أذل منه، ولا أحق بالعطف!

وأغمض سويلم عينيه لكي لا يرى اليأس في عينيها عندما تجاوزها إلى غيرهـا، وكانت الثانية أشد بريقاً، وأعظم جمالاً... والثالثة... ودار رأس سويلم بشـدة كان (مسـطولاً) لا يستطيع التفكير، ومضى خطوات وهـو لا يستطيع الالتفـات إلى هذا اللحم المعروض، وكان النـاس يختلفـون عن سويلم: كانوا يقلبون المعروضات أولاً، وأحياناً يدخلون في الـداخل ليفتشوا عن صحتها من قريب، وكانوا يروحون ويغدون، وكأنما يساومون تماماً كما يفعل المشتري مع التاجر في بلادنا حين يريد أن يشتري قليلاً من الفجل، أو البصل، أو (كوارع) ذبيحة في مسلخ!

(٥٨)

لم يستـطع سويلم الصـبر، فأمسك برشدي الذي كان يتفحص المعروضات كبقية الناس، وقد خيل لسويلم أن صاحبه يفتش فعلاً عما يروقه من هذه المعروضات، وسحبه قبل أن يتجاوز طويلاً... وعاد وكأنه في حلم لا يمشي على رجليه، ولا يرى بعينيه، وإنما يطير بجناحين في عالم من الخـيال.... شارع يا قوم... تعـرض فيه النسـاء أجسادهن، وأشهد أنها بضاعة بائرة، إذ أنني لم أر من يقبل على شرائها

في تلك اللحظة التي دخلتها، شارع تعرض فيه نساء، لو لبسن الملابس، وعشن مع أهلهن، ورأيتهن ما تعدى اختياري واحدة منهن . . . يا سبحان الله، يا ساتر تستر، أعراضنا يا رب! . كان سويلم يحدث نفسه، ويكرر هذه الأدعية، وقد نسي رشدي تماماً، ولكنه انتبه عند البوابة إلى رجل البوليس يروح ويغدو، وسيارة الشرطة واقفة قبالته، وبدأ سويلم يتساءل، وكأنما أصيب بصدمة جديدة أذهبت تأثير الصدمة الأولى، ماذا يفعل البوليس هنا؟ لماذا ينتظر على البوابة؟ أم إنهم كغيرهم من الناس يريدون أن يشتروا من هذه البضاعة المعروضة؟ أم إنهم يحرسون الزبائن لئلا يؤدي الزحام إلى إخلال بالأمن؟ أم إن هؤلاء الجنود يجمعون الضريبة من السوق أولاً بأول!؟

كان فكر سويلم يدور في طاحونة فارغة لماذا ؟ وكيف ؟، ولا يستطيع لكل ما يدور في رأسه من الأسئلة جواباً، وقد غطى على ذهنه الاستغراب أن يجري ما يجري بالداخل بحراسة رجال الأمن . . يا للعجب!

كان رشدي قد احترم سكوت سويلم، وآثر أن لا يحرج هذا البدوي الضيف، وكذلك فإنه لم يضغط عليه من قبل لاختيار واحدة من المعروضات في السوق، وقد هزه تغير وجه سويلم وحوقلته، وأنه أصبح في وضع لا يستطيع معه حتى مجرد المزاح، لذلك فقد مضى معه ساكناً، بعد أن كان لا يكف عن الكلام،دخلته هيبة، وربما شيء من تأنيب الضمير، وتذكر الفضيلة في بلاده، وكيف أنها تثير الهزء والسخرية في هذه البلاد، وتلفت سويلم في وجهه وقد عجب من سكوته، وهنا تنبه رشدي، وقال: هل رأيت بنفسك يا سويلم ما حدثتك عنه، قال:

نعم، ويا ليتني لم أر هذا المكان، فإن **الإنسان يظل يكذب كل** متحدث عن وجـــوده، حتى يراه بعينيه، يا سلام **يا ولـدي**، مسكينـات **تلك** الإناث، لا بد أنهن (عبدات) تباع في السوق، **إنهن رقيق يا رشدي**. أليس كذلـك!؟ أتعني أن بعض الناس يملكهن ويبيعهن للمشترين مثلاً! إنهن يقفن هكذا بحريتهن، يا ساتر، بحريتها تعرض نفسها على الناس، لمن يرضى ومن لا يرضى، كيف تكون بحريتها وتتقلب في أحضان الرجال؟ قال رشدي (إيه . . .) يا سويلم. إن الأحضان كلما كثرت عندها كلما كانت ناجحة، واعتبرت بنت سوق . . ! قال سويلم: هذا يا بني آخر زمن بالتأكيد القيامة على الأبواب، وكيف لا تقوم القيامة عندما يكون كل سكان الأرض زناة (أو بناديق)!؟

وقال رشدي: والله ما أدري عن القيامة شيئاً، ولكن هذه عادات القوم، كل (واحد داري)، ولا يرى عيباً أن تتكسب شقيقته أو بنته، تعـرض جســدها بعض النهار على . . . وكمل سويلم على «المشلهبين أمثالي»، وقال رشدي: حاشاك يا عم سويلم، قال سويلم: وحاشاي كيف، وقد قلت لي من قبل إن جميع من يأتي من بلادنا يزور هذا المكان أولاً وقبل كل شيء؟ ولأول مرة يحس رشدي أنه أمام شخص مختلف، وطـافت برأسه الظنون، من يدري، فقد لا يكون هذا الشخص هو سويلم البدوي الذي جاء مع السائح الألماني الضيف؟ من يدري، ربما جاء مبعوثاً من وزارة التربية والتعليم الأردنية يتفقد الطلاب، وبدأ الوهم يكـبر في رأسـه، قال: لا تتصور أن الطلاب يذهبون إلى هذا المكان مطلقاً، ولكن الإنسان ينظر فقط إلى الدرك الذي انحدرت إليه الحضارة الغربية!

ولم يكن سويلم يعرف عن الحضارة الغربية، أو الشرقية شيئاً، لذلك فإنه لم يعلق على الكلام إطلاقاً، وإن يكن قد لاحظ التغير في لهجة رشدي، والاحترام الذي بدأ يظهر على حركاته، واستجابته لكلام وأسئلة سويلم... وقلب سويلم كفيه أسفاً: يا سبحان الله، هؤلاء الإناث الجميلات لم يجدن بين هؤلاء الناس الذين لا حصر لهم من يسترهن ويتزوجهن بالحلال، قال رشدي من يتزوجهن يا عم سويلم، إن الرجال هنا لا يتزوجون إلا نادراً، ومن يصبر على واجبات الزواج، وتربية الأولاد إذا كان يستطيع أن يتصل بالنساء وقت ما يريد!!؟

وهز سويلم رأسه موافقاً، ولكنه أردف: ولكنهم كيف لا يخافون الله من الحرام؟ قال رشدي: إن الخوف من الله هنا يا عم سويلم موضوع آخر خالص، إن الحضارة لا تعترف بالحلال والحرام... وتنهد سويلم، وقد تخيل الحضارة شيئاً رهيباً.. قائلاً: الحضارة، الحضارة يا حضّرها البين!!

ومضى سويلم مع رفيقه الطالب رشدي، وقد أصبح ينظر إلى الناس من حوله نظرات مختلفة تماماً، ليس فيها شيء من الاحترام، ومن يدري أن هذه السيدة الممشوقة القوام تذهب إلى هُناك لتعرض نفسها بعد أن تخلع ثيابها.. مضى سويلم مع رفيقه، وقد تملى فكره حتى الثمالة، وتشوهت في نظره الأشياء وأسرع الخطى، وأسرع معه رشدي ليلحقوا بموعد العشاء الذي أصر أحمد رمضان أن يرجع سويلم من أجله، وحين دخلوا بيت الطلبة مرة ثانية، كان أحمد ينتظرهما على الباب.. لقد تأخرتما، وتوجه باللوم إلى رشدي، وتمتم سويلم فيهم خطيباً، يا شباب أنا أنصحكم.. الغريب يكون أديب، كان الله في

عونكم من هذه البلاوي، وأنا أنصحكم أن ترجعوا إلى بلادكم قبل أن يحشركم الله مع هؤلاء الناس، وجعل يحوقل ويودع الطلاب في أسف ظاهر، وكأنما يودعهم إلى القبر، وقد عز عليه أن يبقى أبناء جلدته تحت خطر الفساد. . . !!

كانت مريم تقف على باب الفندق الضخم الذي اتفقت مع أحمد رمضان على اللقاء فيه، وانطلقت تستقبل سويلم في فرح واضح!

(٥٩)

كانت مريم تبدو جميلة أكثر من أي يوم مضى بملابسها الطويلة المحتشمة، ووجهها العاري من المساحيق، وتبادلت مع أحمد بضع كلمات بالألمانية، مد بعدها يده إلى سويلم مودعاً، وراجياً أن يراه فيما بعد، ولقد فوجىء سويلم، بل انطلق يلومه: كيف، ولماذا لا تتعشى معنا! وقد ساءه جداً أن تفلته «المضيفة» هكذا دون أن تمسك به للعشاء، ولكن أحمد كان لبقاً في التخلص بحجة ضغط الدروس، وأنه لا بد له من أن يغتنم كل دقيقة، ولا يستطيع أن يضيع وقتاً للاستجابة لهذه الدعوة، فضلاً عن أنه لم يدع من قبل، وحين رأت مريم رغبة سويلم، وأنه يعزم على أحمد وكأنه (المحلي) أخذت هي الأخرى تلح عليه بأن يبقى، ولكنه أصر على الرفض، وودع سويلم وداعاً حاراً على أمل أن يقابله فيما بعد. . . ومضى أحمد وسويلم يتابعه بنظره، وقد أحس نحوه بالحب والاحترام، هذا الطالب المستقيم الذي لم تؤثر فيه هذه المدنية بإفراطها في تغذية الشهوة من أن تجرفه عن هذه الاستقامة، أو تؤخره في تحصيل العلم الخالص!

لقد شعر سويلم بشيء من الاستياء، وكان ما يزال مشوش الذهن، مضعضع القوى العقلية مما رأى في ذلك السوق اللعين، ولكن مريم قد نقلت إليه العدوى بفرحها وسعادتها، فبدأت الغلالة السوداء تنجاب قليلاً قليلاً عن صدره مع هذا الهناء البادي على محيا هذه الشابة الجميلة النظيفة، الفارعة القوام!

حين وقف سويلم بالبوابة الواسعة، واستقبله بهو واسع، الناس فيه لِسَعتِه كالنمّل، وعلى يمين الداخل الأمكنة المخصصة لاستقبال الزبون المقيم بالفندق، وتسجيل اسمه، وكان الخدم يلبسون على رؤوسهم طنابير طويلة حمراء، ويهرولون هنا وهناك، وكان في الجانب الأقصى من ساحة الفندق مسرح واسع تصدح الموسيقى منه، وبين المسرح وهيئة الاستقبال يتحلق الزبائن على الموائد لتناول طعام العشاء، ومضى سويلم وراء مريم، وفي ركن قصي، وعلى مائدة فارغة جلس، وجلست هي قبالته، وقد فوجىء سويلم ـ وما أكثر ما لقي من مفاجآت ـ أنه وحده معها، لقد ظن أنه سيشترك مع كثيرين على المائدة، وقد طافت بفكره الظنون، وبدأ الشيطان المعركة معه، ولكنه تفرس في وجه الأنثى لقد كان بريئاً، وسكتت، واحمر وجهها، لا تدري كيف تبدأ الكلام مع الضيف، ولكنها قدمت له قائمة الطعام: ماذا تأكل؟ . . . وما كان سويلم ليقرأ ما في تلك الورقة، فقال لها: إنني آكل الموجود، وأصرت أن يختار هو، ولكنه أصر بدوره أن تختار هي، فقالت: أنا مسلمة، ولا أقرب لحم الخنزير، ولا مرقته، وكأنما ذكرت سويلم بشيء كريه، وقد خيل له أن جميع ما أكله في السابق من لحم الخنزير، أو مخلوطاً به، وأحس بدافع للقيء، ولكنه تماسك، وقال: هذا ما نريد. بارك الله

فيك، فنحن نأكل ما تأكلين يا ست مريم! وابتسمت ابتسامة عريضة، وأوصت على عشاء حرصت أن يتلاءم مع ذوق أهل الشرق، ثم التفتت إلى سويلم الذي كان ذاهلاً يتطلع إلى الناس المتحلقين حول الموائد، من يدري؟ ربما يكون بعض هؤلاء النسوة يذهبن أحياناً إلى ذلك السوق! ومن يدري كذلك أن يكون تجار هذا السوق من هؤلاء أيضاً... ! وقالت مريم ـ هكذا بدون مقدمات ـ ماذا تصنعون بالنساء عندكم؟ وفوجىء سويلم، ماذا نصنع بالنساء؟ النساء... النساء. وهزت مريم رأسها علامة على عدم الفهم، قال سويلم النساء عندنا يلدن الأولاد... وسكت، قالت مريم: يلدن الأولاد فقط؟ فقال سويلم والبنات أيضاً، قالت مريم ألا تشاركوهن في العيش؟ فضحك سويلم على هذه الأسئلة، ولكن الأنثى كانت جادة، فقطب جبينه كأن الأمر بالغ الأهمية، وقل لا تؤاخذيني الراجل عندنا خادم لامرأته، يسعى في الليل والنهار ليوفر لها ولأولادها الطعام، وفتحت مريم عينها كأنما وقعت لأول مرة على ما تريد، وقالت: أمتزوج أنت؟ قال (ربنا ما يقطع عندي خمسة...) قالت خمسة نساء، فضحك سويلم مرة أخرى، خمسة نساء، يارب نقدر على أم سليمان، أقول عندي خمسة أولاد، قالت: إذن أنت متزوج بواحدة فقط؟ قال سويلم طبعاً واحدة، قالت: أتحبها؟ وهنا أحس سويلم بالحرج، وسكت كيف يتحدث عن زوجته لهذه المرأة الغريبة؟ ولكن لماذا تسأله.. وتراءت له أم سليمان تهز رأسها، وتحذره وتنذره من الشقر ذوات الرؤوس (مثل رأس الفرس)، وتخيل أم سليمان عنده، فماذا تقول له وهو يجلس مع الأنثى وحده على هذه الصورة؟ وخشيت مريم أن تكون قد أحرجت الرجل، فتجاوزت عن

هذا السؤال بعد أن رأت في عيني سويلم جواب التأكيد، وبدأت تحدث سويلم عن الإسلام بحماس، وكأنها مبشرة مؤمنة، ولم يكن في استطاعة سويلم أكثر من الموافقة، والحمد لله، والشكر لله، فقد كانت مريم تخوض في أمور معقدة لم يكن لسويلم علم بها، وتطرقت إلى الحديث عن أوروبا والحياة فيها، وتحدثت عن الانحلال، وانفراط عقد الأسرة، وجنون الشهوة، وسيطرة المادة، وتطور العلم الذي امتطته هذه الشهوات الجنونية، وكان سويلم يومىء برأسه شأن المفكر الذي لا ينطق إلا بعد روية وإمعان، وجاء الطعام، وشرعوا في الأكل، وكانت مريم تسكت عن الأكل أحياناً، وتنطلق في الحديث عن المقارنة بين الشرق والغرب، ثم قالت أخيراً: انني أحب أن أزور بلادكم، فابتسم سويلم وهو يقول: أهلا وسهلاً... وهنا طاف لأول مرة الخاطر الذي يطوف برأس كل رجل حين يكون مع فتاة تبهره بحديثها، وجمالها، ومسلكها، وضحك من نفسه وهو يتساءل: هل تتزوجه لو خطبها؟... ثم تذكر... أين أبوها!؟ وكيف تجلس معه وحدها؟ وابتسم مرة أخرى وهو يقول لنفسه؛ تتزوجك يا سويلم وجميع ملابسك عيرة...! وهنا عرضت له أم سليمان تهز رأسها وتحذره، فأكب على الطعام اللذيذ يلتهمه وهو يستحي أن ينظر في عيني مريم... وهنا علا الضحك والصفير والتهليل في المسرح، فتلفت سويلم لماذا يضحكون...

فأنصتت مريم قليلاً، ثم نطقت الجواب الذي هز سويلم من أفكاره!

(٦٠)

لقد علا الصفير والضحك في المسرح، وتلفت سويلم... كانت أنظار الحاضرين مصوبة على امرأة متوسطة الطول، سمينة البدن تدور حول نفسها كالعاصفة، وتنطق كلاماً في أناة! وحين تقف عن هذا الكلام يضج القوم بالضحك!

وقال سويلم لمريم: لماذا يضحكون؟ وسكتت، وأشاحت عنه بوجهها، ولكن الصفير والضحك عاد مرة أخرى، ومرة ثانية سأل مريم: لماذا يضحكون؟ فأجابت الفتاة. ويبدو أنها كانت محرجة في جوابها، قالت: إنها ـ أي المرأة ـ تقول كلاماً مخجلاً عن العرب، والناس يضحكون من كلامها!

قال سويلم: كلاما مخجلاً!؟، قالت مريم: نعم!، أكبر الظن ان المرأة يهودية، وهي تغتنم قصص بعض أبطال الفضائح من شيوخ العرب، فتزيد فيها لتجعل من العرب أضحوكة الناس هنا! وتلفت سويلم، كأنما يريد أن يطلب النجدة، وهم أن يقفز ليمسك بعنق هذه المرأة الساقطة، ولكنه كبح جماح نفسه، فهي امرأة، ولا مراجل عليها، وسأل سويلم صاحبته: ولكن أي فضائح، وأي شيوخ؟ وهل يصل شيوخ العرب إلى هنا؟ قالت: بالتأكيد، منذ أشهر كانت قصة أحدهم تملأ صحف أوروبا كلها، وسبب ذلك أن الواحد حين يأتي من هناك يرى الفتيات الجميلات، فيحب أن يتزوج، ولكن الفتاة التي يقع اختياره عليها غالباً ما تتزوج ما معه من نقود، حتى إذا ضمنت كفايتها من هذه النقود، فرت من يديه تصنع فضيحة تكون غذاء للدعاية اليهودية في هذه البلاد!

وأردفت مريم: إن المضحك في كلام هذه الممثلة أنها تخلط مقاطع من قصة مشهورة بهذه الفضيحة، فهي الآن تتحدث عن قصة مثلت في بلدان أوروبا كلها في هذه القصة مقطع تظهر فيه بطلة القصة على شاطىء البحر، تناجي أحلامها، وتتحدث عن آمالها التي تتلخص في أن تأتي سفينة جديدة، لتلتقي بأكبر عدد من بحارتها، وفتح سويلم (حنكه)، وآذانه، وعينيه على هذه الرواية وهو يردد: نعم! نعم! وبعدين قالت مريم: فهي هنا تقول ما معناه بالألمانية: (غداً تأتي سفينة تحقق آمالي!).

والسفينة معناها بالألمانية (شيف)، وهي هنا فقط تضع مكان كلمة (شيف) كلمة «شيخ»، فتقول: (غدا يأتي شيخ يحقق آمالي)، ووقفت مريم قليلاً، ثم قالت: وهي تقول الآن ـ أي المرأة ـ (شيخ بين يدي، وشيخ جاي على الطريق!) يا للفضيحة! في وسط هذا الجمع الفالت تجعلنا هذه المرأة مسخرة! وفجأة تحول المسرح إلى رعد من التصفيق والهتاف، ما الذي حدث؟ ودقق سويلم النظر جيداً، كانت ساحة المسرح الذي تتحدث منه المرأة، وتدور حول نفسها مكشوفة للجميع، وما رآه سويلم كان حقيقة لا يمكن أن يكون حلماً من الأحلام... لقد رأى رجلاً بعباءة وملابس بدوية في غاية المهابة، وكان يتقدم إلى المرأة في ثبات، وفجأة! احتضنها، وجعلا يتعانقان هكذا أمام الناس! وتلفت سويلم مذعوراً يا للمصيبة! وكيف يأتي هذا الرجل أمام الناس؟ ألا يستحي؟ لا يمكن أن يكون بدوياً وعربياً من بلادي، وتلفت سويلم في وجه مريم وهو ينتفض غضباً، ويقول: لا يمكن أن يكون (بدوياً أصيلاً) أبداً، هذا لا يمكن أن يكون منا... ولقد هم سويلم فعلاً،

وكان على وشك أن يخطو إلى ذلك الرجل لولا أن الرعب قد استولى على مريم، فأمسكت به إلى أين.؟!! قال: أريد أن أتعرف على هذا البدوي الذي يقوم بهذا العمل الشنيع أمام الناس في الغربة، قالت مريم: أين البدوي الذي تريد أن تذهب إليه؟ إنّ هذا ليس بدوياً ولا عربياً، إنه ممثل فقط، إنه من هذه البلاد، وهو يلبس الملابس البدوية ليتمم وصلة السخرية التي تقوم بها هذه المرأة ضد العرب..! وتهالك سويلم على الكرسي وهو يئن في زفرة طويلة، ويصوب نظره على باقي الطعام الذي عافته نفسه بعد ذلك المنظر المخجل، وسأل سويلم مريم: ولكن لماذا تقوم هذه المرأة بهذا العمل ضد العرب؟ قالت مريم: أنت تعرف أن الغرض تشويه سمعة العرب، ونشر الدعاية السيئة ضدهم!

ولم يكن سويلم يدرك قيمة الدعاية، وأثر تشويه سمعة العرب بين الشعوب، وقال: لكن من يصدق هذه المرأة؟ وهم يعرفون أنها يهودية ويعرفون أن هذا الرجل غير عربي؟ قالت مريم: ولكن مشايخ العرب يفعلون كما قلت لك بعض الأخطاء، والدعاية اليهودية تكبرها. قال سويلم: إذن فالحق على المشايخ الذين يخطئون، والله لو عرفتهم، إنني لألزمهم بالحق! قالت مريم: وما هو هذا الحق؟ قال: إنها مقاضاة على حسب عاداتنا توقف هؤلاء «الفالتين» عن مثل هذه الأعمال.. قالت: الواقع أن «الحق» على هؤلاء الأشخاص، وأنتم المسؤولون عن تأديبهم!

وحرك سويلم مجرد ذكر اليهود دمه، واستعرض في مخيلته وطنه، ومسقط رأسه، وتذكر فراره مع أهله، وأحس بالخجل من نفسه، وأنه كان يجب أن يموت في أرضه قبل أن يرى هذه اليهودية (تتمسخر) على مشايخ العرب... يا خسارة!

ورفض سويلم أن يكمل الطعام، ورفض أن ينتظر دور الفواكه، لقد رفض أن يذوق شيئاً، ولقد هم أن يمضي دون أن يدري إلى اين، قبل ان تدفع مريم الحساب، ولم يلتقط أنفاسه ويصفو فكره مرة أخرى إلا خارج البوابة، وحين لحقت به مريم تلفت نحو الفندق وفي نفسه رغبة ضارعة أن يراه كومة واحدة!

كانت مريم قد لقيت ما تكره في تلك الدعوة، ولقد تمنت أنها لم تدع هذا الرجل أصلاً، فقالت معتذرة: صدقني أني لم أكن أعرف أنهم سيمثلون هذا الدور، ولم يكن عندي أدنى قصد أن أسيء إلى شعورك، ثم لا تنس أنني مسلمة فما يسوؤك يسوؤني، قال سويلم: بارك الله فيك، لا تؤاخذيني أنا بيني وبين اليهود (ثار)، هم أخذوا أرضي، وقتلوا أناساً كثيرين منا، (وكمان لاحقينا هنا يتمسخروا) علينا، يا ست مريم، والله لا فائدة، ولا شرف لنا، ولا ناموس، إذا لم نأخذ حقنا من هؤلاء الناس، وغلى الدم في عروق سويلم، وأحس كأن الدموع تؤشك أن تفر من عينيه، ولكنه تنحنح ليغير الموضوع.. ويقول: (بسيطة)!

وأشارت مريم إلى سيارة، وركبت في ركن، وركب سويلم في ركن، وهي تحاول أن تسري عن سويلم، الذي أطلق صوته ببعض الأشعار البدوية، فسرت مريم جداً، وحاولت أن تكتبها، وبعد فترة وقفت السيارة عند مدخل بيت عبدالله، ليقضي سويلم معه تلك الليلة التي ستذهب ذكراها معه إلى القبر!

(٦١)

لقد خرج عبدالله من البيت متهللاً لاستقبال سويلم، وكأنه لم يره من زمن بعيد، ولقد أصر على مريم أن تسهر معهم، ولكنها رفضت في أدب، وطلبت أن ترافق سويلم غداً لتكمل معه بقية الحديث!

ولقد ودعها سويلم، وكله احترام وتقدير، فعلى الرغم من أن سويلم لا يثق كثيراً بالنساء، فإنه أحس بشيء يرغمه إرغاماً على احترام هذه الفتاة اللينة الناعمة المحتشمة، والقوية الأخلاق، ووافق فعلاً على لقائها غداً، ومضت وهو يتابعها إلى أن غابت السيارة في المنحنى القريب، ووضع يده على كتف صديقه ليقول له عبدالله: الظاهر أنك وجدت أصدقاء يشغلونك عنا يا سويلم! وسكت سويلم، ولم يجب، وتنحنح بعد ذلك وهو يقول: لقد تفرجنا على البلد يا عبدالله، بلدكم عظيمة جداً، وفيها سوق كبير، ولكن عبدالله لم يفهم ما يعنيه سويلم بهذا السوق، فابتسم ابتسامة عريضة، إذن لقد قمت بجولة في البلد مع مريم. بالطبع مريم بنت طيبة يا سويلم، وغمز بعينه، والعلاقات بينكم تزداد وثوقاً، وفهم سويلم غمزته، وقال: والله إنها أشرف بنت رأيتها في هذه البلاد، والله لو شاورتني في أن تتزوج ما وصفت لك أفضل منها، فسكت عبدالله، وقد اكتسى وجهه بملامح الجد حقاً إنها بنت مؤدبة، ولكن تفضل يا سويلم لهذه السهرة لترى ما يسرك.. وتطلع سويلم إلى الصالون الداخلي، وأشار عبدالله مكملاً كلامه (لترى الأوانس الجميلات)، وتقدم!

لقد كانت مائدة طويلة عليها الزجاجات إياها، ومن حولها أربع نساء ورجلان، ولقد تنسم سويلم رائحة لذيذة لم يشم في حياته أجمل

منهـا، وتفحص النساء: كانت اثنتان منهن أخوات صديقه عبدالله، وكـان أحـد الرجلين هو رفيق عبدالله الذي رأى سويلم قرب «خربة قمران»، وقد هب لاستقبال سويلم وهو يحضنه في شوق لا وقار فيه، ووقف الرجل الآخر، الذي قدمه عبدالله على أنه المدير العام لشركتهم، وكانت تلك المرأة العجوز التي تخدم عبدالله وقت الفطور تروح وتغدو تقـدم ما يطلبـه الضيوف، وسلم سويلم على النسـاء وهن جلوس، وضحك في سره: ماذا لو رآه قومه وهو يسلم على النساء وهن جلوس، ولكن سويلم يراعي عادات الإفـرنـج، فهو لهذا لا يرى غضاضة في السلام على الأنثى وهي جالسة، ولكن هذه «التقدمية» عند سويلم لم تسعفه حين أجلسه عبدالله بين أخته وامرأة أخرى، فقد أحس بتوتر في أعصابه، وأحس بالعرق يتصبب من جسمه، ولو أنه كان يداري هذه الورطة التيَ وقع فيها بالابتسام المصطنع الأبله أحياناً...!

ولقد هم رفيق عبدالله أن يكرم سويلم، بأن يملأ كأسه، ولكن سويلم رفض ذلـك، وبـدأ التقطيب في وجهه مخيفاً، فتطوع عبدالله لإنقاذه من هذا الحرج بأن أمر له بكأس من الليمون، وحين رفع سويلم كأسه يمتص شراب الليمون رفع الجميع كؤوسهم، وأخذوا يرطنون، ويضرب كل واحد منهم كأسه بكأس الآخر، وقال عبدالله مترجماً: إن القـوم يشربون في صحتك يا سويلم! وفتح عينيه، يشربون الخمر في صحته! وتمتم في سره: الله لا يصح أبدانهم! وسكت لا يدري بماذا يجيب!؟ ولكن عبـدالله أجـابهم بما يتنـاسب والمقام، ولكن ما جعل سويلم يتململ في كرسيه، ويحس بأن الصالون يوشك أن يضيق به، هو ما فعلته جارته شقيقة عبدالله حين تقدمت بكأسها ليزحم كأس سويلم

وهي تقهقه، وتصوب عينيها في عينيه!

كانت تلك الأنثى متألقة تشع من صدرها عقود الجواهر، ومن حولها هالة من العطر كفيلة أن تسكر أشد الناس صلابة أمام المرأة، ولكن سويلم كان شيئاً آخر، كان في شغل عن كل هذا، كان كالنمر في القفص، كل همه أن يحطم القضبان، وأن يرى نفسه طليقاً في الغابات، وعلى رؤوس الجبال، فلم يكن يشم العطر الذي يفوح من أخت صاحبه، وكان لا ينظر إلى ذلك العقد. وإنما كان ذهنه يدور في استطلاع ما وراء هذا كله، ماسبب هذه الجلسة؟ وما سبب هذا العدد المتماثل: اربع نساء، وأربعة رجال بما فيهم سويلم؟ لماذا جُمعوا على هذه الصورة؟ وكيف يسمح عبدالله لأخواته أن يجلسن مع الرجال هذا المجلس، ويسمح لهن أن يكرعن من هذه الزجاجات اللعينة؟ لقد كان يجل عبدالله أن يكون كالآخرين، ولكن للأسف هذا صديقه ومضيفه لا يختلف عن غيره، ومن يدري...!!

وجاء على ذهنه منظر ذلك السوق الذي تعرض فيه النساء أجسادهن... فأحس بغصة، فتناول الكأس، وجرع ما بقي فيه من شراب الليمون...!!

(٦٢)

كان سويلم في «حيص بيص»، وكان سويلم يستطيع أن يدبر أموره في المأكل والمظهر والحديث، كان يستطيع أن يكيف نفسه بمن حوله من الناس، إلا في أمر واحد: هو علاقته بالنساء!

فحين تواجهه المرأة، وحين يمس جسمها جسمه، يحس بتيار

كهربائي يقلب كيانه من أساسه، وعلى الأخص حين تتبرج هذه المرأة لجلب أنظار الرجال، وكان سويلم في تلك الحفلة يحس أنه يغطس في بحر لا يدري على أي شط سيرميه الموج، لقد كان الرجل ـ باختصار ـ تحت ضغط شديد من الانفعالات المتضاربة، ولا يستطيع أن يسيطر على نفسه كلما اصطدمت ساقه بساق المرأة عن يمينه أو عن شماله، وعلى الرغم من أنه أخذ درساً مفيداً في ذلك المسرح في أول مرة هبط فيها ديار أوروبا، فإنه يبدو أنه لم يستفد من ذلك الدرس، وأن طبيعته الصحراوية الجامدة لا تزال هي العامل المسيطر على مشاعره وتصرفاته، ولقد حاول عبدالله أن يكشف عنه هذه الغمة حين كان يقدم له (النقانق)، ويقول له مازحا: الجماعة يشربون الحرام، وأنت تأكل الحلال..! وكان عبدالله حراً في أن يمزح مع سويلم بالعربية إذ لم يكن أحد آخر غيرهما يتحدث بلسانها، وكان ينهره وينصحه: (لا تبد هكذا مقطب الجبين، إنك في مجلس أنس، اضحك وانس يا سويلم، ألا ترى الأوانس الحلوة من حولك؟ لا يا سويلم! لا تجعل الناس ينتقدوننا، فإن من يتطلع إلى وجهك الآن يظن أنك مقبل على المشنقة)!

ونفذ سويلم آليا نصيحة صديقه هكذا دون روية أو تفكير، فأطلقها ضحكة صاخبة، وهو يقول لعبدالله: هل انفرد وجهي الآن...! ودون أن يفهم الصحب ما دار بين سويلم وعبدالله انطلقوا في ضحكة هستيرية، وكانت أخت عبدالله تجلس إلى يسار سويلم، والتي حاول أن يتذكر اسمها إلى أن أخذ لسانه على أن يدعوها (سونيا)، وأحيانا (شونايا)، كانت هذه قد استغرقت في ضحكة طويلة وهي تردد بين الحين والحين: (ساويلم)! وتدفع سويلم بيديها في صدره، والحق أن

الرعب قد استولى على سويلم، وارتسمت مكان الضحكة الأولى على وجهه ملامح الرعب، فقد أيقن أن القوم قد فقدوا أو أوشكوا أن يفقدوا عقولهم من تلك الزجاجات المصفوفة على المائدة، وأيقن سويلم أن تصرف سونيا معه هو البداية فقط. . . ! وكان سويلم في هذا الارتباك وعبدالله يحثه، ويغمزه أن يدخله ميدان المسرح التي يحاول القوم أن ينطلقوا فيه. . .! ويحاول أن يغريه بالمدير العام ورفيقه الآخر، ويشير إلى المدير: هل ترى يا سويلم هذا الرجل الأشيب؟. . هل ترى معه هذه القطعة النادرة من الجمال؟ ويشير إلى الأنثى إلى جانب الرجل، وهم يتلاحون هم وعبدالله لترجمة ما يقوله سويلم، ثم يتابع: إن الشطارة يا سويلم أن لا تجعل هذا الشيخ يستأثر بها، لا بد من مهاجمته في عقر داره، وضربات قلب سويلم تسرع، ماذا لو عرف المدير العام ما يقوله صديقه عبدالله عنه؟ فيقول سويلم لعبدالله: اسكت يا رجل عن هذا الكلام، عيب يا رجل! فيرد عليه عبدالله: لا يا سويلم، أقول لك: امزح واضحك، إنك ضيف، والضيف أسير (المحلي) كما تقولون أنتم. . ! وينادي على المرأة التي تقدم الزجاجات. . . هاتي طعام!

وقدمت المرأة شرائح من اللحم، وقامت سونيا وقد غمزت آلة على منضدة قريبة، فخرجت منها دقات موسيقية رتيبة، وقد راع سويلم أن المدير العام وتلك التي يقول عنها عبدالله إنها قطعة من الجمال وقفا، وتقدما ليتخاطرا ويهزا أجسامهما على دقات الموسيقى!

كانت سونيا ما زالت واقفة إلى جانب تلك الآلة التي تدق الموسيقى، وهي واقفة تحرك أعضاءها مع دقات الآلة تماماً كما يفعل الغزال، وكان ظهرها شبه عار. . . ثم أسرعت لتجلس إلى جانب

سويلم، وأعطى الجميع وجوههم إلى الراقص والراقصة، يشجعونهما، ويصفقون مع ضربات الموسيقى، وبين الحين والحين يطلقون أيديهم إلى شرائح اللحم ليلتهموا ما تيسر منها، وكان سويلم قد بدأ يأكل بإلحاح من عبدالله، وأدار جسمه في مواجهة المدير العام وصاحبته . . . !

كان الرجل والأنثى يتحركان في دائرة قريبة وراءها الصالون الواسع، ولقد لفت نظر سويلم أن جدران ذلك الصالون لا تظهر من الجانب الآخر، وكأن هذا الصالون يقود إلى ما لا نهاية، فقد كانت ظلال حمراء تجعل من الفضاء خيالات تحوم بعضها حول بعض، ولقد عجب سويلم كيف أن النور الساطع عندهم لا يذهب إلى هناك، ولكنه حين دقق النظر في مبعث الضوء وجد أنه محاط بحواجز في ركن الصالة، ولا يرسل للضوء إلا إلى مائدتهم، وكان القوم في ذروة السرور والتصفيق لتشجيع الراقصين اللذين تحمسا، فأخذا يدوران حول بعضهما، ويبتعدان قليلاً قليلاً، حتى أوشكا أن يكونا خيالات في تلك الظلال الحمراء . . . وكان عبدالله والبقية يهللون، ويضحكون بلغتهم، وسونيا تمسك بيد سويلم، وتقرب رأسها من رأسه، وتشير بيدها إلى المدير وصاحبته وعبدالله يخلط الرطن بالعربي، ويقول: تعالوا . . أرأيت يا سويلم ماذا يفعل هذا الأشيب هناك؟ ويطلقها قهقهة لا حد لها . . . !

(٦٣)

كان القوم على قلتهم تتجاوب ضحكاتهم في تلك الدار الخلوية، وكانوا وهم يصفقون للمدير وصاحبته يمدون أيديهم إلى شرائح اللحم يلتهمونها بين الحين والحين، ويكرعون ما تيسر من الخمر، وكان عبدالله

أشد الحاضرين صخباً وتنشيطاً لسويلم، حتى إن سويلم أحس أن وقاره يوشك أن ينهار في هذا الجو الصاخب!

وكان المدير العام وصاحبته الجميلة يميلون يميناً وشمالاً، ويختفون في الظلال الحمراء، ثم يعودون إلى النور، وقد اشتد اكتناز الدماء في وجوههم، والآلة تدور في صوت كطنين الذبابة، وتطلق ضربات الآلة ضربة موسيقية واحدة، وسكتت، فكف الرجل والمرأة عن الحركة، ومد المدير ذراعه الطويلة في حنان شديد على كتفي الأنثى، وأقبلا معاً على القوم، وقد قاد عبدالله موجة من التصفيق لهما، وجلسا في تراخ يمدان أيديهما من جديد إلى شرائح اللحم، وإلى كأس الخمر، وعبدالله يرطن مع المدير العام، ويشير إلى رفيقه الآخر، ويشير إلى سويلم، فأرهف سويلم سمعه لعله أن يفهم ما يقوله عنه، لكنه لم يستطع أن يفهم شيئاً، ولقد خشي سويلم أن يجروه ليفعل مثلهما، ولكنه قال في نفسه: إن عبدالله لن يفعلها.. !!

ولكن عبدالله فعلها، وسويلم حتى هذه اللحظة لا يذكر كيف تم ذلك! لقد كان سويلم يمضغ لقمة، وكانت سونيا تقرب رأسها من رأسه، حتى ملأت رائحة العطر صدره، وكان عبدالله يحدثه وهو يضحك، كيف يا سويلم! وسويلم يوشك أن يفقد وقاره شيئاً فشيئاً، ووقفت سونيا مرة أخرى لتحرك تلك الآلة، وبدأ ظهرها عارياً كما كان أول مرة أبيض كالثلج، وبدأت الآلة تدق ضرباتها الموسيقية الرتيبة، وفجأة دوى ضحك الجماعة من جديد، فقاموا كلهم فيما عدا المدير وصاحبته، وقفوا كلهم: عبدالله وتلك المرأة التي تجلس جانب سويلم، وأخت عبدالله الثانية، ورفيقه وقفوا كلهم ليحملوا سويلم حملاً وهم

يضحكون، وعبدالله يقول له: قم ارقص مع سونيا!

ودارت الدنيا بسويلم، لم يطرأ على باله ما قد يقال عنه، ولم يخجل من صفة الراقص التي قد يوصم بها، لم يذكر كل ذلك، ولكن الذي سيطر عليه وشد أعصابه، وجعله يمسك بالكرسي، يقاوم عبدالله وزمرته الذين يريدون أن ينزعوه نزعاً، هو جهله بالرقص، فهو لا يعرف، وهو يقول لعبدالله إنه لا يعرف، عيب عليك تفضحني، وعبدالله لا يكف عن الضحك، ولا يكف عن نزعه من الكرسي وهو يقول له: تعلم، سونيا تعلمك يا أهبل قم افرح وامرح، وتعاون الجميع على سويلم، وجروه من الكرسي!

وفجأة وجد نفسه واقفاً إلى قبالة سونيا، ويده في يدها، ويدها الأخرى وراء ظهره، وأعضاؤها تقترب وتبتعد من أعضائه مع ضربات الموسيقى!

لم يلتفت سويلم إلى عبدالله وصاحبته، ولا إلى رفيقهما الآخر، لم يلتفت سويلم إلى حركات القوم، ولا إلى المدير وأنثاه الجميلة، وهم يضحكون ويصفقون، فقد كان سويلم في كرب، لا يدري كيف يتحرك يميناً وشمالاً لقد كان كجذع شجرة الجميز الراسية في الأرض، وكان السجاد السميك يعينه على الوقوف أو الحركة البطيئة، ولكن سونيا تتحرك خفيفة نشيطة، وتسحب سويلم قليلاً قليلاً إلى تلكْ الظلال الحمراء، وقد بدا المدير وصاحبته متألقين في النور، وهو لا يكاد يرى عبدالله، ولا يسمع لهما حساً، لقد غابا في تلك الظلال وسونيا تزداد اقتراباً، وتزداد حركة، وأوشك وجهها أن يغيب في ظلال وردية، وأخذ

صدرها يقترب قليلاً قليلاً من صدره، وبدأت الحلي في عنقها تشع نوراً أحمر أصفر مخيفاً، كأنه يتفجر من عيون الغيلان!

وفجأة أطبقت عليه سونيا، وشدت يديها من حوله بصورة لم يستطع معها حراكاً، ولا تملصاً، وقليلاً قليلاً أحس بوجهها يقترب، وبأنفاسها تملأ صدره، وبشفتيها تطبق قوية، مسيطرة على شفتيه، وعيون الغيلان تطالعه كاشرة من عنقها. . . !!

لقد مال سويلم برأسه ذات اليمين وذات الشمال، ولكنه لم يستطع الهروب إلا قليلاً، وأحس بشبه غيبوبة لا يذكر معها ما حدث، وفجأة انتهى كل شيء، ووجد سويلم نفسه على الكرسي، والضحكات تملأ سمعه، والعرق يتصبب من جسمه، ودوار شديد يلف برأسه، فأشار إلى عبدالله الذي هاله أن يرى سويلم أصفر الوجه يرتجف، أشار إليه أنه تعب جداً، ويجب ان يرتاح!

لقد قاد عبدالله سويلم إلى الغرفة ثم تركوه، وتمدد الأخير على السرير، وذهب في حالة بين النوم والغيبوبة، رأى فيها كل الأحلام المزعجة الغيلان بعيونها الحمراء والصفراء، ورأى طائرات تتمزق أجنحتها في السماء، ورأي أم سليمان تهز ذراعها، وتنذره وتحذره، حتى إذا أفاق من ذلك الكابوس الرهيب، وجد أن كل شيء قد تغير، ووجد عبدالله وحده يطلق صفيراً موسيقياً كأن ما حدث البارحة كان حلماً من الأحلام، ووجد نفسه يقول في إصرار وتصميم لعبدالله: يا صديقي، أخلف الله عليكم، والبلاد طلبت أهلها. . !

(٦٤)

وتطلع عبدالله في وجه صاحبه، لقد كان شاحباً كأنه خرج من قبر، وكانت عيناه غائرتين في رأسه، وكانت يداه ترتجفان قليلاً، وهو يتحدث، ويغتصب الابتسامة اغتصاباً، ففوجىء عبدالله مفاجأة لم تكن له على بال، وأحس بالعطف والرثاء لهذا الأعرابي الذي حشر في عالم المدينة حشراً، والذي لم تفرض عليه هذه المدنية دستورها وتقاليدها، وها هو يفر اليوم لعالمه الحر دون أن تفعل معه شيئاً!

واستعرض عبدالله في مخيلته ما لقيه سويلم، وتذكر موقفه من النساء من أول يوم حل فيه هذه البلاد إلى البارحة، وأحس عبدالله بإعجاب شديد بهذه القوى المعنوية والنفسية التي تشد هذا الرجل، ولا يستطيع معها أن ينحرف عن عاداته وتقاليده قيد أنملة، فأخذ عبدالله يقلب العوامل التي تشد سويلم وتسانده، فلا تسحره المرأة، ولا يغريه الخمر في هذا الجو العبق البعيد عن جفاف الصحراء وهوائها، ولكن سويلم لم يترك لصديقه فرصة للتفكير وتقليب الأمر على وجوهه، فقد دخل إلى الغرفة التي كان ينام فيها، وأخرج حقيبته كأنما يهم بالخروج، فقال له عبدالله وهو في حالة بين الغضب والدهشة: إلى أين تذهب يا سويلم؟ هذا يجوز نحن لم نعطك «الدستور»، أو التصريح، أو الإذن، على أساس عاداتكم، هكذا تخرج هل أنت في خان، ثم إلى أين تخرج!؟

وأعاد سويلم في نفسه السؤال: إلى أين تخرج؟ وسويلم لا يدري إلى أين، ولا يعرف كيف يصل إلى المكان الذي يسافرون منه، وهو لا يستطيع حتى الوصول إلى الطلاب العرب الذين يعتقد أنهم الوحيدون

المسؤولون عنه في هذه الديار، وأولى الناس به، فوقف ساهماً لا يجيب، وعبدالله يؤنبه ما الذي حل بك؟ أهكذا تفاجئني برغبتك في العودة، ونحن قد اتفقنا أن تزور برلين، وباريس؟ وفعلاً كنا قد حجزنا لك على الطائرات الذاهبة إلى هناك، عجيب أمرك يا سويلم، فتراخت يد سويلم لتضع الحقيبة على الأرض، وبدأ يستيقظ على الحقائق قال: يا صديقي أنا لا أحب أن أذهب إلى برلين، ولا إلى باريس، المناظر هي المناظر، والناس هم الناس، وأنا فقط أغيب عن أولادي لا عائل لهم سواي، لقد رأيت من هذه الدنيا ما فيه الكفاية، ورأيت من كرمكم ورعايتكم ما يجعلني مطوّقاً بجميلكم عمري، لا تؤاخذني يا عبدالله! لقد رأيت أحلاماً مزعجة، ولا بد لي من العودة حالاً، ونظر عبدالله في وجه صديقه، فأحس في نبرته بالصدق والعزم الذي لا يقاوم، فأخذ الحقيبة، ووضعها جنباً، وجاءت تلك المرأة التي تضع الطعام، فأمرها أن تهيء طعام الإفطار، وقال لسويلم: اذهب فنظف ذقنك أولا، ولعلنا نستجيب لرغبتك اليوم، ورن جرس التلفون، كان المتحدث مريم التي فوجئت بأنباء سويلم، وبعد ربع ساعة كانت في البيت، ولم يكن الجو يسمح لها بمجرد الكلام في الموضوع، ولقد سريَ عن سويلم برؤيتها، وتناول قليلاً من الطعام، ثم خرج عبدالله ومريم!

كان عبدالله يستعرض مع هذه الفتاة أسباب إصرار الرجل على العودة الفجائية، ويطبقان هذه الحالة على الأصول العقائدية والفلسفية التي تؤمن بها مريم، وكانت فرصة لتبث فيها مريم رأيها في الحضارة، وتحللها، وفسادها، وكيف أنها وقفت جامدة بمغرياتها عندما اصطدمت بهذه الفطرة السليمة، فطرة سويلم، كانت تتحدث بحماس، وعبدالله

ينـظر إليها، ويشعر وكأنه وقع فجأة على كنز من المعرفة والأخلاق في شخص مريم!

ولقد طال الانتظار بسويلم وهو يستعرض ما لقيه، وما يسأل الله جاهداً أن ينجيه منه، لقد رأى ذلك المسرح، وارتجف من جديد من منظر السوق، ثم أحس بقشعريرة مع الشفاه التي كانت تشد في شفتيه أمس، ووجد التفسير لذلك اللغز الذي حيره طويلاً، لماذا لم يتزوج، ولم تتـزوج أخـواتـه، ولـماذا لم تتـزوج مضيفات الطائرات، وخادمات الفنادق، ومدراء الشركات، وأصحاب الفنادق، إن كل واحد يستطيع أن يصل إلى المرأة وقتما يشاء، ولماذا يكلف نفسه عناء الأولاد، وواجب الـزوجـة.. وفكر سويلم قليلاً وهو يقول لنفسه: (يا قاتلهم الله ألا يحسون بشوق للذرية!؟) وفتح الباب، ودخل عبدالله، ودخلت معه مريم، وابتسم ابتسـامة حزينة مع السلامة يا سويلم، هيء نفسك، وانقلت سويلم إلى حقيبته وهو لا يكاد يصدق، وحين فتح مؤخرة السيارة ليضع حقيبته وجدها ملأى بالحقائب، وبصعوبة حشرها في الداخل، ثم أخذ مكانه في المقعد الخلفي وتحركت السيارة يقودها عبدالله وبجانبه مريم، وهي بين الحين والحين تتلفت بإعجاب إلى سويلم!

قال عبـدالله: لقـد هيأنا كل شيء لك، ولقد أوصينا بك شركة الطيران التي ستتولى أمرك حتى تصل إلى القدس، فلا تكن لك فكرة، وها هنا ثلاث حقائب، فيها بعض الهدايا للأولاد، ففوجيء سويلم: (هدايا للأولاد!) قال عبدالله: نعم، أنت لا دخل لك بها، وإنما أنت فقط أمـين لتسليمها، وسكت سويلم وهو يحس بتقدير مضاعف لهذا